كتابي

١٠ قروش



حلمى مراد

من معروضات "صالون القاهرة"
لوحة من روائع الفنان "صبرى راغب"
(حرم الأستاذ حسين السيد)

كتابي

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر

صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب الرابع والسبعون (السنة السابعة) : مايو ١٩٥٨

الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة : أقرأ التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦

محتويات العـــدد

نافذة كتابى تطل على العالم

رأيت وسمعت لك... فى آسيا

للمحرر



الصين .. فى العصور الحديثة

عزيزى القارىء ..

• فى الفصلين السابقين لخصت لك ـ فى ٣٨ فقرة ـ أطوار الحضارة الصينيةالقديمة منذ القرن الرابع والعشرين «قبل» الميلاد ، الى القرن السادس عشر « بعد » الميلاد .. ووقفت بك عندما نشبت فى الصين ، فى منتصف ذلك القرن ، حرب أهلية لم تلبث ان شجعت جارة الصين ـ اليابان ـ على انتهاز الفرصة لمحاولة غزو الصين عن طريق كوريا ، وما تبع ذلك من هزيمة اليابانيين فى تلك المحاولة وفقدهم نحو ربع مليون مقاتل ، نتيجة لاستبسال القائد البحرى« يى سون سين » ـ «نلسون» الشرق الاقصى ـ الذى حول سفينة خشبية عادية الى سفينة حربية مصفحة ، بأن كسا جوانبها بصفائح من الحديد ، وأدخل على معداتها تعدىلات « جهنمية » أدت الى اغراق كل سفينة يابانية كانت تقترب منها !

وبذلك هزم اليابانيون فى تلك الحرب هزيمة منكرة !

ولكن هل اتعظوا ؟

كلا ، اذ لم تنقض خمس سنوات حتى خرقوا معاهدة الصلح وارسلوا ألف سفينة تهاجم الشاطىء الكورى من جديد !.. ومرة أخرى تصدى للأسطول المهاجم البطل « يى سون سين » فأمطر سفنه بسهامه المشتعلة بالنيران ، حتى دمرها جميعا . لكنه مات فى نهاية المعركة متأثرا بجراحه ـ كما حدث لنلسون بالضبط ! ـ غير انه مات مطمئن النفس ، بعد أن أيقن أنه حقق لبلده انتصارا كاملا مجيدا !

ومرة اخرى ، اضطر من بقى على قيد الحياة من الغزاة اليابانيين ، الى التسليم !

وبعد ذلك الدرس القاسى ، الثانى ، كفت اليابان عن ازعاج جيرانها .. لثلاثمائة عام تالية !

المجاعة تلجىء الشعب الى أكل لحوم البشر !

● على أن الصين لم تكد تتخلص من العدوان اليابانى،حتى وجدت على أبوابها عدوا قويا آخر ، هو «التتار» المنشوريون، الذين دفعتهم المظالم التى طالما تلقوها من الصينيين الى محاولة الاخذ بالثأر ، فزحفوا على الصين – فى عام ١٦١٦– وأحرزوا عليهم النصر تلو النصر ، حتى هزموهم هزيمة كاملة !

ورغم ان الظروف لم تلبث ان اضطرت المنتصرين الى العودة الى بلادهم والانسحاب من أرض الصين ، فان الدمار الذى أحدثه القتال والكوارث التى جلبتها تلك الحرب ، عجلت بسقوط أسرة « منج » التى كانت تحكم الصين . وبسقوطها نشب صراع وتنافس جديدان بين المتكالبين على عرش البلاد ، فراحت الجيوش المتنازعة تذرع أرضها وتعمل فيها نهبا وسلبا وتدميرا !

واستمر هذا الانقسام بين أقوى اثنين من رجال العصابات الذين كانوا يحاولون الاستيلاء على مقاليد الحكم ، **حتى عمت البلاد مجاعة رهيبة ، كان ((اللحم البشرى)) يباع فيها علنا فى الاسواق! وانتشر الدمار فى مدن بأكملها ، وقطعت سدود النهر الاصفر ففاضت مياهه حتى غمرت مساحات واسعة من البلاد !**

وساءت الامور حتى بلغت حدا اضطر معه الصينيون الى دعوة المنشوريين الى ردع الثوار العصاة. لكن هؤلاء لم يكتفوا بقمع حركة التمرد والعصيان ، بل احتلوا (بكين) واستقروا فيها ليحكموا أرض الصين بأسرها ، رغم نفور اهلها واشمئزازهم من بقائهم فى بلادهم ، وقد كان المفروض أن يعودوا أدراجهم الى منشوريا بمجرد انتهاء مهمتهم !

اجبار الصينيين على حلق رؤوسهم !

• **وهكذا** تولت الحكم فى عام ١٦٤٤ أسرة حاكمة جديدة ، هى أسرة « تا ــ تسينج ». وركز المنشوريون همهم فى محاولة اعادة السلام والرخاء الى ربوع البلاد ، الامر الذى تم بالتدريج ، فقد وجد الامبراطور الجديد « شــون تشى » ــ (١٦٤٤ ــ



القبة العليا لقصر الصيف ، أجمل قصور اباطرة الصين فى (بكين) ، وكان قد احرقه المستعمرون الفرنسيون فى القرن الثامن عشر ، ثم اعادت الامبراطورة تشييده من جديد . وسوف أحدثك عنه بالتفصيل عند زيارتنا معا للعاصمة الصينية فى عدد قادم باذن الله

١٦٦١) ـ صعوبة كبيرة في اعادة السلام وفرض النظام الجديد على الشعب . وكان من أغرب ما اضطر اليه الصينيون ، حلق رؤوسهم ووضع شعر مستعار على هيئة ضفائر شبيهة بذيول الخنازير ، رمزا لسيادة المنشوريين !

وفي تلك الحقبة بدأت الصين تخرج من عزلتها ، وترفع عنها استار الغموض ، ليزداد الاوربيون معرفة بها .. وفي عام ١٦٥٦ أرسل الروس سفيرا الى (بكين) ، لكنه لم يلبث ان طرد ، لانه لم يعرف كيف يحني جبهته للامبراطور !

ثم خلف « شون تشى » على العرش ابنه « كانج هى » ، الذى كان خاضعا لتأثير « الجزويت » ـ اليسوعيين ـ والذى حكم الصين ستين عاما ، (من عام ١٦٦١ الى عام ١٧٢١) . وقد كان محاربا ممتازا ، ولو انه اشتهر بصفة خاصة كمصلح ذى جهود موفقة فى ميدان العلم والثقافة ، سيما بعد ان نشر ـ بتوجيه منه ـ اول قاموس للغة الصينية . وخلال مدة حكمه ضمت بلاد التبت ذات الرقعة الواسعة الى الصين . على ان عهده شهد ايضا مأساة الزلزال المروع الذى دمر مدينة (بكين) ، وأهلك من اهلها اربعمائة الف نسمة !

وقد خلف «كانج هى» امبراطوران ، كان أولهما طيبا محبا للسلام ، بقدر ما كان الثانى ـ المدعو « كين لونج » ـ قاسيا لايكف عن شن الحروب ، حتى لقد غزا (بورما) مرتين خلال مدة حكمه التى استمرت ستين عاما ، (١٧٣٥ ـ ١٧٩٥) . وقد أمدته حملاته ـ مثله فى ذلك مثل « يوليوس قيصر » ـ بمخرج لموهبته الادبية ، فصار يكتب النثر وينظم الشعر بلا انقطاع .. وفعل الكثير من أجل تشجيع الادب ، عن طريق جمع الكتب ونشرها !

اما من الناحية السياسية ، فقد كانت علاقاته بالانجليز فى

الهند ابعد ما تكون عن الود، وكان السبب الاكبر فى ذلك راجعا الى سياسته العدائية نحو تجارهم . وقد بلغ من سوء هذه العلاقات ان أوفد الانجليز الى الامبراطور مبعوثا يبسط امامه شكاواهم . ورغم ان المبعوث استقبل فى بلاط (بكين) استقبالا حسنا ، الا انه لم ينجح فى مهمته !

صفحة سوداء فى تاريخ بريطانيا !

• **وكان** الامبراطور التالى أقل كفاءة من سلفه ، فسادت العهد القلاقل والثورات وعدم الاستقرار . وواصل الامبراطور سياسة سلفه العدائية نحو التجار الاجانب فى (كانتون) ـ منفذ الصين الجنوبى ـ فتدهور مركزهم الى حد اضطر الحكومة البريطانية الى ارسال مبعوثها اللورد « أمهرست » الى (بكين) فى عام ١٨١٦ . لكن هذا المبعوث بدوره لم يطأطىء الرأس لسلطة الامبراطور فى العاصمة الصينية ، فأصابه نفس المصير الذى اصاب سفير روسيا من قبل : طرد من البلاد دون ان يحظى بمقابلة الامبراطور !

وفى عام ١٨٣٤ اعادت بريطانيا الكرة ، فأرسلت « لورد نابيير » ليكرر المحاولة. لكن المصاعب والمشكلات التى واجهته وأقضت مضجعه فى (كانتون) ، أضرت بصحته أبلغ الضرر ، فلم يلبث ان مات !

وكانت تلك الفترة « فاتحة فصل أسود، من فصول التاريخ البريطانى » ، على حد تعبير المؤرخ الانجليزى المنصف **« أرثر فندلاى »** . . ولأدع هذا المؤرخ يروى لك القصة :

« كان الانجليز يحاولون ان يفرضوا على الصينيين ذلك المخدر الخطر «الافيون»، رغم معارضتهم الشديدة وتصميمهم الحاسم !. . فلما صادرت السلطات الصينية كمية من الافيون

المستورد واحرقتها ، اعلنت بريطانيا الحرب على الصين - فى عام ١٨٤٠ - ثم احتلت (هونج كونج) ، واحتفظت بهـا منذ ذلك التاريخ كمستعمرة بريطانية. كما احتلت بعد ذلك كلا من مدن : كانتون ، اموى ، نينج بو ، تنج هاى ، شابو ، شنغهاى ،



احدى شرفات حديقة « قصر الصيف » الامبراطورى فى (بكين) ، تطل على البحيرة الخلابة التى لا يقل جمالها عن بحيرات سويسرا .. كما لا يقل جمال المنظر الذى تطل عليه شرفات القصر العليا ، عن اروع مناظر ضاحية (كالنبرج) الشاهقة ، المشرفة على غابات (فيينا)!

تشين كيانج فو . . **وهى سرقات وضيعة تثبت ان مستوى بريطانيا الخلقى كان ما يزال يومئذ فى درك منخفض، وأن القوة اغتصبت مكان الحق ! ـ** (والكلام هنا للمؤرخ «الانجليزى» **!)**

« وقد أنتهت تلك الحرب الشائنة وذلك العدوان الذى لايغتفر ، بفتح موانىء : أموى ، وفوشوفو ، وننج بو ، وشنغهاى ، للتجارة الخارجية . . وبحصول بريطانيا على تعويض قدره ٢١ مليون دولار !

« ومنذ ذلك التاريخ أستمر العدوان البريطانى على الصين . وخشيت دول أوربية أخرى أن تستأثر بريطانيا بكل الثمرات ، فأنضمت اليها فى لعبة السلب والنهب ! . . وفى عام ١٨٥٧ ، أعلنت بريطانيا الحرب على الصين مرة أخرى ، دون مبرر ! . . ثم حذت اليابان حذوها فى عام ١٨٩٤ ، منتهزة فرصة خلاف طارىء بين الدولتين بسبب الفوضى التى سادت الاحوال فى كوريا » .

وكانت الصين فى تلك الآونة ـ من الناحية السياسية ـ اشبه بمرجل يغلى ، نتيجة للفساد الذى تغلغل فى الجهاز الحكومى حتى نخر عظام الدولة . ومن ثم صارت تنشب فيها الثورة تلو الثورة ، على التعاقب . . يضاف الى ذلك أن اتساع رقعة البلاد وعدم كفاية وسائل المواصلات كانا يجعلان الحكومة المركزية ـ أيا كانت ـ عاجزة عن فرض سيطرتها على كافة أرجاء الدولة .

وهكذا كانت الرواية نفسها تتكرر فى كل مرة يموت فيها الامبراطور الجالس على العرش : يتنازع الطامحون ويتكالبون على الاستئثار بالسلطة ، حتى يتغلب أحدهم وينهزم الآخرون !

ورغم ذلك فان كثرة تلك الثورات وتعاقبها لم يؤديا الى

انحلال ذلك الشعب الذى يرجع تاريخه الى ضباب الماضى البعيد ، بل أنه حافظ على اعتزازه بأسلوبه الخاص فى المعيشة ، وحرصه على صيانة حكومته واستقلاله . وقد تجلت هذه الحقيقة مرة أخرى حين بدأت الدول الاوربية تتدخل فى شئون الصين . **وكان من الطبيعى أن يحدث هذا التدخل أثره المحتوم فيبث فى قلوب الصينيين كراهية عميقة متزايدة نحو الاوربيين .. وهى كراهية تطورت حتى تمخضت عن مولد الحركة الوطنية التى أطلقوا عليها ((حركة الملاكم)) ، وكان هدفها طرد جميع الاوربيين من البلاد !**

وفى عام ١٩٠٠ ، وبتوجيه الامبراطورة و ((عطفها)) ، قام ((الملاكمون)) بنوبة من نوبات نشاطهم الوطنى ضد الاوربيين ((المتدخلين فى شئون البلاد)) ، فقتلوا منهم ٢٥٠ شخصا ، وأضطر الباقون الى التحصن داخل مفوضيات دولهم فى (بكين) ، حتى أخمدت الحركة ورفع الحصار عنهم بواسطة قوة أوربية مختلطة من شتى الجنسيات ، بقيادة جنرال ألمانى ، ولكن بعد أن تحول جزء كبير من (بكين) الى أنقاض !

وعلى أثر اخماد ذلك الطور من اطوار الحركة الوطنية الصينية ، ضم أقليم منشوريا الى روسيا .

مولد الصين الحديثة

• **وبتضاؤل** نفوذ ((الملاكمين)) الثوريين ، قوى نفوذ فريق آخر من الوطنيين الصينيين ، هو فريق العصريين المتمردين على التقاليد القديمة ، والذين كانوا قد تلقوا تعليمهم فى أوربا أو أمريكا . وقد بدأ هؤلاء دعوتهم بالسعى الى تعديل الدستور ، ونشر التعليم على نطاق واسع فى صفوف الشعب ، وتضييق الخناق على تجارة الافيون .. وقد

افلحت جهود هذا الفريق فى ارغام الامبراطور على التنازل عن العرش — فى عام ١٩١٢ — واعلان الجمهورية الصينية ، ثم اسناد رئاستها الاولى الى زعيم تلك الحركة ، البطل الوطنى المعروف الدكتور « سن — يات — سن » .. **وبذلك انتهى عهد السيطرة المنشورية على الصين — عهد جدائل الشعر ، وذيول الخنازير ! — وآل حكم البلاد الى حزب التحرريين من أبنائها المخلصين .**

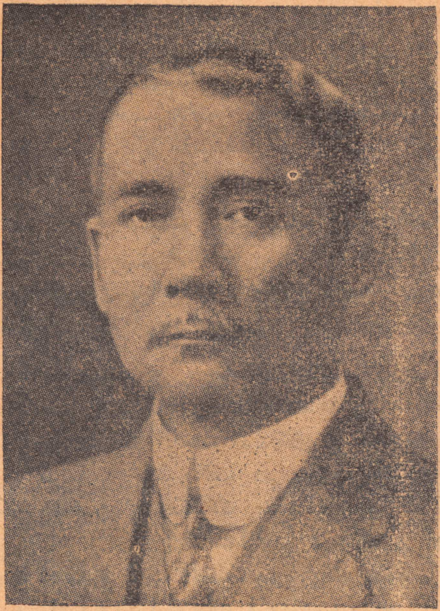
وقبل ان نمضى فى سرد قصة الاربعين سنة الاخيرة التى تلت ذلك التطور الهام فى تاريخ الصين ، نتوقف هنا قليلا ، كى أروى لك قصة حياة بطل الصين الحديثة وزعيم ذلك التطور : الدكتور « سن يات سن » .. الرجل الذى أقتبس من بلاد الغرب حضارتها الحديثة ، ثم عاد الى وطنه ليشعل نار مقاومة لا هوادة فيها ضد استعمار الغرب ، واستغلاله لثروات الصين !

قصة بطل

• فى عام ١٨٦٦ ولد فى (شوى هنج) — « قرية الوادى الازرق » — طفل جديد أطلق عليه والداه اسم « سن — ون » ، أى « سليل الحكمة » ! — الا انهما حين شب عن الطوق جعلا اسمه « سن — يات — سن » ،أى

« سليل التؤدة الخالدة » ! — ولقد كان اسباغ شرف هذه التسمية نادرا فى الصين بين أطفال الفقراء ، لكنهما حين أضفياها عليه صرحا لجيرانهما وأقربائهما بقولهما : « عسى أن يترعرع طفلنا ليكون رجلا غزير العلم ، بعد أن ينعم فى صباه بقليل من الوقت للعب »

غير أن الوقت الذى يتيح للصبى فرصة اللعب ، كان مطلبا غاليا أثناء شهور الدراسة ، فقد كانت أيام الاسبوع السبعة تنقضى فى استذكار الدروس. وحتى حين كانت تعرض خلال أوقات الدراسة سويعات قليلة للراحة ، كان « سن – ون » يقضيها فى الكد والكدح فى الزراعة مع أبيه ! .. واذ ذاك لم تكن الام تملك الا أن ترفع يديها نحو السماء مبتهلة مؤملة : **«من يدرى، ربما يأتى يوم – حين يكبر – تحمله فيه سفينة الى تلك الارض الواقعة عبر المحيط ، التى يسمونها (امريكا) ، حيث يقتنى ثروة ثم يعود الى قرية الوادى الازرق ليعيش فى رفاهية ويسر ! »**



الزعيم الصينى الكبير الدكتور «سن – يات – سن» . ولد عام ١٨٦٦ ، ومات عام ١٩٢٥ بعد أن حرر بلاده من الطغيان الداخلى والسيطرة الأجنبية

غير أن عمته المسنة التي كانت تعيش مع والديه ، حذرته

من ابناء « ما وراء المحيط » ، قائلة له : « انهم لقوم شواذ ، يرتدون الملابس الغريبة الشكل، وليس ثمة جدائل من الشعر تتدلى من رؤوسهم ! .. وهم حين يأكلون يستعملون شوكات معدنية مسننة ـ بدلا من عصينا الخشبية ـ كى يلقوا بالطعام الى افواههم . الا فلتبتعد عن اولئك البرابرة يا « سن ـ ون » ! »

فلم يكد « سن ـ ون » يسمع هذه الكلمات ، حتى اشتد به الشوق لأن يرى أبناء ما وراء المحيط هؤلاء ، محدثا نفسه : « قد يكونون برابرة .. ولكن لابد أن مرآهم يبعث على التسلية والسرور ! »

وكان يعيش فى قرية الوادى الازرق ثلاثة أخوة عادوا حديثا من بلاد ما وراء المحيط ، وكان قد أصبح لهم ـ من العمل فى مناجم الذهب ـ مال يزيد عما يملكه سواهم من أهل القرية . واذ مالت قلوب الاخوة الثلاثة الى « سن ـ ون » ، راحو يحكون له حكايات عديدة عن أولئك القوم الذين يعيشون عبر البحر .. « **اولئك الذين لايحكمهم كما يحكمنا امبراطور من « المانشو » ـ المنشوريين ـ يعتقل من افراد الشعب من يشاء ، ويسلب ماله ، وينهب بيته ! »**

وفى أحد الايام تمثلت هذه الكلمات فى صورة مأساة واقعية امام بصر « سن ـ ون » ، اذ هجمت فرقة من جنود « المانشو » على مزرعة الاخوة الثلاثة ، واعتقلتهم ! .. واذ ذاك راح « سن ـ ون » يسأل أباه :

ـ ماذا تظن انه قد حدث لاولئك الرجال ؟

ـ **لقد اعدموا .. ضربت اعناقهم !**

ـ لاية جريمة ؟

ـ **لغير جريمة على الاطلاق .**

ـ واذن فلماذا فعل « المانشو » ذلك ؟

ـ السبب بسيط جدا : « ان الامبراطور « ابن السماء » طمع فى أملاك الاخوة الثلاثة ، فقتلهم ليستولى على هذه الاملاك ! »

ونفذت هذه الكلمات الى سويداء قلب « سن ـ ون » .. فاشتاق الى أن تتاح له يوما فرصة الرحيل الى بلاد ماوراء المحيط ، حيث لا يوجد امبراطور من « المانشو » يغتال أفراد الشعب ويستولى على أملاكهم !

التجربة التى علمته الصمود لمناوشات خصومه !

• **وفى** سن الثالثة عشرة سنحت امام « سن ـ ون » الفرصة ليرى أبناء ماوراء المحيط : فقد كان اخوه الاكبر « دا ـ كو » قد أبحر منذ سنوات الى (هونولولو) فى عمل من أعماله ، ونجح هذا العمل ، فاستدعى « دا ـ كو » أخاه « سن ـ ون » ليوافيه فى (هونولولو) كى يعمل مساعدا له .

ويالها من حياة جديدة ومثيرة كانت فى انتظار « سن ـ ون » .. فها هو ذا يغدو تلميذ مدرسة فى الصباح ، ومستخدما فى محل أخيه فى المساء . وهناك بدأ يرى اولئك الشواذ « ابناء ماوراء المحيط » ، ويتعامل معهم .. اولئك الغربيين ذوى البشرة البيضاء .. وها هو ذا يشهد بعينيه انهم ليسوا برابرة البتة ، وانما هم قوم يتمتعون بنعمة غير معروفة فى بلاده ، وهى الحرية فى ظل القانون . آه ، لو أن شعب الصين أوتى هذه النعمة !

وكانت حياته الجديدة مثيرة حقا . ولكن وجه الاثارة فيها لم يكن بهيجا على الدوام ، **فان تلاميذ المدرسة من أبناء (هاواى) مالبثوا أن دأبوا على مناوشته بسبب جديلة الشعر التي كانت تتدلى من رأسه . وكان كبار السن منهم لايفتأون**

يجذبونه منها كلما مر بهم ، فيؤلمه ذلك أشد الالم . . غير أنه ظل صابرا على أفعالهم تلك معه ، أياما . . ثم طفح الكيل فى نهاية الامر ، فدعاهم للنزال . . واذ ذاك نظروا اليه شزرا قائلين : « يالها من مهزلة مضحكة ! » ، فقد كان الفتى الصينى يبدو لهم هزيلا ، واهن العظم ، فظن أولئك الصغار ذوو الطراطير أن الامر لن يعدو أن « يمسحوا به الارض » !

فلما بدأ النزال ، اتضح لهم أن ذلك الذى بدا لهم ضعيفا متهالكا ، انما يطوى ساعديه على عضلات من الفولاذ ، وله من القوة والعزيمة ما لشعلة النار . . فان السنوات التى قضاها فى الكدح فى حقول الوادى الازرق قد أحالته الى « آلة مقاتلة » ذات بأس ! . . وحين انتهت المعركة ، لم يكن « سن — ون » هو الذى اضطر لان يعض أديم الارض ، وانما كان الذى فعل ذلك هم . . خصومه ومناوشوه !

غير أنهم — رغم ذلك — لم يدعوه وشأنه ، ولم يسكتوا عنه ، فانهم حين استشعروا المذلة من هزيمتهم التى أوقعها بهم ، راحوا يدبرون له خططا أكثر جبنا — وان تكن أقل ايلاما — من وسيلة جذب جديلة الشعر التى كانوا قد دأبوا على تعذيبه بها ، وهو الذى يصغرهم جميعا فى السن ! . . **لكن الفتى احتمل صغائرهم بكثير من الصبر والجلد ، ولم يرفع فى وجوههم يدا . . حتى مل أولئك الصبية فى النهاية مناوشاتهم الدنيئة ، وكفوا أذاهم عنه !**

وكان من أثر هذه الاحداث فيه ان اكسبته طابع الهدوء والصبر . وحين لاحظ اخوه « دا — كو » هذه الصفة فيه ، استبشر قائلا : « لست أشك فى ان أخى الصغير حين يشب عن الطوق سيغدو رجلا يعتمد عليه ! »

يتعلم من الغربيين العصيان ، ليتمرد على استغلالهم لبلاده !

• **وبالفعل** ، ما أن بلغ « سن ــ ون » السادسة عشرة ، حتى بدت عليه مخايل الرجولة الناضجة . وكانت السنوات الثلاث التى قضاها بالمدرسة فى هونولولو قد اكسبته الماما تاما باللغة الانجليزية ، كما اتاحت له استيعاب قدر كبير من العلوم الرياضية ، وفهم التاريخ فهما بالغا ، بحيث ظفر بجائزة خاصة عن تفوقه فى دراسته .

غير انه فى الوقت الذى نال فيه جائزة عن تفوقه الدراسى ، نراه قد تلقى من الناحية الاخرى انذارا وتحذيرا بسبب مابدا عليه من ميل نحو الثورة والعصيان ! .. وفى هذه المناسبة قال له أخوه الاكبر : « اراك قد بدأت تنحو نحو التخلق بأخلاق الغربيين ، اكثر مما تنحو لان تكون صينيا مبجلا ! » .. فأجابه « سن ــ ون » بقوله : **« ان بلوانا نحن الصينيين اننا ظللنا زمنا طويلا « مبجلين » ! .. وتحت ستار هذا التبجيل ظل ملوكنا يهوون على رؤوسنا بالسياط طيلة قرون عديدة** ، وهم مايفتأون يستبدون بنا ، ولسان حالهم يقول : « افعل هذا ، ولا تفعل ذلك ، والا فلن تكون رجلا كريم الاخلاق ! » .. **لقد سئمت من أعماق قلبى ان ارى الصين بلاد الرجال الطيبين .. انى اريد ان اراها وقد اصبحت بلاد الرجال الاحرار ! »**

ــ ان هذا لاتجاه خطير يا أخى ! .. فأنت تريد ان تغير مجرى القرون .. تريد أن تعلن الحرب على التقاليد الصينية .. فى حين انك تعلم مبلغ تقديسنا للتقاليد ! »

ــ ليس فى الطغيان والاستبداد ما يستحق التقديس !

هز « دا ــ كو » رأسه ، مشفقا .. فقد طلق اخوه ماكان الصينيون يعتبرونه اعظم فضائلهم ، وهو الاذعان لما قدر

لهم ! . . ومضى اكبر الاخوين ينصح الاصغر : « **لقد تشربت حتى أعماق نخاعك بعصير التمرد وانعدام الصبر ، الذى يتصف به ذوو البشرة البيضاء** . . وها أنتذا قد غدوت قلقا مضطرب النفس . . وأعتقد ان من الخير لك ان تعود الى الهدوء الذى يسود مزرعة ابيك فى (شوى هنج) »

وعمل « سن ــ ون » بنصيحة أخيه ، فعاد الى مسقط راسه ، لكنه لم يعد الى حياة الدعة والهدوء !

الحقيقة التى فتح عليها أعين مواطنيه !

• **واذ** بلغ « سن ــ ون » الثامنة عشرة ، غدا فتى ثائرا ، قد اكتمل ريشه ! . . فانطلق بين الناس يوقظهم من سباتهم الذى ظلوا مستغرقين فيه آلاف السنين . . ويحرضهم على ان يحطموا الاغلال التى كان يصفدهم بها امبراطور «المانشو» . . قائلا لهم : « ان هذا الرجل يدعو نفسه « ابن السماء » ، وانا أقول لكم انه ابن الجحيم ! . . انه يطلب اليكم ان تدفعوا له الجزية وتحنوا له الرؤوس . ولكن اين تذهب الاموال التى يأخذها ، ولاى غرض يجبيها منكم ؟ هل لبناء المدارس ، واقامة الكبارى ، وشق الطرق من أجلكم ، انتم شعبه ؟ كلا . . **وانما تذهب اموالكم لتملأ خزائن امبراطور « مانشو »،ولتمهد له سبل الفسق والفجور ، وليدفع منها اجور اتباعه الذين يستذلونكم ويطأونكم بأقدامهم ! »**

هكذا كان يقول لهم ، فلا يملك أنصار التقاليد العتيقة الا ان يعلقوا على اقواله مبهوتين : « انها تعاليم كافر ! » . . غير ان « سن ــ ون » لم يكن ينى مع ذلك عن ان يمضى برسالته قدما فى بسالة ، ليوقظ ابناء وطنه ويخرجهم من ظلمات جهالتهم ، وقد صمم على الوصول الى غايته تصميما ينم عن

عزيمة من فولاذ .. فهو لايفتأ يقف بين افراد الشعب وفى يده قطعة من النقود ، ويروح يسأل سامعيه :

ـ من الذى يسك هذه النقود ؟

ـ حاكم الصين .

ـ ومن هو حاكم الصين ؟

ـ ابن السماء .

ـ هل هو واحد منا ؟

ـ نعم .

ـ وهل الذى يعتبر واحدا منا ، يمكن أن يكون « ابن السماء » ؟

ثم يقلب « سن ـ ون » قطعة النقود النحاسية ، ويقول :

ـ انظروا الى الكلمات المنقوشة على هذه القطعة .. هل هى كلمات صينية ؟

ـ كلا .

ـ كلا ، من غير شك .. انهـا كلمات بلغة « المانشو » .. كلمات اجنبية .. **فالصين يحكمها اجنبى !**

.. يالها من اخبار عجيبة ! ان اغلب ابناء الشعب لمن الغفلة بحيث كانوا يجهلون حتى الآن ان امبراطورهم اجنبى .. غاصب !

وبدأ الناس ينصتون الى « سن ـ ون » ، ويومئون اليه ايماءة المؤمنين على كلامه !

لكن غالبية الشعب كانت ماتزال مثقلة الاجفان بالسبات العميق .. فكانت كلمات « سن ـ ون » أفدح من ان يتحملوا وقعها .. لانه لم يكن يوجه حملاته ضد ابن السماء وحده ، وانما ضد السماء ذاتها ! .. لقد كان يحاول أن يؤلبهم على آلهتهم ، ويضرم فى نفوسهم نار الثورة على اصنامهم المعبودة !

. . وكانت فى معبد القرية ثلاثة أصنام : يمثل اولها ملك النجمة الشمالية . . ويمثل الثانى ملكة السماء . . ويمثل الثالث الالهة الوالدة ! وكان أهل القرية يأتون بذبائحهم لهذه الآلهة ، ويرفعون اليها تضرعاتهم ، خشية ان تجلب عليهم النحس وسوء الطالع ، وتصب عليهم جام غضبها ! كانت عبادتهم لها صادرة عن خوف ، لا عن حب ! . . وكان هذا الوازع خرافة انحدرت الى اعماقهم من الماضى المجهول ، واتخذت وجهتها الى المستقبل المجهول . **ولقد كرس « سن — ون » حياته لتحطيم هذه الخرافة ! . . « ان هذه الصور والتماثيل المرسومة والمنتصبة فى كل انحاء الصين ، يجب تقويضها قبل أى شىء آخر ، حتى يتسنى للصين ان تغدو امة متقدمة ! »**

ولقد عقد العزم على ان يبدأ بتحطيم التماثيل فى قريته . . فجمع ذات يوم بعض الشباب حوله ، واتجه بهم الى المعبد . وهنالك وقف امام صنم النجمة الشمالية . . فما كان من بعض اتباعه الا ان انطرحوا عند أقدام الصنم وراحوا يبتهلون اليه . . فأمرهم « سن — ون » بأن ينهضوا وقوفا على اقدامهم ، قائلا لهم : « اسمعوا يا اصدقائى ماأقوله لكم : « ان هذا الاله لا قدرة له على أن يساعد واحدا منكم ، بل لا قدرة له حتى على ان يساعد نفسه ! »

واذ قال ذلك ، أمسك بأحد الاصابع الخشبية لصنم الاله واقتلعه ، ثم التفت الى أتباعه وقال : **« انظروا . . انه لم يفعل شيئا ليمنعنى . انه لم يطرحنى ميتا . . بل لم يبعث بالخوف الى قلبى . . وانما بقى عابسا فى بلاهة ، كما كان من قبل ! »**

وروع المشهد مرافقيه . . وانتشر خبره فى القرية كلها ، انتشار النار فى الهشيم ! . . ومن ثم راح الآباء يحذرون

أطفالهم ، آمرين اياهم الابتعاد عن طريق « ذلك المجنون ، محطم الاصنام ! » .. ثم اتجهوا الى عائلة « سن ـ ون » يطلبون اليها أن ترسل به بعيداً عن القرية ، قائلين : انه لو بقى هنا ، فسوف يجلب النحس علينا جميعا ! »

وهكذا حدث ذات صباح ، عند الفجر ، ان انطلق « الابن الآثم لابيه الفاضل » ، مغادرا قرية الوادى الازرق ، وصوت والديه يرن فى أذنيه قائلا : « لعلك تعود يوما منسحق القلب بالتوبة والندم ، لترد شرف أسرتك العريقة ، وتسير فى طريق التعاليم القديمة القويمة للصين »

غير أن « سن ـ ون » كان له مطمع آخر فى قلبه : فقد اعتزم أن يحقق لاسرته ـ وللصين بأسرها ـ حكمة العهد الجديد !

يدرس الطب ، ليبتر الفساد من جسد الصين !

• **واستقل** الشاب المطرود من قريته سفينة الى (هونج كونج) . وهناك عاد الى دراسته ، كما واصل تعاليمه الثورية، وبعد أن تخرج فى كلية الملكة ـ وكان اول فرقته ـ درس الطب فى جامعة (كانتون) . وكانت مهنة الطبيب هى المهنة الملائمة لثائر مثله ، لانه بعمليات البتر الحاسمة ، للمواضع المصابة ، كان يمكنه أن يطهر جسد الصين وروحها . ورغم انه انكب انكبابا عظيما على دراسته الطبية ، فقد وجد متسعا من الوقت ليزاول نشاطه السياسى . وبمعاونة أحد زملائه فى المدرسة ـ المدعو « شنج سى ليانج » ـ نظم جمعية من الطلبة كرست جهودها لتحقيق غاية مقدسة هى مولد « الصين الحرة » ! .. وقد أطلق هؤلاء الشبان على انفسهم « جماعة المتجاسرين على الموت » . وكان اسما على مسمى ، فقد كانوا متأهبين لبذل حياتهم فى معركتهم ضد اباطرة « المانشو » !

وقد كانت الجماعة فى البداية صغيرة قليلة الخطر ، غير أنها نمت واشتد ساعدها بقيادة « سن ــ ون » ــ الذى عمل، بعد انتهاء دراسته ، طبيبا فى (كانتون) ــ حتى تمكنت الجمعية فى النهاية ، عام ١٨٩٥ ، من اشعال نار الثورة ضد حكام الصين !

ولكن الثورة فشلت .. ووضع الحكام ثمنا لرأس « سن ــ ون » ! .. غير انه وفق الى الهرب الى جزيرة (هاواى) ، ومنها فر الى أمريكا . وهناك راح يرسم الخطط ، ويكتب ويخطب ، ويجمع الاموال ، فى سبيل بذل محاولة أخرى من أجل تحرير وطنه . ولم يكن يداخل الطبيب الشاب أوهن شك فى بلوغ النصر النهائى ، فكان لا ينفك يعلن للملأ انه « سيأتى ذلك اليوم الذى تضطر فيه الصين الى ان تتحرك! » .. ثم يستعير كلمات نابليون فيضيف : «وحين تتحرك الصين، فسوف يتحرك العالم ! »

ومن نافلة القول الحديث عن خطورة الرسالة التى كان الشاب يحتضنها ، فقد كانت لدى القنصليات الصينية فى جميع مدن أمريكا أوامر مشددة من حكام الصين بان يغتالوه ويتخلصوا منه فى أية فرصة ! .. لكنه كان يفلح فى الافلات من أعدائه فى كل مرة .. كان « كالشبح الطائر » ، جسورا أمام الاهوال ، متأهبا للموت ، معتادا على الشدائد .. شأن من كرس حياته لتحقيق حلم ضخم !

وحين أتم رسالة الدعاية لقضيته فى امريكا ، انتقل منها الى انجلترا . **وهناك تمكن منه أعداؤه : فقد اختطفته هيئة السفارة الصينية فى لندن .. و .. بدا ان قد « جاءت أخيرا نهايته ، ونهاية كل تلك المحاولات الخبيثة لاقامة جمهورية صينية ! » ، على حد تعبير خصومه الشامتين !**

غير أنه ـ مرة أخرى ـ دبر خطة للهرب .. وسرعان ما « اختفى الشبح الطائر فى الفضاء المترامى » ! .. كان من المستحيل التغلب على خفة حركته . ولم تكن ثمة طلقة من طلقات الرصاص لها السرعة الكافية كى تصيبه ! .. ولا كان ثمة خطر مهما اشتد يقوى على ان يخيفه أو يوقفه عن مواصلة الاضطلاع برسالته . ان « سن ـ ون » لم يكن يفهم معنى الخوف !

يتبع فى السياسة أساليب المصارعة الصينية القديمة !

• **وكان** يبث فى أعوانه جراته ويعلمهم سرعته . وحين تحقق من ضعف جماعته الثورية الصغيرة ـ بالقياس الى قوة الحكام ـ راح يتبع فى رسم خططه طريقة المصارعين الصينيين القدماء .. « **اجعل قوة عدوك تستهلك نفسها .. اعتبر نفسك كالعتلة ، كى تكسر عظامه . لا تقاوم غريمك ، وانما دعه يستنفد كل قوته ضدك .. ثم ـ بحركة سلبية بارعة ـ دعه يحطم نفسه على صخرة تغييرك الفجائى للتوازن ..** ان قوته هى المطرقة ، وقوتك هى السندان ، فدع خصمك يهوى محطما بين مطرقته وسندانك » !

وبطريقته هذه فى المصارعة ـ المادية، والادبية، والاجتماعية، والسياسية ـ اعتزم « داود » الصينى أن يهزم « جوليات » الجبار ، المتمثل فى أباطرة « المانشو » ! . ومن اجل هذه الغاية اسس مركز قيادته فى اليابان ـ خلال عام ١٨٩٩ ـ على مسافة لاتعدو مرمى الحجر من القنصلية الصينية فى (يوكوهاما) ! وكانت هذه حركة جريئة وبارعة فى الوقت عينه : **جريئة ، لأنه كان معرضا ـ كلما خرج من مكتبه ـ لان يصطاده اتباع « المانشو » برصاصة ! .. وبارعة ، لان أية محاولة كهذه لاغتياله كانت خليقة بأن تعجل بنشوب الثورة فى الصين ، اذ كان قد أصبح الآن .. معبود الجماهير !**

ومن هذه النقطة بدأ كفاحه الصبور لتقويض قوة « المانشو »

بسلاح بسيط مسنون ظل يخزهم به يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر ، وعاما بعد عام ! وهذا السلاح هو ان : « ليس للامبراطور « حق الهى » فى ان يحكم الشعب حكما مطلقا .. بينما للشعب ذلك الحق الالهى فى ان يحكم نفسه بنفسه : واذن فليرفض الشعب الصينى طاعة الامبراطور ، وعندئذ سوف يموت الاخير من تلقاء نفسه :. من فرط ضعفه ! »

.. وبتكرار استعمال هذا السلاح البسيط المسنون ، بدا الصينيون يقتنعون به ويصدقونه ، كما بدأ أنصار الحكام يصدقونه .. بل بدأ الحكام أنفسهم يصدقونه ! واذ ذاك بدأوا يشعرون بالارض تميد تحت اقدامهم .. حتى اذا لجأوا الى اتباعهم ، يلتمسون عونهم ، وجدوا ان اولئك قد احنوا الهامات لزعامة « سن ـ يات ـ سن » (كما صار يدعى) !.. وحينئذ حق عليهم القول « أن أولئك الذين تخلى عنهم اصدقاؤهم ، سرعان ما تتخلى عنهم آلهتهم » ! .. ذلك ان القوة المتزايدة « لجيش التحرير » قد القت بهم فى هوة الهلع الذى شل حركتهم .. فى الوقت الذى ارتفع فيه صوت الشباب المتحمس ، غاضبا ، متأهبا للسير فى طريق النصر . ارتفع ذلك الصوت فى كل مكان من الصين : فى الاسواق .. فى الحقول .. فى مشارب الشاى .. الخ

وبدأت موجات الثورة تجتاح الصين من أقصاها الى اقصاها ، وتصب سيونها جميعا فى اتجاه قصر ابن السماء !

.. وفى تلك الاثناء ، راح « سن ـ يات ـ سن » يحاول ـ المرة تلو المرة ـ ان يضرب ضربته الاخيرة ، فكان يفشل .. لكن كل مرة من مرات الفشل كانت تدنيه من النجاح خطوة !.. عشر مرات حاول ان يعلن قيام الجمهورية الصينية ، لكنه فى كل مرة كان يتبين ان اليوم لم يحن بعد لتنفيذ خطته . **غير ان ملوك « المانشو » ادركوا بصورة لاتقبل الشك ، ان الغاية التى يسعى اليها الزعيم الثائر .. لم تعد بعيدة !**

واخيرا حل ذلك اليوم التاريخي من سبتمبر ١٩١١ ، وكان « سن ــ يات ــ سن » يقوم يومئذ برحلة فى أمريكا ليجمع الاموال من اجل تحرير الصين .. واذ تناول احدى الصحف



أعضاء الوفد الثقافى المصرى الى الصين الشعبية ، بين سيادة سفير الجمهورية العربية فى (بكين) ــ الى اليمين ــ والمستشار الثقافى للسفارة ــ الى اليسار ــ امام الواجهة الخلفية للمنزل الذى كان يقطنه الدكتور « سن ــ يات ــ سن » فى شنغهاى ، وهو منزل يتميز بالبساطة و البعد عن الترف !

اثناء وجوده فى مدينة (دينيفر) ، بولاية (كولورادو) ، قرأ عنوانا ضخما فى صدرها جعل قلبه يقفز بين جنبيه !.. وكان العنوان يقول : « الثوار يحتلون (ووتشانج) ! »

واذن فقد تحقق الحلم : فذهبت سلطة « المانشو » .. ووصلت الصين اخيرا الى شاطىء الحرية !

وفى اول يناير سنة ١٩١٢ ، بويع « سن ـ يات ـ سن » كأول رئيس لجمهورية الصين !

المعجبة التى تدلهت فى حبه !

• فى تلك الايام ، كانت تتلقى العلم فى كلية (وسليان) بولاية (جورجيا) ، فتاة صينية اسمها « شنج ـ لنج » ، من سليلات اسرة « سنونج » الشهيرة ـ وهى شقيقة « ماى ـ لنج » التى أصبحت فيما بعد زوجة القائد الصينى « شيانج كاى تشيك » ـ فأوحى نجاح الثورة الصينية الى تلك الفتاة ان تكتب مقالا لمجلة مدرستها قالت فيه : « ان واحدا من اعظم احداث هذا القرن ، هو تحرير الصين .. فان معناه تحرير اربعمائة مليون نفس من ربقة استعباد ملكية مطلقة عاشت اكثر من اربعة آلاف سنة .. وتحت سلطانها أنكر على الشعب حقه فى الحياة ، وفى الحرية ، وفى السعادة ! .. ان العالم أجمع كان ينظر فى ريبة الى امكان تحقيق آمالنا فى جمهورية صينية . بل كان البعض يقابلون بالسخرية حتى رجاءنا فى قيام حكومة دستورية فى وقت قريب . لكن العداء لحكم « المانشو » كان يكمن دائما فى أعماق قلوبنا نحن الصينيين جميعا ، سواء كنا سياسيين أو عمالا .. رجالا أو نساء ! »

وحين بويع « سن ـ يات ـ سن » رئيسا لاول جمهورية صينية ، احتفلت الفتاة « شنج ـ لنج » بهذه المناسبة بأن

رفعت على نافذة حجرتها راية الجمهورية الجديدة ذات الاشرطة الخمسة ! .. وما ان تخرجت فى كلية (وسليان) — عام ١٩١٣ — حتى كتبت الى أحد أساتذتها تقول : « **سرعان ماسأكون فى طريقى الى وطنى .. ولسوف أحمل صندوقا من فاكهة كاليفورنيا الى الدكتور « سن » ، تحية من المعجبين به هنا .. كما سأحمل فى زهو وفخار خطابا خاصا اليه !** »

وقد فعلت ..

لكنها حملت اليه أيضا مع ذينك التذكارين .. قلبها !

فقد قابلت بطلها .. وأصبحت سكرتيرة له .. وبعد قليل صارت زوجته !

وقد كان « سن — يات — سن » متزوجا من قبل .. لكن زواجه كان تعيسا .. أما زواجه الثانى فقد كان سعيدا ، بقدر ماكان طويل العمر .

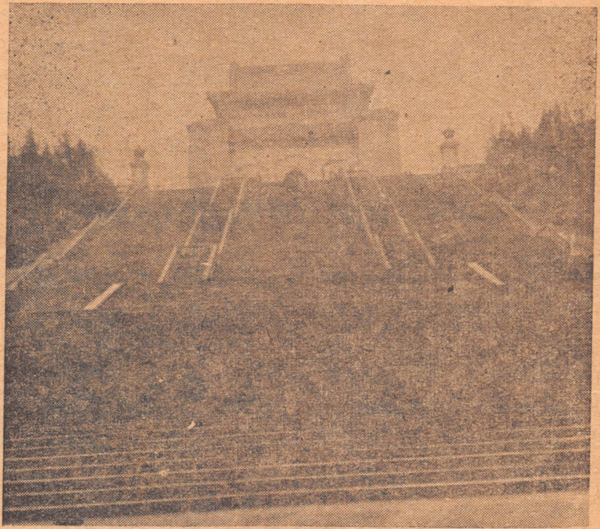
الخديعة التى أفقدته ثمرات كفاحه !

• **لكن** الحياة لم تحمل الى « سن — يات — سن » السعادة وحدها ، بانتصاره على أعدائه ، وتحقيق أحلامه ، وانما حملت اليه معها الغدر والخيانة ، من اقرب المقربين اليه ! .. **فبعد عام واحد من توليه رئاسة الجمهورية ، انتابه الشك فى مقدرته كحاكم ادارى ، فتنحى عن منصب الرئاسة الى احد رجاله ، المدعو « يوان — شى — كا ى »** . وكان هذا موظفا سابقا فى خدمة الامبراطورية ، وقد تولى اقناع امبراطور « المانشو » بالتنازل عن العرش . كان ذلك هو دوره فى الثورة ، وقد أداه كوسيلة الى تحقيق مطامعه الخاصة ، وليس عن اخلاص لمبدأ الجمهورية ! .. فلما وصل الى غايته تلك وأصبح رئيسا للجمهورية ، بدأ يسلك سبيل الطغيان والديكتاتورية . **بل لقد تبين « سن — يان — سن » وان يكن**

بعد فوات الاوان ! ـ ان خلفه يسعى كى يتوج « امبراطورا » الصين !

وبمجرد انبلاج هـذه الحقيقة المروعة أمام عينى « سن ـ يات ـ سن » ، بادر الى الوقوف فى وجهه .. غير أن « يوان ـ شى ـ كاى » كان قد سيطر على الجيش ، وأعلن أن «سن يات ـ سن » خارج على القانون . بل وأعلن عن ثمن لرأسه !!

ومرة اخرى ، هرب الزعيم سىء الطالع الى اليابان ، حيث راح يجمع القوات لتحرير الصين من جديد ! وفى تلك الاثناء



المقبرة « العالمية » التى اقيمت فى مدينة (نانكنج) للزعيم الصينى الدكتـور « سن ـ يات ـ سن » ، وهى مـن أضخم وافخم مقابر العظماء فى العالم .. ويتألف «السلاملك» الرائع المؤدى اليها من اربعمائة درجة ، ويبلغ عرض هذا « السلاملك » حوالى ثمانين مترا !

كان خلفه قد نصب نفسه امبراطورا ، (فى عام ١٩١٥) !
وكانت فترة تعسة فى حياة « سن ـ يات ـ سن » .. وحتى حين شاء انتقام الاقدار أن لا ينعم المتآمر بثمرة خيانته ـ **اذ وافاه أجله المحتوم فى العام التالى لتتويجه !** ـ فقد ظلت العقبات تحول بين « سن ـ يات ـ سن » وبين مقاعد الحكم ، اذ سقط العرش فى أيدى مغامرين آخرين ، ورثوا الخائن فى مقعده ، وفى طغيانه .. فوقعت الصين مرة أخرى فى براثن الفوضى والحروب الاهلية !

النهاية !

• **وهكذا** قضى « سن ـ يات ـ سن » السنوات العشر الاخيرة من حياته ، يكافح ليستعيد لوطنه الحرية التى كانت فى قبضة يده يوما !

ولكنه لم يفقد الامل أبدا ، أو يستسلم لليأس .. حتى حضرته الوفاة ـ فى عام ١٩٢٥ ـ فلفظ أنفاسه وهو يعرب لمن حوله عن يقينه بان الصين لن تلبث أن تصل الى بر الأمان، فان جهود المخلصين لا تضيع هباء ، والنصر لابد أن يتوج كفاح الشعوب !
وقد كان ..

وفى العدد القادم بعون الله أحدثك عن زياراتى لبيت الزعيم « سن ـ يات ـ سن » فى (شنغهاى) ، ومقبرته الرائعة فى (نانكنج)

ترقب بعد أيام الجزء الثانى من ملحمة
((هوميروس)) الخالدة ((الالياذة))، متضمنا ثمانى
أناشيد أخرى من الملحمة، تبدا بالانشودة السابعة

الإلياذة ΙΛΙΑΣ هوميروس



الأنشودة السابعة

ليلة في بومباى

قصة مصرية

بقلم: محمود البدوى



رجع « كمال » الى مكتب شركة السياحة وهو شاعر بالضيق ، فهو لم يكن راغبا فى أن يقضى الليل فى هذه المدينة الخانقة الانفاس .. كان حرها لايطاق ، فكان « كمال » يحس ــ مذ بارح الطائرة ــ كأن جلده يلسع بالنار .. وكان العرق الغزير اللزج يلصق بذلته وقميصه بجسمه ، فيضاعف هذا من عذابه وتوتر أعصابه !

لقد حدث خلل فى محرك الطائرة التى كان يركبها الى (بانكوك) ، فأنزلوه منها مع بقية الركاب حتى يصلح العطب .. فلما لم يتم الاصلاح على الوجه المرجو ، اضطروهم الى قضاء الليلة فى (بومباى) ، ريثما تأتى ــ فى الصباح التالى ــ طائرة أخرى تابعة لنفس شركة الطيران ، فتنقلهم الى غايتهم

وركب « كمال » سيارة الشركة الى الفندق الذى اختاروه لهم ، فوجد أنهم حجزوا له غرفة مشتركة مع شخص لم يكن يعرفه .. وأبى على نفسه هذا الوضع ، فرجع الى الفتاة الموكلة بمكتب استعلامات الشركة ، ليعلن سخطه .

ونظرت اليه الفتاة بابتسام وقالت برقة :

ــ سأبحث لك عن غرفة أخرى ..

وأخذت تتصل بفندق « تاج محل » .. ثم قالت :

ــ آسفة .. لايوجد فى « تاج محل » سوى الغرف الثلاث المحجوزة لكم ..

ــ ولكنى لا أنام مع شخص لا أعرفه .. أرجو أن تبحثى لى عن غرفة فى فندق آخر .. على حسابى ..

وأقبلت على التليفون تتصل بالفنادق الكبيرة فى المدينة ، لمدة نصف ساعة ، ثم نظرت اليه باسمة وقالت :

ــ آسفة ، **لاتوجد أية غرفة .. أننا فى موسم الاعياد**

و (بومباى) مزدحمة بالوافدين

ــ اذن سأبيت هنا ..

فقالت ضاحكة : « ان المكتب سيغلق بعد ساعة »

ــ هذا أدعى للاطمئنان ، اذ أننى سأنام والباب مغلق .. !

وعادت الفتاة تضحك ، ثم خرجت الى وسط القاعة .. وبدت طويلة ملتفة العود .. ودخلت فتاة أخرى ــ فى تلك اللحظة ــ فسلمت على موظفة الشركة .. واخذت تتبادل معها الحديث ..

وأخذ كمال ينظر الى الفتاة الجديدة .. كانت ترتدى ساريا أصفر جميلا ، على قوام طويل لدن .. وكان شعرها أشقر غزيرا ، وعيناها خضراوين فى صفاء ورقة .. أما قدماها ، فكانتا فى خف يبرز أصابع القدم الصغيرة .. كانت كلها تبدو أجمل ماتكون فتنة !

وتحدثت الموظفة معها بالهندية قليلا ، ثم عادت الى التليفون ، حتى اذا وضعت المسماع ، قالت وهى تنظر الى كمال :

ــ مس شارى .. أعرفك بالسيد « كمال » ، من ركاب الطائرة « النسر » التى تعطلت عن السفر الليلة ..



ومد كمال يده مصافحا .. واستطردت الموظفة :

ــ وما دمت ذاهبة الى البيت ياشارى ، فأرجو أن تأخذى معك السيد كمال الى فندق « وندسور » .. فقد حدثتهم الساعة ليحجزوا له غرفة ..

وقالت مس شارى وهى تنظر الى كمال برقة : « تفضل ! » وركب بجانبها فى سيارتها التى انطلقت تتهادى فى الشارع . ولاحظ « كمال » انها تتخذ الجانب الايسر من الطريق، فسألها : « هل أنت أنجليزية ؟ »

ـ لا ، اننى هندية .. والدتى أنجليزية .. ولماذا خمنت هذا ؟

ـ لون شعرك .. وعيناك ..

ـ هل أنت ذاهب الى دلهى الجديدة ؟ .. ستجد الجو مختلفا والمدينة أشد روعة ..

ـ .. اننى ذاهب الى بانكوك

ـ أوه ! .. سترى أجمل الفتيات فى سيام .. ها قد اقتربنا من الفندق ..

ونزلا من السيارة .. ودخلا الفندق ، فسر « كمال » من فخامته ، وبهاء قاعة الاستقبال . وصافحت وجهه طراوة امتصت العرق ، فشعر بالارتياح وأدرك أن القاعة مكيفة الهواء ..

وأخذت شارى تتحدث مع مكتب الاستقبال ، مدة طويلة .. ثم عادت تقول له : « آسفة .. ليست هناك غرف خالية .. لقد احتلت فرقة « باليه » الفندق كله لمدة أسبوعين »

ـ ولماذا قالوا للمس ماى .. ان هناك غرفة ؟

ـ لقد حدث سوء تفاهم دون شك ..

ولما رأت الاسى على وجهه ، جذبته من ذراعه .. وقالت له باسمة : « سنذهب الى فندق آخر اعرفه ، ولابد ان نجد لك غرفة ! »

ولم يعثرا على غرفة فى الفندق الذى ذهبا اليه .. ولا فى غيره من الفنادق . فعادا يركبان السيارة .. وسأل « كمال » الفتاة برقة ، وهو يشعر بالحيرة :

ـ هل لك فى أن تتكرمى على .. ونتجول قليلا فى المدينة ؟ !
ـ بكل سرور ..

* * *

وسارت به على شاطىء البحر .. وكان الجو راكدا خانقا ، والعرق يسح منه ، ففتح صدر قميصه . . ورأى الهنود فى لباسهم الابيض جالسين حول البوابة التاريخية الكبيرة التى فى مدخل الميناء .. وكانوا يلبسون الصنادل ، والاقمصة البيضاء الطويلة فوق السراويل .. وكان بعضهم حافى القدمين !

وكانت سحنهم سمراء ، وشعرهم أسود لامعا .. وبدا عليهم التأثر من حرارة الجو وشدة الرطوبة ، فجلسوا فى خمول ، دون حراك .. كأنهم ينتظرون رحمة السماء من هذا العذاب ..

واوقفت شارى السيارة فى جانب الطريق .. وخرجا منها ، ووقفا ينظران الى البحر . ومد « كمال » بصره الى بعيد ، وهو يرى الانوار تتلألأ فى الميناء الدائرى .. وسألته الفتاة :

ـ هل أسفت لانك لم تجد غرفة مع فرقة الباليه ؟ .. ان فيها فتيات جميلات دون شك !

ـ ليس من المعقول أن أفكر ـ وانا معك ـ فى أى فتاة أخرى ..

ـ أوه ... حقا ؟ !

ـ لقد شعرت بميل شديد اليك من أول نظرة ..

ـ حقا ، ان هذا يسرنى ..

ـ ما أجمل (بومباى) فى الليل ! .. لولا هذه الحرارة الخانقة ، لكانت من أجمل المدن ..

ـ ان الساحل كما ترى .. على شكل عقد من اللؤلؤ ، على صدر حسناء ..

ـ وكانت الحسناء تسمى فكتوريا !

ـ انك تعرف تاريخ (بومباى) اذن ، فلا داعى لان أكون دليلك .. !

وقال لها بعد ان مشيا طويلا على الشاطىء :

ـ هل أخرتك عن العودة الى البيت ؟ .. ربما أكون قد ضايقتك ..

ـ بالعكس ، اننى مسرورة جدا ، اذ التقيت بشاب مثلك .. ويجب أن أبحث لك عن غرفة مهما تكن الاحوال ..

ـ لا داعى لان تتعبى نفسك فى البحث .. سأظل هنا الى الصباح ، فلا يوجد أجمل من هذا المكان فى بومباى .. فقط أرجو ان تظلى معى !

ـ هذا يسير .. سأظل معك ..

ـ هل يمكن ان نعثر على مكان نشرب فيه زجاجة من البيرة ..

ـ لانستطيع ..

ـ ولماذا ؟

ـ لانى ألبس السارى ، وسيظنونك هنديا .. والخمر محرمة على الهنود فى الاماكن العامة

ـ أى عذاب !

ـ أمستاء أنت ؟

ـ جدا ..

ـ اذن سنشرب البيرة فى بيتى ...

ـ أكون سعيدا ..

ـ قبل أن نذهب الى البيت سأريك أهم مافى المدينة ..

وسارا معا فى الشارع الرئيسى .. وكانت الساعة قد تجاوزت

التاسعة ، والمدينة تتلألا بالانوار القوية ، ولكن الحوانيت أخذت تغلق أبوابها ... ومرا على أكثر من مشرب من مشارب الشاى .. وكان يود أن يدخل ليستريح بعض الوقت ، ولكنها قالت له : « سأريك أولا ، شيئا تسر به »

وكانت مذ ألتقت به ، وجلست بجانبه فى السيارة ، تشعر بالارتياح .. بل انها - منذ اللحظة التى رأته فيها فى مكتب السياحة - وهى تشعر بميل قوى اليه ، وبسرور الفتاة وهى ترافق شابا يخفق له قلبها ..

وكان كمال فى السابعة والعشرين من عمره ، طويل العود ، أسمر وسيما ، قوى الجسم ، فى صوته خشونة تحبها المرأة ..

وسمعا - وهما منطلقان بالسيارة - نقرا شديدا بالدف آتيا من بعيد ، فسألها : « ما هذا ؟ »

- أنه معبد هندى .. وسنذهب اليه ..

واقتربا من المعبد فأوقفت السيارة .. وكان على بابه امرأة مسنة تلبس السارى الابيض ، وفى أذنيها قرطان ، وعلى صدرها بعض الحلى ..

ودخل كمال مع شارى .. وكان هناك شاب هندى عارى الصدر تماما ، ينقر على الدف امام المعبد ، نقرا عنيفا .. وشاب آخر يتلو التعاويذ ، ويطلق البخور ..

ودخل المكان شاب وفتاة ، بعد ان خلعا نعالهما .. ووقفا أمام المعبد ، ثم ركعا .. وكان الشاب العارى الصدر ، يتلو الادعية ويطلق البخور ..

وقالت شارى وقد أكتسى وجهها بالسعادة : « انهما يتزوجان »

وقال كمال : « أيمكن أن نفعل مثلهما .. على سبيل التفكهة والتفاؤل ! » .. فأجابته : « بالطبع ! »

ولعلها كانت تتمنى لو أن الخيال أنقلب حقيقة ، لولا أن هناك حواجز كثيرة كانت تعترضهما .. فآثرت أن تقنع بمجرد

التمثيل . وخلعا نعالهما ، ودخلا فوقفا امام المعبد كزوجين . . وأخذ الشاب الهندى يتلو الادعية وهما صامتان . . والبخور يملأ جو المكان . .

ثم خرجا مسرورين ، بعد ان وضع كمال فى يد الشاب الهندى بضع روبيات . . وركبا السيارة الى بيت شارى . .

* * *

وكان بيت « شارى » فى الطابق الثالث من عمارة حديثة . . وفتحت أمها الباب لهما . . كانت سيدة أنجليزية لاتزال فى نضارة الشباب . وكانت قد ألتقت بوالد « شارى » وهو طالب فى لندن ، فتزوجته هناك ، ثم جاءت معه لتعيش فى بومباى . . وظلت — منذ ذلك الحين — تعيش معه فى الهند ، الى ان مات وترك لها ثروة طيبة . . وبنتين جميلتين ، عاشت معهما فى سعادة ويسر . .

ودخلت أخت شارى لتسلم على الضيف ، فذهل كمال ، اذ كانت تشبه شارى كل الشبه . . لاتختلف عنها فى أى شىء ، حتى فى بحة الصوت ! . . وعلم أنهما توأمان . . وأخذ ينقل بصره بين الاختين لعله يلاحظ أى فارق بسيط ، ولكنه عجز عن المفارقة ، فقد كانت كل واحدة منهما صورة طبق الاصل من الاخرى !

وتعشوا ، وشربوا البيرة والويسكى . . وأخذوا يتحدثون فى مختلف الشئون فى مرح وبهجة ، حتى انقضى جزء كبير من الليل . . وطافت به الام كل الغرف ، فرأى البيت الهندى لاول مرة . . ورأى صورة المرحوم !

واستأذن كمال لينصرف ، فقالت له شارى :

— لقد حكيت قصة الفندق لوالدتى ، فرأت أن تنام هنا . .

— هذا كرم عظيم ولطف منها . . ولكننى أخشى أن أزعجكن . .

ـ ابدا .. سنكون مسرورات .. والآن سنريك غرفتك!

ومشى مع شارى الى غرفة جميلة ..

ودخلت عليهما الام بعد لحظات .. وسألته : « هل راقتك الغرفة ؟ »

ـ انها جميلة جدا ..

ـ وهل ينقصك شيء ما ؟

ـ بل فيها كل ما احتاجه ، حتى « البيجامة » !

فقالت ضاحكة : « انها بيجامة شارى ! »

وكانت الام محتفظة بكل شبابها ونضارتها .. كل من يراها يتصورها أختا للفتاتين ! .. وعادوا الى الصالة فجلسوا يتحدثون .. ثم استأذن« كمال » لينام ، وترك ثلاثتهن فى مكانهن ..

وخلع بذلته ، وارتدى البيجامةالحريرية .. وكان الحر شديدا ، فترك النافذة مفتوحة ، والباب مفتوحا .. واطفأ النور ..

ورآهن بعد قليل رائحات وغاديات فى الردهة ، بقمصان النوم الشفافة التى تكشف عن كل المفاتن .. وكان فى الظلام ، وكن فى النور فلم يلاحظن نظراته ..

وأغفى اغفاءة قصيرة ، ثم استيقظ على حركة بسيطة فى الغرفة .. ولما فتح عينيه رأى واحدة منهن تنزل الستر على النافذة ، وتغلق شبكة السلك لتمنع البعوض من دخول الغرفة ..

وكانت تتصوره نائما ، فراحت تتحرك كالشبح ، وقد اشتد الظلام فى داخل الغرفة ـ بعد انزال الستار ـ فلم تعد العين تستبين ما أمامها بوضوح . وتحركت فارتطمت بالسرير .. واحست به يمسك بذراعها .. وكأنهاكانت تتمنى هذهالحركة، فلم تمانع .. ومالت عليه بجسمها كله ، فطوقها بذراعيه وشدها الي صدره ..



وأخذ يحادثها فى صوت خافت ليتأكد من انها « شارى » .. ولكن يدها الناعمة وضعت على فمه ، وهمست :

ــ لاتتحدث .. لئلا يستيقظ النيام !

وغرق فى دوامة من اللذة ..

ونعس قليلا، ولما فتح عينيه وجد الجسم الناعم بجواره ، فأخذ يضمه ويشم عطر الشعر والجسد . . حتى أدركه النعاس مرة أخرى ..

وقبل الفجر تيقظ ، فوجد يدا ناعمة تمسح على ذراعه العارية .. فقبل اليد وضم الجسم اليه بقوة ..

وبعد ساعة أنفلتت من جواره وخرجت من الغرفة ..

* * *

وفى الصباح استيقظ مسرورا وفى رأسه الحلم الذهبى .. وحسر الستر عن النافذة ، فدخل النور الغرفة .. ووجد فى الفراش « فردة » قرط .. فوضعها فى جيبه ، وهو يبتسم .. حتى اذا جلس مع الام وابنتيها، راح يحملق فيهن متفرسا .. وكن أكثر اشراقا وسرورا منه ، فضحكن لنظراته .. **كان يود أن يعرف أيهن التى قضت الليل معه .. ولما أطال فيهن التأمل ازدادت حيرته !**

وودع الام وأخت شارى .. وركب مع « شارى » سيارتها لتقله الي مكتب الشركة .. وفى الطريق أخرج فردة القرط

من جيبه .. وسألها بهدوء :
ـ هل هذه تخصك ؟
ـ لا .. أنها تخص ماما !
ثم تغير لونها فجأة ، وكأنما خطر ببالها شيء أفزعها .. وسألته :
ـ أين وجدتها ؟
ـ فى الحمام
فعاد الى قلبها الاطمئنان .. وضغطت بيدها الحالية على يده بشدة ، معبرة عن سرورها .. فقد كانت لاتحب أن تحظى أية أنثى بأكثر مما حظيت به هى ، خلال تعارفهما القصير !

حدث ذات يوم



من قصص التاريخ ومآسيه

عزيزى القارىء :

فى هذا الباب ، قرأت معى فى الاعداد السابقة : فضيحة ((كارولين)) ملكة انجلترا، عشيقة نابليون (مارى فالفسكا)، امرأة وملك (مدام دى مانتنون) ، ((تيبريوس)) قيصر روما ، لوكريشيا بورجيا ، نيرون : الطاغية السفاح، ليدى هاملتون، مارى انطوانيت ، مصرع القيصرية فى روسيا ، بولين بونابرت ـ ملكة الغواية ـ مأساة ملك بافاريا، غرام الاميرة اليزابيث تيودور ، ديزيريه ـ خطيبة نابليون ـ اوليمبيا والدة الاسكندر ، بيرينيس ملكة فلسطين ، تيودورا الراقصة الامبراطورة ، ((سانوهى)) او (المصرى) ، كريستين ملكة السويد ، رمسيس الثانى ، مرجريت فهمى ، مارى ستيوارت ، اسبأسيا . .

واليوم أقدم لك مأساة ((مرجريت)) اميرة (انجو) وملكة انجلترا . .



ربيبة المحن والأهوال!

قصة المآسى التى تألفت منها حياة ملكة
من أجمل الملكات فى تاريخ أوروبا!

للمؤرخ الفنان العالمى الصيت: ف. ماتانيا

تلخيص: محمد بدر الدين خليل

القدر يكتب قصة امرأة !

• كثيرا ما يكون القدر أبرع وأحذق من أوسع القصصيين خيالا .. فهو قد يختار حياة فرد من الافراد ، فيروح ينسجها بخيـــوط من الواقع والمغامرات ، تفوق كل ما يمكن أن يبتدعه قلم كاتب من الكتاب ليجعلها مثلا يثبت لارباب الخيال انه يحتفظ لنفسه دائما بالزعامة عليهم !.. ومن هؤلاء الافراد الذين اختارهم القدر ليجعل حيـاتهم تحفة قصصية ، « مرجريت » .. أميرة (انجو) ، وملكة انجلترا .. زوجة « هنرى » السادس ، الضعيف !

وعن القدر اقتبس القصاص المؤرخ الفنان « ف . ماتانيا » قصة هذه الملكة التعسة . و « ماتانيا » شخصية نادرة فى دنيا الادب ، فقد اعتاد أن يجمع مادته من شتى مصادر التاريخ ، ثم يصـوغها فى قالب قصصى بارع ، ويسجلها ـ الى جانب ذلك ـ فى لوحات أذاعت شهرته وخلدت اسمه .. ولعلك تلمس مدى براعته الادبية والفنية فى الصفحات التالية ، التى نسبقها بسرد لقصة حياته :

تنشر لوحاته وهو فى السادسة

• **ولد** «ماتانيا» فى (نابولى) ، فهو ايطالى الجنسية ، ولعل هذا هو سر براعته كرسام .. على انه يدين بقسط أوفر من هذه البراعة الى ابيه ، الذى كان رساما موهوبا ، وكان يجيد من الرسم تصـوير المناظر المليئـة بالحـركة ، فكأنه عدسـة فوتوغرافية . وهذه هى الميزة التى نبه بها ذكر « ماتانيا » . ففى أواخر القرن المـاضى ، لم يكن للتصوير الفوتوغرافى ما له اليوم فى عالم الصحافة ، فكانت الصحف تعتمـد فى التسجيل التصويرى للأحداث ، على الرسم .. وقد حرص « ادواردو ماتانيا » على أن يدرب أبنه « فورتوناتو » ـ منذحداثته ـ على هذا النوع من الرسم . **واستطاع الابن ان يبرع فيه حتى لقد نشرت احدى لوحاته ، وهو بعد فى السادسة من عمره !**

على ان « فورتوناتو » كان مفطورا على سعة الخيال كذلك ، فما لبث ان قرن تصوير المناظر المليئة بالحركة ، بالـكثير من

الايحاءات التى كان خياله يصورها له .. **وبرز فى هـذا النوع أيضا ، حتى لقد علقت ((أكاديمية نابولى)) احدى لوحاته فى قاعاتها ، قبل أن يتجاوز الحادية عشرة من العمر !**

ولكن مجال الصحافة فى ايطاليا لم يتسع لطموح« فورتوناتو ماتانيا» ، فما لبث أن نزح الى (لندن) فى مطلع القرن العشرين، وكان شابا لم يبلغ العشرين من عمره .. ولم يأت عام ١٩٠١، حتى كان الرسام الاول لصحيفة «ذى جرافيك » ، وما لبثت لوحاته المصورة للأحداث الجارية أن استلفتت الانظار، فاستعانت به مجلة « ذى اللستريتد لندن نيوز »

يرسم لصحف ثلاث دول

• **وفى** سنة ١٩٠٣ ــ وقد بلغ الثانية والعشرين من عمره ــ عاد « فورتوناتو » الى ايطاليـا ، ليؤدى الخدمة العسكرية . وفى هذه الفترة ، اتيحت له تجـارب لم تلبث أن أتت ثمارها خلال الحـرب العالمية الاولى ، فقـد اكتسب خبرة بالحيـاة العسكرية ، مكنته من ان يغدو من أبرز رسامى تلك الحرب

وعاد بعد الخدمة العسكرية الى (لنـدن) ، والى العمل فى صحيفة « ذى جرافيك » . فلمـا استقال رئيس تحـريرها « كليمنت شـورتر » ، وانشأ مجلة « ذى سفير » ، لم ينس براعة «ماتانيا» فاستعان به .. **وسجلت ريشة الرسام الشاب حفـلات تتويج الملك جـورج الخامس . وراح يطـوف أرجاء انجلترا ، ويتنقل بين بلدان أوربا .. بل انه ذهب الى (الهند) فى جريه وراء الاحداث الكبرى .**

وقبل ان يبلغ السـابعة والعشرين ، كان قد أصبح رساما لاربع مجلات فى ثلاث دول : « ذى جرافيك » و « ذى سفير » فى انجـلترا ، و « اللسـتراسيونى ايتاليـانا » فى ايطاليـا ، و « الليستراسيون فرانسيز» فى فرنسا .. وبلغ من التقدير الرفيع لفنه ــ فى تلك الحقبة ــ ان القيصر «غليوم» ، امبراطور المانيا اذ ذاك، استدعاه مرارا ليسجل بعض المناسبات الرسمية

تابوت «توت عنخ آمون»

• **وليس** أدل على عبقرية «ماتانيا» من ان «شورتر» — رئيس تحرير «ذى سفير» — رغب اليه فى ان يرسم مناظر لمقبرة «توت عنخ آمون»، عند افتتاحها . ولم يكن ثمة متسع من الوقت كى يصل «ماتانيا» الى مصر قبل الافتتاح ، فى حين ان «شورتر» كان مصرا على أن يسجل لمجلته نصرا صحفيا .. فما كان من «ماتانيا» الا ان لازم المتحف البريطانى أياما، درس خلالها كل التقارير التى كتبت عن المقبرة ، وعكف على بعض المراجع ، وعلى فحص بعض التحف الموجودة فى القسم المصرى من المتحف . **وعندما أذيع نبأ افتتاح المقبرة، ظهرت «ذى سفير» وفيها رسم لتابوت «توت عنخ آمون» .. ومن عجب أنه جاء مطابقا للواقع تماما ، فيما عدا القماش الذى وجد فوق غطاء التابوت !**

وعندما اندلعت نيران الحرب العالمية الاولى ، استخدم «ماتانيا» لرسم احداثها ، فكان يخاطر بحياته ، ويذهب الى الخطوط الامامية فى الجبهة ، لكى يسجل المعارك .. وأصبحت لوحاته ورسومه ، سجلا تاريخيا لهذه الحرب .

قصص تستمر ٢٤ سنة

• **واذ** عاد السلام، شاء «ماتانيا» ان يجدد فى نواحى نشاطه الفنى، فلجأ الى رسم أهم أحداث التاريخ . وسرعان ماحرصت مجلة «بريتانيا آند ايف» على استغلال هذا الاتجاه الجديد، واوفدته فى عدة بعثات لاعداد مجموعة من الرسوم لاشهر مآسى التاريخ .. وكان لابد لهذه اللوحات من موضوعات مناسبة . ولكن مقالات علماء التاريخ كانت جافة ، تذهب برواء اللوحات الفنية . **فما كان من «ماتانيا» الا أن أقبل على دراسة المراجع التاريخية ، ليكتب بنفسه قصص المآسى**

واستطاع ان يسجل لنفسه فى الادب نجاحا لايقل عن نجاحه في الفن .. حتي ان المجلة ظلت تنشر قصصه ورسومه تسع

عشرة سنة متوالية، مع انها كانت قد قدرت لها ستة أشهر . . ثم واصلت بعدها مجلة « لندن لايف » نشر السلسلة لخمس سنوات أخرى على الاقل .

وعندما اعتزل «ماتانيا» العمل - بعد سنة ١٩٤٥ - ظل يواصل الرسم كهواية ، ضم اليها هوايتين أخريين : صنع الدمي ذات الطابع التاريخى ، وصنع الاثاثات القديمة ، من اغريقية ورومانية وغيرها

هذا هو ماتانيا .. الرسام القصصى الذى نقدم لك نموذجا من عبقريته - كتابةورسما - فيمايلى:

. . . .

آلام .. منذ البداية !

• **اذا** كان القدر قد حرص على ان يمهد لماسبه - فى كثير من الحالات - بسلاسل من المباهج والمناسبات السارة ، الا انه تعمد أن يمزج الالوان التى صاغ منها لوحة حياة«مرجريت» بالآلام والاحزان ، منذ البداية .. فلقد كانت كل الدلائل توحى بأن الاميرة التى ولدت فى صباح يوم من أيام سنة١٤٢٩ لرينيه - أمير (انجو) - وايزابيلا ، أميرة (اللورين) وحفيدة « شارلمان » العظيم .. كانت الدلائل توحى بأن « مرجريت» انما ولدت لتكون نجما سعيدا مؤتلقا فى سماءالتاريخ الفرنسي- بل تاريخ أوروبا عامة - فى القرن الخامس عشر . **ولكن القدر كان قد رسم خطته بحيث يكذب كل الظواهر ، فاذا الاحداث السياسية تحطم وحدة أسرة أمير (آنجو) وتبدد سعادتها ، والطفلة الوليدة فى مطلع حياتها ، غضة الاهاب ! .. ليس هذا فحسب ، بل ان القدر شاء أن يكون للطفلة الصغيرة دور فى هذه الاحداث الاليمة ، وهى بعد فى مطلع حياتها !**

ذلك ان موقعة (بولجنيفيل) - التي دارت بين أمير (انجو)

ودوق (بيرجندى) ـ قلبت مركز والد « مرجريت » رأسا على عقب ، فاذا به يغدو أسيرا وسجينا لغريمه .. ومع أنه حارب كالاسد الهصور ، وناضل فى جسارة واستبسال ، الا أن الدم المنساب من جروحه العديدة لم يلبث أن أوهن قواه ، وأن ملأ عينيه حتى حجب عنه مناظر القتال ، ومكن لاعدائه منه !

خطيبة .. فى الثانية من عمرها !

• وفى (ديجون) ، سجن دوق (بيرجندى) غريمه ، وفرض لحريته فدية باهظة ، تفوق كل مايمكن ان يخطر ببال فى نطاق المعقول ! .. وبينما راحت الاسرة المنكوبة تعتصر كل امكانياتها ، وتقدم طائعة على كل تضحية فى وسعها ، لكى تؤدى للمنتصر ـ المسرف فى شماتته وعنته ـ كل مطالبه ، اخذ الاسير ذو الفطرة الفنية المرهفة ، يسرى عن نفسه الحسرات ، ويخفف عنها ذلة السجن ووطأة الاسر ، بأن عكف على نقش بعض الرسوم الملونة الدقيقة على الزجاج ، فى كنيسة قلعة (ديجون) .. وهى رسوم قدر لها أن تغالب السنين وعوامل البلى ، لتظل على قيد الوجود الى يومنا هذا !

وما كان أشق التضحيات التى أقدمت عليها أسرته من أجله ! .. ففى سبيل حمل غريمه على أن يطلق سراحه فى نطاق ضيق ، أو بالاحرى على أن يخفف قيود سجنه مع بقائه أسيرا ، قدمت الاسرة ابنته الكبرى ـ التى لم تكن قد تجاوزت التاسعة من عمرها ـ مع شطر من أراضى أقليم (اللورين) ، لانتوان دى فودمونت ، الابن الاكبر والخليفة المرتقب للعدو المنتصر ، دوق (بيرجندى) ! .. ولما عجزت الاسرة عن أن تفى بالفدية المالية الباهظة التى فرضها الجبار المتعنت ، قدمت اليه رهينتين من أعز الرهائن .. قدمت اليه ولديها .. ابنى الامير (انجو) اليافعين !



((ايزابيلا)) ــ أم مرجريت ــ وابنهـا الاصغر ــ لوحـة بريشة الفنان ماتانيا

ولم يبق لاميرة (اللورين) ــ حفيدة شارلمان المنكوبة ــ سوى ابنتها الصغيرة : ((مرجريت)) .. وحتى هذه لم يتعفف عنها المنتصر الطاغية، رغم انها لم تكن قد تجاوزت الثانية من عمرها، بل أصر على ان يكون مصيرها بندا من بنود الاتفاقية التى املاها فى نشوة الظفر ، فعقد خطبتها ــ وهى بعد لم تستو على ساقيها وتخطو خطواتها الاولى ــ على ((بيير)) دوق (لوكسمبرج) .. وكان المظهر الوحيد الذى أبداه ــ لينم عن أن قلبه كان يحتفظ بشىء من الشعور الانسانى ــ هو أنه لم يصر على انتقال الخطيبة فورا الى خطيبها (! !) ، بل تكرم فسمح لها بأن تبقى مع أمها التى تحملت كل النكبات بقلب قوى وجنان ثابت ، ولم تدع سبيلا الا سلكته ، ولا جهدا الا بذلته ، فى سبيل شراء حرية زوجها الاسير !

يرث العرش وهو سجين !

• **وفى** سنة ١٤٣٦ ، توفى لويس الثانى ، ملك (نابولى) ، فآل عرشه الى أخيه الاصغر .. ولم يكن هذا الوريث سوى ((رينيه)) امير (انجو) السجين ، الذى لم يكن يملك أن يبرح فرنسا ليتولى عرشه الجديد ، لانه لم يدفع كل الفدية التى كانت مفروضة عليه .. بل أن هذه الوراثة حملت عدوه على

أن يرجع عما كان قد نزل عنه من عنت ، فضاعف من القيود على الامير السجين ــ أو الملك ، كما أصبح بهذه الوراثة ــ وضم اليه فى ذلة السجن ابنه الاكبر ، الذى كان حتى ذلك الحين مجرد رهينة ، تحت الرقابة .

على أن ((ايزابيلا)) لم تكن ممن تفت النكبات فى عزائمهن ، لاسيما وقد كانت سليلة شارلمان الجسور . فسرعان ما راحت تحشد القوات ، لكى تعزز حقوق زوجها على عرش (نابولى) . وكان الجمال الفائق الذى أتسمت به وطفلاها ــ مرجريت ولويس ــ مفتاحا الى قلوب أهل الريف ، الذين تدفقوا على معسكرها فى (ناراسكون) ، كما أن المآسى التى حاقت بها وبأسرتها كانت مذكية لحماس هؤلاء الانصار . ولكن القدر لم يكن قد اكتفى بعد ، فأرسل الطاعون على المعسكر ، يسرى بين ارجائه سريان النار فى الحطب الجاف .. وفى لهفة الخوف على الطفلين الجميلين ، اسرعت ((ايزابيلا)) الى (مرسيليا) . ومن هناك استطاعت ان تقلع الى (نابولى)

غير ان القدر ظل بالمرصاد للسيدة ذات القلب القوى والعزيمة الجبارة .. فما ان أشرفت على (نابولى) ، حتى تبينت ان الوباء كان قد سبقها اليها !.. مصادفة جديدة ، لو ان كاتبا ساقها فى قصة من القصص ، لاتخذها النقاد مطعنا فى براعته ، ولقالوا أنه يغلو فى الخيال اذ يعتمد على مصادفات!

ملك انجلترا يخطب مرجريت

• ولكن المناطق الريفية المحيطة بنابولى ، ظلت بمنجاة من الوباء .. وبهذه المناطق لاذت ((ايزابيلا)) بطفليها ، فاستقر بها المقام فى قصر من املاك أسرة انجو ، فى (كابوا) ، على عشرين ميلا من (نابولى) . وفى رحاب هذا القصر نمت ((مرجريت)) وأخذ جمالها ينضج ، وشخصيتها تتفتح كزهرة ندية .. فلقد أخذت عن أبيها كثيرا من ألوان الذكاء ، والميل

الى الفنون والثقافة .. وأخذت عن أمهـا الدأب ، والجلد ، وسعة الحيلة ، وقوة الارادة . ومن مزاج هذه الصفات ، تكونت الشخصية التى استطاعت ان تصمد لضربات الدهر التى توالت فيما بعد .. وبهذه الصفات - أيضا - غدت « مرجريت » من ألمع الاميرات فى أوربا بأسرها !



« مرجريت » فى طفولتها ، والشعب يحتفى بها . لوحة من رسم « ماتانيا »

وقدر لبريق شخصيتها ان يترامى الى انجلترا ، حيث كان الملك الشاب « هنرى السادس » يبحث عن شريكة لحياته وعرشه . وكان بطبيعته طيب القلب ، كريم النفس ، رقيق الطباع ، مرهف المشاعر ، ميالا للعلم والثقافة .. فلا عجب ان أحس بميل الى « مرجريت » ، اذ أيقن من تشابه مشاربهما . وكما انه كان يمتاز عنها باسراف فى الطيبة يصل الى مشارف الضعف ، فانها كانت تمتاز عنه بقوة عزيمة ، وصلابة ارادة .. ومن ثم فقد كان كل منهما يكمل الآخر !

واستطاع هنرى أن يحصل على بعض صور للاميرة ، فبهره جمالها ، حتى لقد خيل اليه أن أيدى الرسامين غالت فى اضفاء الرواء عليها . وكان أن أوفد رساما خاصا ، أوصاه بأن يرسمها فى عدة أوضاع ، وأن يحرص على الدقة فى الامانة ، فلا يضيف خطا واحدا من وشى أو تحلية ، على عادة أهل الفن

اذ يجملون الواقع وفقا لما يرونه بأعين مشاعرهم

وكان « هنرى » قد بلغ الثالثة والعشرين من عمره ، **دون** ان يتفتح قلبه لحسناء واحدة ممن كن يحمن حوله .. ولكنه لم يكد يرى الرسوم التى عاد اليه بها الفنان ، حتى تدله فى هوى « مرجريت » ! .. ولم تحفل « ايزابيلا » بالخطبة التى كانت قد ربطت ابنتها قسرا الى دوق لوكسمبورج ، فسرعان ما وافقت على خطبتها الى ملك انجلترا

ملكة ولكن .. !

• **وفى** نوفمبر سنة ١٤٤٤ ، احتفل فى (نانسى) بعقد زواج أولى بين « هنرى » و « مرجريت » . ولم يكن هنرى حاضرا ، بل أناب عنه مركيز سفولك .. ثم عقد الزواج الاصلى فى ٢٢ ابريل سنة ١٤٤٥ .. وما لبثت الفاتنة ان توجت — فى كنيسة (ويستمنستر) — ملكة .. **ولكنها بدأت حياتها بعيدة عن ترف الملوك وبذخهم ، اذ كانت الضائقة المالية التى ألمت بانجلترا — فى ذلك الحين — تفرض قيودا شديدة تضغط ميزانية القصر الملكى والمخصصات الملكية .**

ولقد أبى القدر أن يغمض عينيه عن « مرجريت » ، حتى فى زفافها ! .. ولكنه مع ذلك خفف من قسوته — فى هذه المناسبة — واكتفى بمداعبة لطيفة .. فلقد حدا الاخلاص بأحد رعايا « هنرى » الى أن تكون هديته للعروس الحسناء أسدا بديعا . وما ان قضى الاسد أياما فى القصر الملكى ، حتى تجلى أن تغذيته عبء يثقل ميزانية مطبخ القصر ، فأحيل الى «برج لندن » .. القلعة التى كانت مستودعا للمسجونين السياسيين ! .. ولا تزال قائمة الحساب الخاصة بنفقاته باقية الى اليوم : **« عن غذاء ورعاية أسد مهدى الى مولاتنا الملكة ، مع نفقات نقله الى برج لندن — جنيهان وخمسة شلنات وثلاثة بنسات » .. ومن هذا ندرك حال الميزانية الملكية !**

ومع أن زواج « هنرى » من « مرجريت » أدى الى تحسين العلاقات بين انجلترا وفرنسا ، الا أنه لم يخفف من توتر الجو الداخلى فى انجلترا ذاتها .. فلقد كان موقف الملك حرجا ، وكانت الدسائس والمؤامرات على قدم وساق ، فان دوق جلوسستر — عم الملك — كان الوريث الوحيد للعرش ، اذا لم ينجب الملك وريثا . ولهذا نقم على هذا الزواج ، لانه بات مبعث تهديد جدى لاطماعه ! .. واشتدت وطأة المؤامرات ، حتى أنها تفشت فى مجلس الوزراء وفى البرلمان !

مؤامرات ودسائس وحرب !

• **وكانت** « مرجريت » قد قضت فى انجلترا عامين ، حين بدات الاحداث تتطور نحو العنف ، فى فبراير سنة ١٤٤٧ . فقد اجتمع البرلمان فى كنيسة « سانت أدموند » — فى (بيرى) — على خلاف المعتاد ، وفرضت حراسة عسكرية شديدة على قاعة الاجتماع — عند افتتاح الدورة — كما أحيط الملك والملكة بحراسة محكمة . وقدر لجلسة الافتتاح أن تنقضى بسلام . **على أن الجلسة الثانية ، التى عقدت فى اليوم التالى — ١١ فبراير — شهدت مفاجأة أذهلت انجلترا بأسرها .. اذ وجهت خلالها الى دوق جلوسستر تهمة الخيانة العظمى ، وألقى القبض عليه !**

ومر اسبوعان لم يوجه فيهما الى الدوق اتهام « قانونى » محدد . ثم تلقى الرأى العام مفاجأة ثانية، أقسى من الاولى.. فقد وجد الامير السجين ميتا فى سجنه ذات صباح . ولم يكن بجسده أى أثر للعنف . وذهب البرلمان فى اقناع الشعب بأن الميتة كانت طبيعية ، الى أبعد مدى . فعرضت جثة الامير على الملأ لبضعة أيام . ومع ذلك فقد ظلت الريب تحوم حول الواقعة .

ولقد ذكرنا أن زواج هنرى ومرجريت ساعد على تحسين العلاقات بين انجلترا وفرنسا .. فلقد كان من أغرب الامور ، أن الزواج تم فى وقت كانت الحرب دائرة الرحى فيه بين الدولتين ! .. ومن ثم فان هذه المصاهرة ساعدت على عقد هدنة أوقفت فيها الاعمال العدائية . **ولكن هذه الحال لم تدم لاكثر من أربعة أعوام ، أى الى مابعد وفاة دوق جلوسستر بعامين . اذ لم يلبث السلام – بين الدولتين – أن انهار فى سنة ١٤٤٩ .**

وكان فى عودة الحرب الى الاندلاع ، نكبة جديدة على « مرجريت » ، فقد كانت فى نظر الشعب الانجليزى مجرد « امرأة فرنسية » ، ونسوا أن فرنسا كانت قد أوسعت « مرجريت » وأسرتها ظلما وجورا .. ولم تعد فى نظر عامة الشعب « ملكة انجلترا » ، وانما راحوا يجهرون فى كل مكان بعدائهم لتلك « المرأة الفرنسية » ، التى لم يكن لها أى ذنب !

نذر الثورة ضد ملك فاقد العقل

• **واستغل** أعداء الملك هذه الفرصة كل الاستغلال ،بزعامة دوق يورك ، الذى كان طامعا فى العرش .. فراحوا يؤلبون الخواطر ، وينفثون دعايات الحقد والبغضاء .. حتى اذا قدر للفرنسيين أن ينتزعوا كل مدن (نورماندى) – التى كانت فى أيدى الانجليز – وأن يوقعوا خسائر فادحة بهؤلاء ، أشاعوا أن هذه الهزيمة الشنيعة انما تمت بتدبير « مرجريت » – التى لم تكن قد تجاوزت السابعة عشرة اذ ذاك – تشيعا لوطنها الاصلى ، واستغلالا منها للملك الضعيف العقل .. اذ كان الملك قد أصيب – فى تلك الاثناء – بضعف عام ، أثر على قواه العقلية !

على أن المتنورين من أبناء الشعب لم يلبثوا أن تبينوا فداحة الظلم الذي كان يهال على رأس الملكة اليافعة ، وان لم يؤثر هذا

فى الموقف ، أو يغير منـه . فالواقع أن انجلترا لم تـكن قـد تعرضت من قبل لمثل المهانة التى تعرضت لها فى تلك الايام .. **ومع أن الملكة كانت أصغر سنا من أن تقوى على التآمر ، أو أن تقهر الصعـاب التى أحاطت بهـا وبزوجهـا .. فان الموارد التجارية لانجلترا كانت قد نضبت ، فضلا عن الاوبئـة التى تفشت بين الشعب الجائع ، فألب هذا خواطر الناس ضدها !**

وهكذا كانت الاسـباب جميعـا مهيـأة لثورة بدأت نذرها تنشط فى الخفاء ، ولم يكن يعوقها عن أن تسفر عن وجهها ، سوى أنها كانت ترتقب زعيما وقائدا .. والى أن يظهر هـذا القائد ، انتشرت الاضطرابات ، والاغتيـالات ، والحرائق .. وقدر للملك المسالم الذى اجبر على اعلان الحرب ضد فرنسا ، أن يضطر الى حرب أخرى .. حرب ضد شعبه .. أو هكذا أشاع عنه خصومه الداخليون . وكانت كل هذه المتاعب وقودا لاذكاء الصراع الذى كان دائرا بين أسرتى « لانكاستر » ــ التى كان ينتمى اليهـا الملك ــ و « يورك » ، التى كان ينتمى اليها أكبر خصومه .

مرجريت الام تخوض الصراع وحيدة

• **وانتشرت** الانبـاء ــ فى سـنة ١٤٥٣ ــ بأن الملكة كانت توشك أن تنجب للملك وليا للعهد .. ولم تقابل هذه الانبـاء بتحمس لدى الشعب ، ولا لدى الملك .. فان « هنرى » كان قد بلغ من الضعف ــ اذ ذاك ــ درجة أوشك معها أن يفقـد كل ماتبقى له من قوى عقلية ، فلم يستطع أن يفقـه قيمـة اقتراب تحقق الحلم الذى طالما راوده .

وبينما كان « هنرى » يتأرجح بين المـوت والحيـاة ــ فى أكتوبر من ذلك العام ــ ولدت « مرجريت » الامير « ادوارد » الذى كتب له القدر أن يحمل لقب « ابن الاسى والشجون » .. فقد رأى آل « يورك » أن الطفل البرىء خطر على أطماعهم ،

ومدعاة لاطالة الصراع بينهم وبين آل « لانكاستر ».
ولم يكن فى وسعهم أن يشهروا سيوفا أو حرابا ضد الوليد ، ولكنهم تذرعوا — فى الصراع — بأخس الاسلحة .. سلاح التشهير ، والطعن فى شرف الملكة « مرجريت » وشرعية انتساب وليدها الى الملك ! .. وكانت مرجريت قد صمدت فى جلد لكل دسائسهم حتى ذلك الحين ، ولكن القناء الوحل لتلطيخها أثار كبرياءها وكرامتها ، فهبت تذود عن شرفها !.. فلقد كان الجرح عظيم الايلام ، لاسيما وأنها لم تكن تجد صديقا يواسيها ويسرى عنها ، اذ كانت أمها قد توفيت !

هنرى .. يعود الى الحياة !

• **ولكن** آل « يورك » استطاعوا أن يكسبوا الجولة . اذ أن البرلمان لم يلبث — أزاء مارآه من بقاء الملك غائب العقل — أن اضطر الى تعيين دوق يورك « حاميا » للعرش والدولة الى أن يسترد « هنرى » عقله ، أو يبلغ ابنه « ادوارد » سن الرشد ، ويخلف أباه فى الملك .. وبهذا انتقل النفوذ والسلطان بأكملهما الى أيدى أعداء « مرجريت » ، ولم يتردد دوق يورك فى استغلال ذلك ، فراح يوطد دعائم قوته وسيطرته على الشعب .

غير أن «هنرى» لم يلبث أن انتزع نفسه من ظلمات فقدان العقل .. وخرج من غياهبه وليس فى ذاكرته أتفه أثر للماضى بأكمله ! . ولقد ورد فى رسالة تصف اللحظات التى استعاد فيها ذاكرته : « فى ظهر يوم الاثنين ، أقبلت عليه الملكة ، مصطحبة مولاى الامير ، واذ ذاك سألها : « ما اسم الامير ؟ » . فقالت الملكة : « ادوارد » . وهنا بسط ذراعيه وراح يشكر الله على نعمته . وقال انه لم يكن يعرف الامير ، ولا كان يفقه شيئا مما كان يقال له خلال مرضه »

وما ان استطاع الملك أن يغادر المخدع الذى لزمه طيلة مرضه، حتى حملته الملكة على أن يذهب الى مجلس اللوردات، فيصدر مرسوما بحل البرلمان .. وكان ظهوره فى المجلس أشبه بظهور شبح بعث من عالم الاموات . ولم يكن دوق يورك وأنصاره حضورا ــ فى ذلك اليوم ــ فأرسل اليه الملك أمرا بأن يستقيل من منصبه ، ليعود هو الى تولى سلطاته

الخيانة تشرد مرجريت وابنها

• **وأثارت** عودة الملك الى الحياة العامة جزع دوق «يورك» الذى لاذ بمقاطعة (ويلز) ، فعكف لفوره على حشد جيش ليسير على رأسه ضد الملك

والتقى الجيشان فى (نورثامبتون) ، فى ٩ يوليو سنة ١٤٦٠ .. وحضر الملك المعركة بنفسه . وكان من المرجح ان تكسبها قواته ، لولا أن دبت الخيانة فى صفوفه ، فانجلى الصراع عن وقوعه أسيرا فى أيدى أعدائه . وكانت الملكة ــ هى الاخرى ــ تشهد المعركة . وما أن رأت أحد أعوان الملك ــ وهو اللورد « جراى » ــ يخلى الطريق لجنود « يورك » الى قلب معسكر الملك ، حتى احتضنت ابنها وبادرت الى الفرار به ، حرصا على حياته .. ولم تذكر ــ فى تلك المحنة ــ شيئا اللهم الا أنها كانت أما تحالفت القوى لانتزاع وحيدها منها ، فانطلقت به كالمجنونة تخوض المخاطر . . ولم تحفل بمجوهراتها وحليها التى جردها منها قاطعو الطريق ــ حين تعرضوا لها ــ ولكن همها الاوحد انحصر فى سلامة الطفل !

واستطاعت ان تجتاز الاخطار والمآزق التى صادفتها تباعا، حتى بلغت قلعة (هارليش) ، فاذا بسادة القلعة يرحبون بها، ويكرمون وفادتها ، ويؤمنون حياتها وحياة طفلها

اما الملك الاسير ، فقد سيق الى لندن ، حيث اجبر على

ماكانت « مرجريت » تتوقعه وتخشاه .. أجبر على أن يوقع اقرارا بحرمان ابنه من وراثة عرشه ، ليؤول الملك الى دوق يورك وورثته من بعده !

على أن دماء شارلمان لم تلبث أن تدافعت فى عروق مرجريت، واستطاعت ـ بعزيمة جبارة وروح رائعة ـ أن تستميل ملك اسكتلندا الى صفها ، فأرسل قوات مسلحة من رجاله تتدفق عبر الحدود ، وتنضم الى القوات التى استطاعت الملكة أن تجمعوا من حول جيوش آل « لانكاستر »

وسرعان ماكانت الملكة ـ التى بزت الرجال جرأة وشجاعة ـ تقود هذه القوات زاحفة على (لندن) لتحرر مليكها ولتسترد العرش له ولابنها من بعده . وقدر لرجالها أن يلتحموا مع رجال دوق « يورك » فى (سانت البانز) و (بارنيت هيث) فى معركتين حاميتى الوطيس ، خاضهما الاسكتلنديون وكأنهم وحوش كاسرة . فلم يلبثوا أن أشاعوا الذعر والفوضى فى صفوف اعدائهم ، حتى اضطروهم الى الفرار ، تاركين الملك الاسير فى خيمة ، وقد دبروا الامر بحيث يقضى عليه منقذوه بأيديهم . **بيد أن الحظ شاء أن يتعرف هؤلاء على « هنرى »، فسرعان ماكان بين أحضان زوجته ، سالما .**

وكان هذا آخر انتصار فى صفحة تاريخ آل « لانكاستر » . اذ أن ابن دوق « يورك » ـ الذى خلفه بعد موته ـ لم يلبث أن جمع شعث قواته .. وقبل أن تلج « مرجريت » العاصمة مع زوجها وابنها ، كان هو قد دخلها وسجل نصرا حاسما ، وأعلن نفسه ملكا باسم ادوارد الرابع

تأبى أن تستسلم للهزيمة

• **ولم** تنثن عزيمة « مرجريت » ، فواصلت الجهاد . ولكن قدمى الملك التعس كانتا عاجزتين عن أن ترسخا على الارض التى حاولت زوجته أن تقيمه فوقها . ولم ينقض زمن

يذكر ، حتى كان ادوارد الرابع قد بسط سيطرته على انجلترا بأسرها .. وقدر لهنرى أن يلجأ الى اسكتلندا - فى ربيع سنة ١٤٦٢ - بينما كانت « مرجريت » تسعى الى فرنسا ، وهى معدمة ، مهجورة ، لاحول لها ، ولا موارد لديها .. حتى انه لم يكن بوسعها أن تبلغ فرنسا لولا أن ساعدها تاجر فرنسى ، كما أمدها دوق بريتانى ببعض العون .

وظلت - رغم تشردها - الملكة الشرعية لانجلترا .. ولم يطب لها المقام فى فرنسا ، فلم تلبث - بعد خمسة أشهر - أن وطأت قدمها أرض انجلترا ، بعد أن تسللت الى هناك على سفينة انجليزية أسرع ملاحوها بالفرار بمجرد أن أنزلوا الملكة وابنها الى البر . واستطاعت بمعونة صديق وفى لها من أصدقاء الصبا - يدعى « بيير بريزيه » - أن تصل الى اسكتلندا بعد رحلة حافلة بالمغامرات

وهناك ، عادت تحاول أن تجمع فلول من ظلوا أوفياء لقضيتها ، فنظمت منهم جيشا .. وبعث القتال من جديد .. وكسبت معارك وخسرت معارك .. وانتزعت قلاع وانهارت غيرها

واستمرت الحرب متقلبة متأرجحة ، والملكة وسط قواتها ، والملك الى جوارها ، وقد دبت فيه الحمية فراح يعرض الوانا من البراعة والفروسية

هاربة فى جنح الظلام

• **ولكن** القدر كان لايزال ممعنا فى عدائه للانثى البريئة التى اتخذها - منذ مولدها - هدفا لمحنه وطعناته . فما لبثت قوات « يورك » أن أغارت على معسكر « لانكاستر » فى هجوم مفاجىء - عند (ليفيل) ، بالقرب من (دوويل ووتر) - فأشاعوا الذعر والفزع .. وكانت « مرجريت » أشد القوم ذعرا ، اذ كان ابنها وسط الدوامة ، فأسرعت تختطفه ، ولجأت

به الى غابة قريبة . حتى اذا هدأ روعها قليلا ، راحت تهيم فى الادغال والاحراش ، فما لبثت أن ضلت طريقها ، وأخذت تتخبط على غير هدى

وفجأة ، ألفت نفسها محوطة بفريق من الاشرار الاوغاد ، الذين لم يتورعوا عن ان يحدقوا بامرأة مشردة وطفل بائس .. **ولكن قوة جنان « مرجريت » مكنتها من أن تجتاز المأزق ، اذ أنها لم تكد تفطن الى نظراتهم الجشعة ، حتى ألقت اليهم بكل مصوغاتها .. وتحول الاوغاد عنها ، ليتشاحنوا فيما بينهم على اقتسام الاسلاب ، وعلى الاستئثار بالمرأة .. وتطور الشجار الى قتال بالخناجر . فأستغلت « مرجريت » فرصة أنشغالهم فى غماره ، لتتسلل وهى تحتضن ابنها ، وانطلقت كالغزال النافر ، تنشد الفرار**

وظلت منطلقة على غير هدى ، ثم لاذت بدغل كثيف ، انكمشت فيه بقية نهارها . ثم عاودت السير محتمية بظلام الليل

وظلت تسير ، وتسير ، والغابة الكثيفة تحتضنها ، وآلاف من حشراتها وهوامها ترسل أصواتها مخترقة السكون ، فتثير فى قلب الام المشفقة على ابنها الوانا من الخوف والفزع !.. وراحت تجرى آنا ، وتتمهل آنا ، والصبى على صدرها .. ولكنها أبدا لم تكف عن السير .

عملاق فى جوف الغابة

• ولا يعلم سوى الله ما كان يجول بخاطر المجاهدة التى كانت تبذل جهد الجبابرة لتواصل سعيها نحو الامان والحرية . ولكن المؤكد ان فكرة واحدة ظلت تطغى دائما على ماعداها .. تلك هى أن سلامة ابنها واجب لابد من أدائه الى أخر لحظة من حياتها !

وظلت تسير ، هائمة على وجهها ، فى ظلمة الليل ووحشة الغابة .. وفجأة ، انتصب أمامها شبح شل حراكها ، وأرسل



رعدة جليدية فى فؤادها .. وتبينت أمامها عملاقا مشهرا فى احدى يديه سيفا .. وظل واقفا برهة ، ثم تقدم منها .

وبعزيمة جبارة ، استجمعت « مرجريت » شتات قوتها ، وأجهدت ذكاءها وسعة حيلتها، حتى واتتها فكرة جريئة ، أوحت اليها بأن تتصرف وكأنها قابلت صديقا حميما ، عسى أن تلين بثقتها قلب العملاق .

فهتفت به : « الحمد لله أن ساقك أيها الصديق .. الا أنقذ ابن مليكك ! » . ورفعت الصبى عن صدرها ، وقدمته الى الرجل .. وفى ايجاز ،روت له المحنة التى كانت والصبى فيها

ومكث الرجل لحظة مبهوتا ، جامدا ، وكأنه يأبى أن يصدق أذنيه ، أو لعله كان حائرا .. ثم طوح بالسيف جانبا ، ورفع قبعته .. وكان هذا ـ فى ذاته ـ دليلا كافيا للملكة على أنها قد كسبت الموقف !

وفى اللحظة عينها ، ابتسم الصبى ذو الوجه الملائكى ، فألانت ابتسامته ماتبقى فى فؤاد الرجل من صلابة ، واذا به يبسط ذراعيه ، فيرفع الصبى بينهما ويضمه الى صدره . ثم دعا الملكة أن تتبعه الى كهفه حيث تنزل فى ضيافته ورعاية زوجته

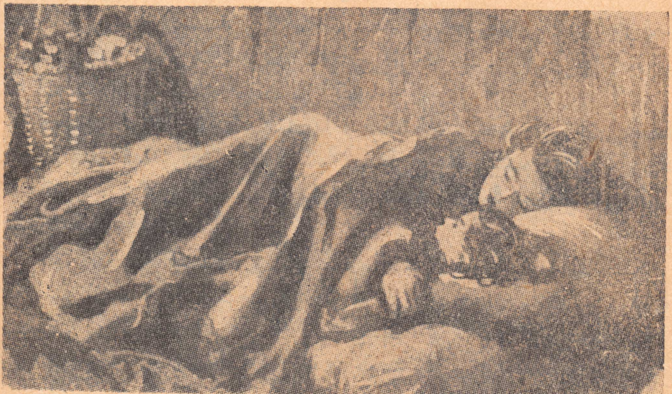
خاتمة المطاف !

• **وفى الطريق الى الكهف** ، عرفت « مرجريت » أن العملاق لم يكن سوى أحد السادة الذين فقدوا ثرواتهم وعزهم من

جـراء بقائهم على الولاء لآل لانـكاستر ، وعزوفهم عن تأييـد اليوركيين

وتلقتها زوجة الرجل بحفاوة وحرارة ، فى الكهف الذى بدا ـ رغم تواضعه وفقره ـ أجمل فى عينى ((مرجريت)) من أكثر القصور بذخا .. فقد كان فيه نور ودفء وطعام ومرقد .. وهى أشياء كانت ((مرجريت)) تهفو اليها فى شوق طاغ !

وقبل أن ينقضى وقت يذكر ، كانت الملكة ترقد ناعمة ـ فى ركن من الكهف ـ على حشية بالية ، كانت لديهـا خيرا من السرير الملكى الوثير، وقد احتضنت ابنها الغالى .. بينما سهر رب الكهف وزوجته على حراسة الشريدة التى كانت ابنة ملك، وزوجة ملك ، وملكة متوجة !



.. وعلى حشية بالية ، رقدت الملكة، وقد احتضنت ابنها الغالى ـ لوحة من رسم الفنان ((ماتانيا))

القصة التى كتبت ٣٤ مرة قبل النشر !

● ان منع الحرب مهمة فى أيدى الشعوب ذاتها ، لا الحكومات .. هذه هى الفكرة التى خرج بها « أرنست هيمنجواى » - كاتب القصة الاول فى أمريكا ، والفائز بجائزة « نوبل » للسلام - من تجاربه فى الحرب العالمية الاولى ، وبنى على أساسها هذه القصة التى تقع حوادثها فى شمال ايطاليا ، بالقرب من الحدود النمسوية ، والتى نشرت لأول مرة فى نوفمبر سنة ١٩٢٩ ، ثم اعيد طبعها مرتين فى الشهر ذاته ، وطبعت للمرة الرابعة فى ديسمبر من نفس العام .. وبلغ عدد الطبعات التى صدرت منها - من نوفمبر سنة ١٩٢٩ الى أوائل سنة ١٩٥٧ - احدى وعشرين طبعة ! .. كما اخرجت فى السينما فظفرت بنجاح عالمى ، فلا عجب أن أجمع النقاد على انها القصة التى يدين اليها « هيمنجواى » بشهرته ومجده ، فلقد كان « همينجواى » قبلها مجرد أديب مكافح ، يحاول جاهداً أن يصل الى نفوس القراء ، ولكنه بهذه القصة - التى وصفت كوارث الحروب وأهوالها على البشر عامة ، وعلى الفرد على حدة - استطاع أن يصل فجأة ، وبقفزة واحدة ، الى قلوب القراء وعقولهم وأرواحهم ، فى آن واحد .

ولا عجب ، فان العناية التى بذلها هيمنجواى فيها ، فاقت كل ما يخطر بالبال ، اذ أنه أعاد كتابتها أربعا وثلاثين مرة ، قبل أن يرضى عنها ويدفع بها للنشر !

وليست « وداعا يا سلاح ! » هى القصة الوحيدة التى أخرجتها السينما من قصص هيمنجواى ، فقد عرضت له قبلها عدة قصص ، أهمها : « لمن تدق الاجراس » و « الشمس تشرق ثانية » . ولكن « وداعا يا سلاح ! » استطاعت أن تحرز على الستار الفضى نجاحا لا يقل عما أحرزته على الورق .. اذ انها - كما وصفها القصصى الكبير « أرنولد بنيت » - عبارة عن « حقائق صلبة ذات بريق ثاقب ، باهر ، يتخللها احساس عاطفى صادق ، صحيح .. فهى تقنعك تماما بصحتها وصدقها » .. أو هى - كما قلنا - تبين أهوال الحرب على المجتمع الانسانى فى مجموعه ، وعلى الفرد الواحد ممثلا فى بطل القصة ، الذى يروى حوادثها على لسانه .

ولكنا نحب أن تلمس ذلك بنفسك ، فلنتركك للقصة !

الجزء الاول

• **كنا** نقيم ـ فى أواخر صيف ذلك العام ـ فى بيت بقرية تشرف على النهر وما وراءه من سهل وجبال .. وكانت القوات تمر بالدار ، وتنحدر الى الطريق ، فيتصاعد العثير ـ الذى تثيره أقدام الجنود ـ ويكسوا أوراق الشجر . وكنا نسمع الجنود أحيانا وهم يمرون تحت النافذة ، فى جنح الظلام ، ومعهم المدافع تجرها الجرارات الميكانيكية .. وكانت حركة المرور تشتد بالليل ، فتسير البغال محملة بصناديق الذخيرة ، والسيارات الضخمة محملة بالرجال . وعندما كانت الامطار تنهمر ، كانت السيارات تنثر الوحل فى كل مكان .

وفى العام التالى أحرزنا انتصارات كثيرة ، فاستولينا على الجبل القائم وراء الوادى ، وعلى سفح التل القريب الذى تكسوه الغابات .. كما أحرزنا انتصارات فيما وراء السهل ، على الهضبة الجنوبية . وعبرنا النهر ـ فى شهر أغسطس ـ فأقمنا فى دار بديعة فى (جوريسيا) . وتحول القتال الى الجبال المجاورة .. وكانت البلدة بديعة ، والدار التى أقمنا فيها جميلة !

وما لبث الصيف أن انقضى ، وبدأت الثلوج تنهمر .. وفى الليلة الأولى لسقوطها ، اجتمعنا فى المقصف ، وأقبلنا على النبيذ .. وحلا للكابتن أن يداعب القس ـ وكان شابا سريع الخجل ـ فراح يتهمه بأنه ينشد صحبة الفتيات . وهنا قال « الميجر » : « ان البابا يحب أن يكسب النمسويون الحرب .. ومن هنا يتدفق عليه المال ! » .. **وهكذا أخذ كل واحد يهاجم القس من احدى النواحي ، امعانا فى المداعبة ، الى أن قلت :**

« ما أحسب أننا سنتعرض لهجوم جديد ، بعد أن أقبل فصل الثلوج ! » . **فقال الميجر : « بالتأكيد ، وجدير بك أن ترحل فى أجازة .. اذهب الى روما .. نابولى .. صقلية .. »**

وأخذ كل من الحضور يقترح مكانا ، فما لبث القس أن قال : « بل أتمنى أن تذهب الى أبروتسى ، وأن تزور أسرتى فى كابراكوتا »

وانقلب الكل يسخرون من اقتراحه قائلين اننى لم أكن مشوقا الى رؤية أهل الريف ، وانما كنت أهفو الى الفتيات .. الكواعب الحسان !

* * *

◆ **وعدت** من أجازتى الى الجبهة ، فاذا نحن لانزال نقيم فى تلك البلدة ، وقد أقبل الربيع ، وازداد عدد المدافع كثيرا ، فأنبثت فى كل مكان ، حتى فى داخل البلدة . كما ازداد عدد المستشفيات .. وأصبحت تلتقى ببريطانيين — وبريطانيات ، أحيانا — فى الطرقات .

وصعدت لفورى الى الغرفة التى كنت أقتسمها مع الملازم « رينالدى » ، فاذا كل شىء كما تركته تماما .. وكان الملازم نائما ، فاستيقظ وراح يمطرنى بالاسئلة عن عطلتى ، وعن الأماكن التى ارتدتها ، وعن الفتيات اللائى صادفتهن . ومضيت أروى له مغامراتى فى اقتضاب ، فقال فى انجليزيته الركيكة التى يغلب عليها لسانه الايطالى : **« ليس لكل هذا قيمة تذكر ، فلدينا الآن فتيات حسان .. فتيات جديدات لم يفدن على الجبهة من قبل ! كما أن لدينا انجليزيات جميلات . وأنا الآن متيم بواحدة منهن تدعى مس باركلى .. سأصطحبك فى زيارة لها ، فمن المحتمل أن أتزوجها ! »**

وعاد الى نومه ، بينما خلعت ثيابى واغتسلت بالماء البارد . وعندما أنتهيت ، رحت أتأمل « رينالدى » وهو نائم مغمض

العينين .. كان مليحا ، يناهزنى فى السن ، ويحب عمله كجراح .. وكانت الصداقة بيننا قد توطدت .

وفتح عينيه ، فسألنى : « أمعك نقود ؟ .. أقرضنى خمسين ليرة ، فاننى أحب أن أوحى الى مس باركلى بأننى رجل واسع الثراء ! » .. وبدون أن ينهض من سريره ، تناول من حافظتى المبلغ ، وابتسم !

وكان على الفرقة التى نعمل معها ، أن تشن هجوما على موقع فى أعلى النهر ، فسألنى « الميجر » - فى الصباح التالى - أن أدبر مراكز لسيارات الاسعاف ، بوصفى المشرف عليها . وعندما عدت من هذه المهمة ، كنت مغبرا ، فصعدت الى غرفتى لأغتسل ، واذا « رينالدى » هناك ، منكبا على كتاب فى قواعد اللغة الانجليزية ، وقد تأنق فى مظهره .. كان يتأهب لزيارة مس باركلى ، وقد أصر على اصطحابى !

* * *

• وكان المستشفى البريطانى يشغل قصرا كبيرا شيده الألمان ، قبل الحرب . ووجدنا مس باركلى فى الحديقة مع ممرضة أخرى تدعى مس فيرجسن ، لم يلبث رينالدى أن شغل بالحديث معها ، فخلا لى الجو مع مس باركلى .. وما ان عرفت الفتاة اننى أمريكى ، حتى أبدت دهشتها من أننى أعمل فى الجيش الايطالى . فقلت : « اننى لست فى الجيش بمعنى الكلمة ، وانما فى سيارات الاسعاف » . **وكانت مس باركلى طويلة شقراء ، ذات سمرة وردية خفيفة ، وعينين رماديتين .. ولمحت فى يدها عصا قصيرة رفيعة ، من النوع الذى يحمله الضباط ، فسألتها عنها .. وكان جوابها : « لقد كانت لشاب قتل فى العام الماضى .. كان جد لطيف ، وكان يعتزم الزواج منى ، ولكنه قتل فى معارك السوم ! » . فأبديت أسفى لذلك ، ثم سألتها : « وهل دامت خطبتكما طويلا ؟ »**

— ثمانية أعوام .. لقد نشأنا معا

— ولماذا لم تتزوجا خلال ذلك ؟

— لست أدرى .. كنت حمقاء . لقد ظننت أن ذلك لن يكون فى مصلحته . هل أحببت يوما ؟

وأجبتها بالنفى . وتطلعت اليها ، ثم قلت : « ان شعرك جميل ! »

— لقد أوشكت أن أقصه عند موت فتاى .. كنت أريد أن افعل شيئا من أجله ، اذ انني لم أكن قد اكترثت الشيء الآخر الذى كان من حقه أن يستأثر به .. كان جديرا بأن ينال كل ماكان يشتهى ، او انني فطنت الى ذلك .. كنت على استعداد لان أتزوجه ، أو ان افعل أى شيء آخر ! لم أكن أعرف شيئا اذ ذاك ، وانما ظننت أن الزواج فى غير مصلحته .. أما الآن ، فقد انتهى كل شيء !

وفى اليوم التالى ذهبت لارتياد المنطقة التى كان مقررا أن يبدأ منها الهجوم .. وكان الزحف شبه مستحيل ، اذ لم يكن هناك سوى طريق واحد ، يمتد من ممر جبلى ، الى جسر اقامه الجيش فى مكان جسر ثابت كان قد نسف . وكان هذا الطريق تحت رحمة مدافع النمسويين الذين كانت خنادقهم فى الجزء الأعلى من سفح الجبل ، على بضع ياردات من خطوط الايطاليين .. وعندما عدت فى المساء ، التهمت عشائى بسرعة ، ثم أسرعت الى المستشفى البريطانى .. فوجدت مس باركلى فى الحديقة .. **وراح كل منا يتأمل الآخر فى الظلام ، فبدت لى جد جميلة .. وحاولت أن أقبلها ، فاذا بها تنهال على وجهى بصفعة قوية دمعت لها عيناى ! .. وحملقت فى وجهى خلال الظلام .. كنت مغضبا ، ولكننى رأيت النتيجة وكأننى كنت أرقب رقعة شطرنج .. وصح ماتوقعت ، فما لبثت بعد الاعتذار أن أسلمتنى شفتيها ، فطبعت عليهما قبلة قوية ، وأنا أضمها بشدة الى صدرى ، وأحاول أن أباعد مابينهما ..**

وارتجفت فجأة ، وأشتد وجيب قلبها ، وفتحت شفتيها ، ثم طوحت برأسها الى الخلف .. وفى اللحظة التالية ، كانت تسند رأسها الى كتفى وقد انخرطت فى البكاء !

وعجبت لأمرها .. ورحت أربت كتفيها فى حيرة ، وأنا أسألها عما يبكيها .. وحدقت فى ، ثم غمغمت : **« أواه يا حبيبى ! .. لسوف تكون رفيقا بى ، أليس كذلك ؟. لسوف تترفق بى ، لأننا سنخوض حياة غريبة ! »**

وعندما عدت الى غرفتى فى ذلك المساء ، كان « رينالدى » فى السرير ، فتأملنى ثم قال : « هل أحرزت تقدما مع مس باركلى ؟ » . فأجبته : « لقد أصبحنا صديقين ! »

* * *

• **وقضيت** يومين فى المراكز الأمامية .. ولم تتح لى فرصة رؤية مس باركلى الا فى مساء اليوم التالى لعودتى الى البلدة . وبدت فاتنة وهى تقبل الى البهو الذى جلست انتظرها فيه ، حتى اذا دنت ، بادرتنى قائلة : « مساء الخير يامستر هنرى » . ودلفنا الى الحديقة . وفيما كنا نخطر تحت الأشجار ، أمسكت بيديها ، ثم قبلتها ..

وتطلعت الى ، ثم قالت : **« أو تحبنى ؟ .. قلها ! .. قل انك تحبنى ! »**

ولم أكن أدرك عواطفى تماما ، ولكننى قلتها . فعادت تقول : « نادنى باسمى .. كاترين ! » . ورددت الأسم .. وسرنا بضع خطوات ، ثم استوقفتنى وقالت : « قل : ها أنذا أعود الى كاترين فى الليل ! » .. وفعلت ، فهتفت : **« أواه ياحبيبى ، لقد عدت الى .. اننى أحبك .. قل انك لن ترحل ثانية ! »**

ــ بل أننى سأعود اليك دائما !

ورحت أتأمل وجهها .. حتى اذا قبلتها ، لاحظت أنها أغمضت عينيها ، فقبلت العينين المغمضتين .. **ولم أحفل بما**

كانت الامور تتطور اليه ، فقد كان هذا افضل من التردد على بيت اللهو الذي كان مخصصا للضباط .. ولقد أدركت انني لم أكن أحب « كاترين باركلي » ، ولكنها كانت لعبة من ألعاب التسلية ! .. وجلسنا على مقعد حجرى ، فنظرت الى العشب وقالت : « انها لعبة خبيثة ! » ، فتساءلت : « أية لعبة ؟ »

ـ لاتتغابى ! انك فتى لطيف ، وانك لتدرك أنك تجيد لعبها .. ولكنها خبيثة ! ليست بك حاجة الى أن تتظاهر بأنك تحبنى !

وقلت : « ولكننى أحبك فعلا » . وضغطت يدها ،وهتفت : « ياكاترين العزيزة ! »

وبعد ظهر اليوم التالى ، فيما كنت عائدا من أول مراكزنا الجبلية ، رأيت أبشع صور الحرب .. كان الحر قاسيا ، والطريق متربة ، والرجال يتصببون عرقا ، وقد هدهم التعب .. ولمحت رجلا لا يقوى على المشى ، فهبطت من سيارة الاسعاف أسأله عما به ، فقال : « اننى مصاب بفتق ! »

ـ ولماذا لا تركب احدى سيارات النقل ؟ .. لماذا لاتذهب الى مستشفى ؟

ـ لن يسمحوا لى .. وسيقول الطبيب اننى تعمدت ازاحة الحزام !

وأفسحت له مكانا فى السيارة . وسألنى فى الطريق : « ما رأيك فى هذه الحرب اللعينة ؟ » . فقلت : « أنها شر ! » . واذ ذاك هتف ، وقد كشف عن أنه ـ هو الآخر ـ كان أمريكيا : **« أجل ، انها شر وحق المسيح ! .. اسمع ، لقد أزحت الحزام فعلا لكى يستفحل الفتق ، فأننى لم أعد راغبا فى العودة الى خط القتال .. ولو اننى ذهبت الى المستشفى ، لأجروا لى عملية جراحية ، ولردونى ثانية الى خط القتال ! »**

وعندما عدت الى غرفتى ـ فى الساعة الخامسة من المساء ـ تذكرت أن على أن أكتب الى أمريكا ، ولكننى لم أجد ما أكتب

عنه ، فآثرت أن أرسل زوجا من بطاقات البريد الخاصة بجبهة القتال ، فهى تبدو ــ فى أمريكا ــ عجيبة ، محوطة بالغموض . وقد كان القطاع الذى نحارب فيه غريبا حقا ، فان الجيش النمسوى لم يخلق الا ليتيح الانتصارات لنابليون .. ولم يكن فى ايطاليا نابليون ! .. وكنت مع الجيش الثانى ، ولكننى تمنيت لو اننى كنت فى صفوف الجيش الثالث ، فقد كانت فى تلك الصفوف بضع بطاريات بريطانية ، فوددت ان أكون مع البريطانيين ، اذ كان من المحتمل اذ ذاك أن أقتل !

وكنت أدعو الله أن تنتهى الحرب .. ترى أى شىء أصاب هذه الحرب ؟ .. لكم كنت أتمنى أن أذهب الى النمسا ، وأنعم بمشاهدها الطبيعية ، ولكن .. بدون حرب ! وأشتهيت أن أذهب مع « كاترين باركلى » الى (ميلان) ، وأن أنزل معها فى فندق واحد ، فلعلها ــ اذ ذاك ــ توهم نفسها بأننى فتاها الذى قتل ! .. ورحت أتمثل كل خطوة ، حتى أنتهيت الى تمثل صورتنا معا ــ فى غرفة موصدة الباب ــ وقد تجردنا من ثيابنا .. لفرط الحر القائظ ! .. وتمثلتنا نقضى الليلة الحارة ــ فى ميلان ــ مغرقين فى الهوى !

وكان المقصف غاصا فى ذلك المساء .. وكان لابد من أن أسرف فى الشراب ، وأن أجاريهم فى هذرهم ولغوهم وضحكهم . ولكننى مالبثت أن استأذنت فى الأنصراف . بيد أننى لم أر « كاترين » فى تلك الليلة ، اذ كانت بها وعكة .. وعندما غادرت المستشفى ، شعرت بوحدة ووحشة .. وفراغ هائل !

* * *

• **وكان** علينا ــ بعد ظهر اليوم التالى ــ أن نصحب أربع سيارات الى أعالى النهر ، اذ كان ثمة هجوم مرتقبا فى المساء .. وفيما كنا نمر بالمستشفى البريطانى ، أمرت سائق سيارتى بالتوقف ، ووثبت الي داخل المستشفي . وكانت « كاترين »

فى نوبة الخدمة ، ولكنها أقبلت . فلما علمت بالمهمة التى كنت منطلقا اليها ، وسمعتنى أقول : « وداعا ! » ، هتفت :

ـ لا ، ليس وداعا .. كن عاقلا ، حذرا !

والانطلاق فى قافلة عسكرية ليس بالشىء الممتع ، لاسيما اذا كنت فى السيارة الاولى . وكنت ألتفت خلفى فأرى السيارات الثلاث الأخرى تتسلق الطريق الجبلى ، مثيرة حولها عاصفة من الغبار . ومررنا بصف طويل من البغال المحملة ، ثم خلا الطريق أمامنا ، فمضينا صاعدين بين التلال ، ثم انحدرنا على سفح تل طويل ، الى وادى النهر .. ومضينا مسافة فى الوادى ، ثم عدنا نضرب بين التلال ، مرة أخرى . وتبدت أمامنا سلسلتان من الجبال . ثم صعد الطريق حول ربوة عالية ، فتجلت لنا سلسلة ثالثة .. تلك كانت الجبال النمسوية . وكان ثمة التواء فى الطريق ، فلما تجاوزناه ، بدا ماقطعناه من الطريق أدنى منا مستوى . ورأيت الجنود والسيارات الثقيلة والبغال .. وكان الظلام يشتد ، عندما انحدرنا الى الطريق الرئيسى الممتد بمحاذاة النهر .

وبلغنا المركز أخيرا ، وكان فى فناء مصنع للطوب . وكان مركز النمسويين على الضفة الأخرى للنهر . ودعانى القائد ـ مع ضابطين آخرين ـ الى الشراب . ومالبثت أن خرجت لأتفقد سياراتى . ثم جلست مع السائقين فى الخندق الذى لاذوا به .. ولم يكن لهم من حديث سوى الحرب . كان كل امرىء قد أبغض الحرب وكرهها .. وقال أحدهم :

« لو أن كل امرىء كف عن الهجوم لانتهت الحرب ! »

.. فقال آخر : « ان هذا لن ينهى القتال ! »

ـ ليس هناك ماهو اسوأ من الحرب

ـ بل ان الهزيمة أشد سوءا

ـ لست أعتقد ذلك .. ان الهزيمة معناها العودة الى الأهل ومسقط الرأس

ـ ولكنهم سيتعقبونك ويستولون على دارك ، وعلى أخواتك

ـ ما أظن هذا .. ليدافع كل امرىء عن داره ، وليدافع عن شقيقاته

ـ انهم اذ ذاك يشنقونك

ـ انهم لن يستطيعوا أن يشنقوا كل شخص !

ـ ما أحسبك تعرف شيئا عن الهزيمة !

وقال لى أحدهم : ((**ليس هناك ما هو أسوأ من الحرب ، ولكن الناس حين يلمسون سوءها ، لايملكون أن يوقفوها ، لانهم يفقدون عقولهم .. ومن الناس من لايوقفونها لانهم يخافون ضباطهم . وهؤلاء هم صانعو الحرب !))**

ـ انني أدرك انها سيئة ، ولكن لابد لنا من أن نمضى فيها الى نهايتها

ـ ان الحرب لاتكسب بالنصر !.. هل رأيت اليوم كل تلك الجبال البعيدة ؟ أفتظننا قادرين على أن نأخذها جميعا ، اذا لم يكف النمسويون عن القتال؟.. يجب أن يكف أحد الفريقين . فلماذا لانكف نحن ؟ .. انهم لو أقبلوا الى ايطاليا ، فلن يلبثوا أن يتعبوا ويملوا ويعودوا أدراجهم !

وفوجئنا بالهجوم قبل موعده بساعة . وهوت احدى القذائف خارج مصنع الطوب ، فأثار انفجارها عاصفة من الغبار وقطع الاحجار .. وتبعتها أخرى .. وكنت مع أحد رجالى نحمل بعض الطعام ، عندما انفجرت خلفنا قنبلة طوحت بنا بعيدا . ولكنا استطعنا أن نصل أخيرا الى الخندق. وبينما كانت القنابل تنهمر خارج الخندق ، كنت ورجالى نأكل فى جوفه ! .. **وما لبثنا أن سمعنا صوتا كأنه السعال ، ثم رأينا وميضا .. وكأنما فتح فى وجوهنا باب فرن متأجج ،واندفعت ـ فى الوقت ذاته ـ ريح شديدة ، فأحسست بأننى أختنق ، وقد احتبست أنفاسى .. ورحت أصعد الى الخارج ، وأنا**

أوقن انني قد مت فعلا .. ثم سبحت فى الهواء ، وبدلا من أن أغدو خارج الخندق ، وجدتني أعود اليه . واذ ذاك ، عادت الى أنفاسي .. وكانت فى الأرض حفرة كبيرة ، وقد تناثرت حولى شظايا أخشاب .. وخيل الى أن ثمة شخصا يبكى ، وأن هناك صراخا . وحاولت ان أتحرك فلم أستطع . وسمعت طلقات المدافع السريعة والبنادق ، ورأيت فيضا من نجوم القذائف .. كل هذا فى لحظة واحدة ، ثم سمعت على مقربة منى شخصا يصيح : « آه يا أمى ! » . وخلصت ساقى بقوة ، وألتفت ، فاذا به أحد رجالى ، وقد طارت احدى ساقيه ، وظلت الأخرى عالقة بالركبة .. وكان يعض ذراعه وهو يئن : « أواه يا أمى ! .. ألا خلصني يا الهى ! .. اقض على ! »

وحاولت أن أسعى اليه ، ولكنى لم أستطع . وهدأ صوته ، ثم صمت .. وشعرت بشىء يتحرك فى رأسى ، وكأنه ثقل هائل ، ثم راح يضربني خلف انسانى عينى ! .. وأحسست بساقى دافئتين ، ومبتلتين .. وتلمست ركبتى ، فلم أجد ثمة ركبة ! .. ونظرت الى ساقى فى بطء وقد غشينى خوف هائل ، وهتفت : « أواه ، يا الهى ! .. اخرجني من هنا ! »

وأيقنت ان الجريح الآخر قد مات .. ثم شعرت بيدين ترفعانني من تحت ابطى ، ويدين ترفعان ساقى .. ورحت أهذى : « مات واحد .. وبقى ثلاثة ! »

وهوت شظية على مقربة ، فانبطح اللذان كان يحملاننى ، ومددانى على الارض .. وكانا اثنين من رجالى ، فسألتهما : « أو لستما جريحين ؟ » . فأجابا : « جروحا بسيطة ! » .. وعلمت أن ثالثهما ذهب الى المركز ليحضر بعض الضمادات .. وعندما وصلنا الى المركز ، وجدتنى بين كثيرين من الجرحى الممددين على الأرض .. وكانت هناك حركة دائبة : الموتى يبعدون ، ليحل محلهم جرحى جدد ! .. وكان بعض الجرحى كثيرى الصخب ، وبعضهم هادئين .. وأقبل البريطانيون بثلاث

سيارات الاسعاف . ومال أحد رجالهم على ، وأخذ يواسينى ، ثم غاب قليلا ليعود مع ايطاليين يحملان محفة . فقلت له : « بوسعى ان أنتظر ، فهناك من هم أسوأ منى حالا ! » . ولكنه قال : « دعك من البطولة السخيفة .. احملاه بحرص ، فانه ابن غير شرعى الرئيس ولسن ! » . ونقلت الى غرفة العمليات . وسمعت الانجليزى يقول بالايطالية : « انه الابن الاوحد للسفير الامريكى ، فاعتنوا به » !

وكانت رائحة المواد الكيمياوية تكاد تخنقنى .. وكانت بالركبة اليمنى وبالقدم جروح عميقة .. وأغمضت عينى ، وشعرت بمعدتى تضطرب ، بينما كان الضابط الطبيب يمزق جلدى ، ويستخرج الشظايا من ركبتى . وبعد قليل ، نقلت الى احدى سيارات الاسعاف الانجليزية . وبينما كانت السيارة تنطلق فى الطريق الجبلى ، شعرت بسائل يتساقط على وجهى ، ثم اشتد حتى صار كصنبور مفتوح .. وصرخت أنادى السائق ، فأوقف السيارة ، واذا جراح الجندى الذى شغل المحفة العليا قد دميت ، فنزفت دماؤه بغزارة .. ولم يكن بوسع السائق أن يوقف النزيف ، ولكنه وقف من تلقاء نفسه عندما هبط المساء .. اذ كان الجريح قد مات !

* * *

• **وكانت** الحياة مملة فى مستشفى الميدان ، والجو قائظا ، والذباب يملأ القاعة ، وأصوات المرضى لاتنقطع وهم يتبادلون الأحاديث ، وقد رقد كل منهم فى سريره .. وزارنى « رينالدى » فأحضر لى زجاجة من « الكونياك » وراح يثرثر حتى أثقل رأسى .. وعندما سألته عن « مس باركلى » ، هتف : « سأحضرها اليك .. حالا ! » . ثم تحول الى مزاح ثقيل برمت به ، فما لبث أن انصرف ..

وكان الظلام قد بدأ يهبط ، عندما زارنى القس . وكان

هادئا ، وادعا ، باسما كعادته .. وقال وهو يقدم بضع ربطات: « لقد أحضرت لك كلة (ناموسية) .. وزجاجة من (الفيرموت) .. وصحفا انجليزية ، أرسلت الى (ميستر) لاجتلابها خصيصا لك ! » . ورحت أستعرض العناوين الضخمة فى الصحف ، ثم أنتبهت الى أن القس كان واجما ، فلما سألته عما به ، قال : « **لقد مللت ، ولكن .. ليس من حقى أن أكون كذلك ! »**

— أترى كراهية الحرب قد تسربت اليك ؟

— لا .. ولكننى أبغض الحرب على أية حال .. ان هناك رجالا على استعداد دائما لأن يشعلوا الحرب .. وهناك غيرهم يؤثرون العكس

— ولكن للفريق الأول يسوق الثانى الى الحرب .. فهل فى وسع الفريق الأخير أن يضع لها نهاية ؟

وسرح بصره خلال النافذة ، ثم قال : « **لست أدرى .. انهم غير منظمين بالدرجة التى تمكنهم من ايقافها .. فاذا ما قدر لهم أن ينتظموا ، باعهم قادتهم و تخلوا عنهم ! .. اننى أعلم انك لاتحب الله ، ولكن .. ألا تحبه البتة ؟ »**

— لا ، ولكننى أخافه فى الليل أحيانا !

— ليس هذا بالحب .. فأنت حين تحب تتمنى أن تعمل من أجل من تحب .. تتوق الى أن تضحى من أجله .. تصبو الى أن تخدمه !

— ولكنى لا أحب !

— بل أوقن من انك ستحب ، واذ ذاك .. ستسعد !

— ولكننى سعيد دائما ! .. ما رأيك فى حب النساء ؟ هل ينطبق كلامك عليه ؟

— لست أدرى ، فأننى لم أحب أية امرأة !

وفى الصباح التالى ، علمت أن الأطباء كانوا تواقين الى ارسالى الى (ميلان) ، حيث تتيسر وسائل العلاج .. ولقد

أدركت أنهم انما كانوا يريدون أن يخلوا سريرى لجريح جديد، ولكننى كنت راغبا فى الذهاب الى (ميلان) .. وزارنى « رينالدى » — فى الليلة السابقة لترحيلى — مع قائد فرقتنا . وعلمت منهما اننى سأرسل الى مستشفى أمريكى أنشىء فى (ميلان) ، وأصبحت سيارات الاسعاف الامريكية تتبعه . كما علمت أن الولايات المتحدة أعلنت الحرب على المانيا ، دون النمسا ! .. على أن زائرى الايطاليين كانا موقنين من انها لن تلبث أن تعلن الحرب على النمسا كذلك .. وتركيا .. وبلغاريا ! .. وراحا يرهقاننى بالأسئلة عما أتوقعه من الرئيس « ولسن » ، وكأننى كنت عليما بأسراره السياسية !

ورحنا نشرب ونثرثر على غير هدى .. وفجأة ، قال رينالدى : « لدى مفاجأة لك .. ان فتاتك الأنجليزية ذاهبة الى (ميلان) هى الأخرى ، لتعمل فى المستشفى الامريكى .. فما رأيك فى هذا ياصغيرى ؟ .. لسوف تعيش فى مدينة كبيرة ، وستكون فتاتك الانجليزية هناك لتدللك ! »

وفى الصباح التالى ، رحلت الى (ميلان) .

الجزء الثانى

• **ووصلنا** الى (ميلان) بعد ثمان وأربعين ساعة ، فأنزلونا فى ساحة البضائع ، ثم نقلتنا سيارات الاسعاف الى المستشفى .. وأرسلت الى الطابق الرابع ، فخفت الينا ممرضة على أبواب الشيخوخة ، تضع عوينتين (نظارة) على عينيها . ولم تكن الغرف مهيأة بعد ، ولا كان من المرتقب وصول مرضى

وأستقر بى المقام فى غرفة فسيحة ، ذات أثاث جديد ... وهفت الراحة بأعصابى ، فأستغرقت فى النوم . وعندما استيقظت ، كنت أحس ظمأ شديدا ، فضغطت زر الجرس .. وأقبلت ممرضة شابة جميلة ، سألتنى عن اسمي ، فقلت لها :

« فردريك هنري » . ثم سألتهـا عن مس باركلي ، فذكرت لي ان ليس بالمستشفى ممرضة بهذا الأسم . وتعاونت هذه الممرضة ــ وكانت تدعى مس جيج ــ مع الممرضـة المسنة ، التي كانت تدعى «مسز ووكر» ، على غسل جسمي، واستبدال ثيابي بأخرى نظيفة .. ثم زارتني بعد الظهر رئيسة الممرضات ــ مس فان كامبن ــ فلم تمل الي ، ولم اشعر بميل اليها ، منذ البداية !

وأمطرتني بالأسئلة عن نفسي وعن اصابتي ، وقد بدا عليها الاشمئزاز من انني كنت في صفوف الايطاليين . وسألتها عن خمر ، فقالت : « ليس قبل أن يأذن لك الطبيب ! » . ولـكن الطبيب كان متغيبا في بلدة أخرى ، فقد كانت له عيادة خاصة فيها ! .. على انني استطعت أن أغري أحد الخدم بأن يبتاع لي قنينة نبيذ .

ونمت طويلا في تلك الليـلة ، وعنـدما أستيقظت ، كانت الشمس تملأ الحجرة . وأقبلت مس جيج فحيتني ؛ وما ان أكتشفت زجاجة النبيذ ، حتى سألتني : « لماذا لم تسـألني أن أحضر لك كأسا ؟ » . واذ أجبت بأنني خشيت أن لا يسمح لي باستبقاء الزجاجة ، قالت : « لقد كنت على استعداد لأن أشرب معك ! »

وعلمت منها النبأ الذي كنت مشوقا اليه .. لقد وصلت مس باركلي !

وما لبثت أن أقبـلت « كاترين » ، فسـارت حتى بلغت السرير .. وكانت تبدو بارعة الجمال ، ناضرة المحيـا ، حتى لقد شعرت ــ اذ رأيتها ــ بأنني كنت أحبها ! .. وعنـد مـا استوثقت من أنه لم يـكن ثمـة من يرانا ، انحنت وقبلتني ، فشددتها الي وضممتها.. وشعرت بقلبها يخفق بعنف. وكدت أجن شغفا بها ، وأنا لا أكاد أصدق انها في احضاني ! .. واذ فطنت الي ماراودتني عليه نفسي ، هتفت : « ما ينبغي لك ،



فأنت لست معافى .. لم تؤت القوة الكافية !» .. ولم يجدها التمنع !

. . . .

. . . .

وسألتنى كاترين بعد أن فتحنا باب الحجرة ثانية : «هل آمنت بأننى أحبك ؟» . فهتفت : « أواه ، ما أشهاك ! »

ــ ولكننا يجب ان نلزم الحذر أمام الآخرين .. لقد كان ما فعلناه جنونا ، ويجب ألا نعاوده !

وفى ذلك المساء ، تقاسمنا السرير طيلة الليل ، فقد كانت نوبة السهر من نصيبها !

وفى الصباح تحولت تسألنى : « والآن ، أخبرنى .. كم واحدة أحببت حقا ؟ » . قلت:« ولا واحدة! » . فهتفت:«كاذب! لا بأس ، انك الآن ملكى ، ولن أحفل اذا كنت قد عشقت سواى من قبل .. لست أخشاهن ! »

★★★

• **وأجريت** لى عملية جراحية ناجحة .. وأصبحت مس باركلى محبوبة من جميع الممرضات الأخريات ، لأنها أصبحت تضطلع عنهن بكل نوبات السهر ! .. كما أصبحت تقضى معى كل أوقات فراغها .. وكانت مس فيرجسن قد نقلت هى الاخرى الى المستشفى . وأستطاعت أن تتبين علاقتنا .. وسألتها ذات يوم : هل ستحضرين زفافنا ؟»

ـ أنكما لن تتزوجا .. بل أنكما ستتشاجران قبل الزواج !

ـ ولكنا لا نتشاجر .. ولن نتشاجر !

ـ اذن فسوف تموتان .. اما الشجار ، واما الموت .. على هذا جبل الناس ، فهم لايتزوجون ! .. ومع ذلك فقد تكونان على وئام ، ولكن احذرا أن تتورطا .. لو أنك زججت بها فى أية ورطة فسأقتلك !

ولقد فطنت مس جيج ـ هى الأخرى ـ الى العلاقة التى كانت بينى وبين مس باركلى .. وارتابت مس فان كامبن فى أمرى ـ اذ رأتنى أنام طويلا اثناء النهار ـ وفى أمر كاترين ، اذ رأتها دائبة على نوبات السهر !

على اننا نعمنا بأوقات عذبة فى الصيف . وعندما استطعت أن أسير على عكازتين ـ قبل أن استكمل شفائى ـ أصبحنا نخرج معا لنتناول العشاء فى مطعم هادىء ، ذى جو شاعرى .. وكانت اذا غابت عنى قليلا ، أشعر كأنها فى سفر طويل .. **وظلت توافينى كل ليلة ، بعد ان تستوثق من ان الجميع قد أخلدوا الى النوم . وكان يحلو لى أن أجرد شعرها من المشابك ، وهى تباغتنى بقبلاتها ، وأنشره ، وأروح أتأملها .. ثم نتخذ من شعرها ستارا نغيب خلفه وجهينا ، فكأننا فى خيمة ! .. كانت ذات وجه بديع ، وجسم بديع ، وبشرة بديعة !**

وكان كل منا يقول للآخر اننا تزوجنا منذ اليوم الأول لوصولها الى المستشفى .. والحق أننى كنت أصبو فعلا الى الزواج ، ولكن كاترين كانت تعارض قائلة ان الزواج سيحمل السلطات على أن تقصيها عن الجبهة ، وأن تفرق بيننا ! .. ولكننى كنت أخشى أن تثمر علاقتنا طفلا . وكنت أقول لها : « انما أريد الزواج من أجلك أنت »

ـ لم يعد هناك « أنا » .. فأنا أنت !

ـ لقد كنت أحسب الفتيات يتقن الى الزواج دائما !

ـ هو ذلك ، ولكنى متزوجة ياحبيبى .. لقد تزوجتك !

ــ اذن ، فليس هناك ما يثير قلقك ؟

ــ ليس هناك سوى أن أقصى عنك . فأنت كل مالى !

ــ حسنا .. على أننى سأتزوجك فى اليوم الذى ترين فيه ذلك

ــ لا تتكلم كما لو أنك كنت مضطرا الى أن تجعل منى امرأة شريفة ، فأنا جد شريفة .. ان المرء لا يخجل من شىء ، اذا كان سعيدا وفخورا بهذا الشىء !

وانقضى الصيف على هذا النسق .. وكانت الحرب لاتزال دائرة الرحى ، كما كان التذمر منهـا يشـيع فى كل نفس .. وكان شبح عودتى الى العمل يزداد تخييما على هنائنا ، كلما ازددت تماثلا للشفاء .

وأقبلت الأمطار .. وفى اول ليلة ممطرة ، كنت وكاترين معا فى حجرتى .. فى الظلام . وسألتنى : « هل ستظل على حبى دائما ؟ .. ألن يغير المطر من حبك لى ؟ » فأجبت : «كلا»

ــ هذا بديع لاننى أرهب المطر .. لقد اعتدت ان أخافه

وألححت فى سؤالها عن سر خوفها من المطر ، فمـا لبثت أن قالت : « لأننى أتمثل نفسى ــ أحيانا ــ ميتة .. فيه ! .. وأتمثلك أحيانا ميتا ! »

* * *

• **واستفحل** الموقف فى الجبهة سوءا .. كانت كل قوات الحلفاء فى مأزق ، وكان الالمان يحرزون الانتصـارات تباعا . أما ساقى فقد أصبحت فى حال جيدة ، ولكنها كانت لا تزال تحت العلاج . على اننى لم ألبث أن تلقيت انذارا بأن العـلاج ينتهى فى الرابع من شهر اكتوبر ، وأن لى أن أقضى ثلاثةأسابيع فى عطلة للنقاهة ، أعود بعدها الى الجبهة ..

وفى مساء اليوم الذى تلقيت فيه هذا النبأ ، بدت «كاترين» مرتبكة مضطربة .. وكانت تحاول أن تتكتم ما بها ، ولكننى

رحت ألح وألحف ، حتى صارحتنى بأنها حبلى منذ ثلاثة أشهر تقريبا ..

وسادنا الصمت برهة ، ثم أمسكت بيدى وقالت : « ما أحسبك ساخطا ياحبيبى ؟ .. أعذرنى ، فما حظيت بطفل من قبل ، ولكنى حاولت أن أكون كما أردتنى أنت ! »

ورحنا نرسم معا الحياة التى كنا نرجوها فى المستقبل .

* * *

• **وكنت** ألازم الفراش ، أعانى ضمورا فى الكبد ، حين ولجت مس فان كامبن، رئيسة الممرضات ، الحجرة — ذات يوم — وسارت لفورها الى الصوان ففتحته .. وكانت هناك احدى عشرة زجاجة فارغة من زجاجات الشراب .. وكانت تلك فرصتها لترضى الكراهية التى كانت تعتمل فى صدرها نحوى . ولكنى تعمدت أن أغيظها ، فصاحت تتهمنى بأننى كنت أفتعل المرض بالاسراف فى الشراب، لكى أتهرب من العودة الى جبهة القتال !

وأستطعت أن أسخر منها ، وان أثيرها الى أقصى حدود الاستثارة .. ولم يحدث شىء ، اللهم الا اننى فقدت العطلة التى كنت قد منحتها للنقاهة !

وفى مساء يوم الرحيل ، أسلمت كل متاعى الى أحد الخدم ، وأوصيته بأن يحجز لى مقعدا فى القطار الذى كان يصل الى (ميلان) فى منتصف الحادية عشرة مساء — قادما من (تورين) — فيمكث فى المحطة حتى منتصف الليل .. وودعت الجميع فى الساعة الخامسة ، ثم بارحت المستشفى الى حانة قريبة ، لم تلبث « كاترين » أن وافتنى فيها .. وكان الظلام قد هبط على المدينة ، مصحوبا بضباب بارد . وسرنا معا حتى ميدان الكاتدرائية ، فاذا الظلام والضباب يشتدان . **وصادفنا جنديا وفتاة ، وقد وقفا متلاصقين فى أحد الاركان ، فقلت :**

« انهما مثلنا ! » . ولكن كاترين قالت : « ليس هناك من هما مثلنا قط ! » .. وكان صوتها مثقلا بالاسى !

ورحنا نتأمل نوافذ المتاجر ، ونتسكع فى الطرقات ! .. وصادفنا شارعا معتما ، فوقفت لاقبل «كاترين» .. وشعرت بيدها على كتفى ، وقد التصقت بى .. وداخلتنى رغبة جامحة فى أن تضمنا جدران أربعة ، فأستأجرنا عربة لتقلنا الى فندق قريب من محطة السكة الحديدية .

وكانت الحجرة التى ظفرنا بها رائعة ، كثيرة المرايا ، وذات حمام خاص . وفى انتظار العشاء ، وقفت لدى النافذة ، بينما جلست كاترين على السرير . وبدت واجمة ، غير سعيدة ، فقلت : « ماذا هناك ياحبيبتى ؟ »

ـ ما شعرت قط من قبل بأننى مومس !

ـ ولكنك لست مومسا ياحبيبتى

ـ أعرف ذلك يا حبيبى ، ولكن شعور المرأة بانها مومس ليس بالشعور الجميل !

وكان صوتها خاليا من الحرارة .. على أننا لم نلبث ـ بعد العشاء ـ أن شعرنا بالهناء يدب الى نفسينا .. وبعث الشراب فينا حرارة وابتهاجا . ومالبثت كاترين أن قالت : « ما أبدع هذه الحجرة ! »

ـ انها غريبة بهذه المرايا .. ولكنها جميلة !

ـ ان الرذيلة رائعة ، ويبدو أن الذين يفدون على هذا الفندق من أجلها قد أوتوا ذوقا .. وهذه المرايا جد جذابة !

ـ لست أدرى كيف يجوز للمرء أن يستيقظ بعد النوم فى حجرة كهذه !

ـ لشد ما أهفو الى أن نرتكب شيئا آثما فعلا ، فان كل مانفعله يبدو ساذجا ، بريئا .. ولست أملك أن أعتقد أننا

نرتكب ذنبا !

ـ انك لفتاة فذة ، ساذجة !

ـ هو ذلك .. ولكن أحدا لم يفهمنى سواك ! .. لقد نعمنا بفترة هانئة . اننى لم أعد أحفل بشىء ، فاننى مرتبطة بك بزواج جد سعيد !

وساد السكون كل شىء لفترة ، ومالبثنا ان سمعنا صوت انهمار المطر .. ومن الطريق ، تصاعد الى سمعنا لحن ، فقلت أردد مطلع الأغنية :

ـ ودائما أسمع وراء ظهرى .. عربة الزمن المجنحة وهى تقترب !

فقالت كاترين : « **اننى أعرف القصيدة .. ولكنها عن فتاة كانت تأبى أن تعيش مع أى رجل** »

وصفا ذهنى ، وتنبهت حواسى ، فسألتها : « أين ستضعين طفلك ؟ »

ـ لست أدرى .. فى خير مكان ، وسأدبر الأمر غايةوسعى ، فلا تهتم يا حبيبى .. قد نرزق بعدة أطفال قبل أن تنتهى الحرب !

وحان موعد الرحيل .. وودنا لو أستطعنا أن ندفع عقربى الساعة الى الوراء . على أنه لم يكن ثمة بد منأن نبرح المكان .. وقلت لها : « لم يعد لنا مناص من الانصراف » . فتطلعتالى ، ثم قالت : « حسنا .. لتكن الأول فى الخروج ! »

وآثرت أن نتبادل الوداع فى العربة التى أقلتنا ، ثم أبرحها عند المحطة ، وتبقى « كاترين » بها لتقلها الى المستشفى .. واستقبلنى المطر عندما غادرتها ، وانحنت« كاترين » ، فسقط الضوء على وجهها ، والعربة تمضى بها .. وكانت تبتسم وتلوح بيدها !

الجزء الثالث

• **وعدت** الى مقر فرقتى ، لأجد أن الأحوال كانت تزداد سوءا ، وان عدد المصابين كان يتضاعف .. وقال الميجر عندما ذهبت لاقدم نفسى اليه : « أن العام المقبل سيكون أكثر سوءا !.. ان النمسويين قد يبدأون الهجوم الآن .. ولكنى أستبعد هذا ، نظرا لغزارة الأمطار » .. وكانت الآمال معلقة بأن ترسل أمريكا جيوشها الى الجبهات .. واذ أعربت للقائد عن سرورى للعودة الى العمل معه ، ابتسم قائلا : « **لقد سئمت هذه الحرب .. ولو انني غادرت هذا المكان ، لما عدت اليه ثانية ! »**

واستلقيت على سريرى ، فى الغرفة التى كنت أتقاسمها مع « رينالدى » ، ووجدتنى أفكر فى كاترين على الرغم منى . وما لبث « رينالدى » أن أقبل ، فاذا به كما عهدته ، وان بدا أكثر نحولا ، فقد كانت الاصابات كثيرة فى الصيف والخريف ، وكان مرهقا بالعمل مكدودا .. وما ان فحص ساقى وركبتى بأصابعه المرهفة الخبيرة ، حتى قال : « كان من الواجب أن تنال مزيدا من العلاج .. ان اعادتك الى الجبهة جريمة ! »

ولاحظت ـ ونحن نتجاذب الحديث ـ أن لهجته كانت مثقلة . واذ سألته عما به ، هتف : « **أن هذه الحرب تقتلنى .. أننى أعمل طيلة الوقت ، وأقوم بأعمال كل زملائى ، حتى أشغل بذلك عن التفكير .. أن هذه الحرب فظيعة .. تعال نسكر حتى نبتهج ! »**

ـ سأشرب معك كأسا ، ولكنى لن أسرف ، فان كبدى معتلة .

وقدم لى كأسا ، وهو يضحك قائلا : « سأحملك على الافراط ، حتي أنتزع كبدك الانجلوسكسونية ، وأعوضك عنها

بكبد ايطالية جيدة ، فأردك رجلا من جديد ! » .. لكم كنت أحب « رينالدى » ، بسبب هذه المداعبات ! .. وعاد يقول : « انك تبدو فى مسلكك كالمتزوجين ، فهل تزوجت ؟ » .. وهززت رأسى نفيا ، فهتف : « اذن فأنت عاشق .. أهى تلك الفتاة الانجليزية ؟ .. وهل تراها لطيفة معك ؟ »

وجلست الى جواره ، وقد بدأت أدرك سر التغير الذى الم به ! .. كان مثقل القلب والنفس ، لانه كان لايملك أن يكف عن التفكير فى الأوضاع التى كانت قائمة ، وفى الحرب ذاتها .. وكان يهرب من هذا التفكير فيلوذ بالعمل ،وبالشراب .. فكان الارهاق والادمان مصدرى خطر - فى الوقت ذاته - على أعصابه كجراح ماهر ، وكان يدرك ذلك .. كان يقول ، وهو ممسك بالكأس : « اننى أقضى على نفسى يوما بعد يوم .. ان الخمر تفسد المعدة ، وتجعل اليد تهتز ! »

وهبطت الى المقصف معه ، ولم يلبث « الميجر » أن أنضم الينا .. ثم أقبل القس ، فالتأم شملنا من جديد .. وشعرت بأننى كنت مشوقا الى الضجة التى تشيع فى جو المقصف ، والى مداعبات ثلتنا للقس الوادع ، الهادىء .. على أن « رينالدى » لم يلبث أن ثمل ، ونهض منصرفا الى دار الهوى المعدة للضباط !

* * *

• **ورافقنى** القس الى غرفتى ، عندما انصرفنا من المقصف .. كان هو الآخر مثقل النفس ، ولكنه كان يقاوم !.. كان عنف القتال - خلال الصيف الماضى - قد فتح أذهان الكثيرين ، فأبصروا بشاعة الحرب ! .. وسألته : « وما الذى تظنه سيحدث ؟ » . فقال : « سيكفون عن القتال ! »

- لا أعتقد ان الطرفين سيكفان عن القتال فى وقت واحد ..

من الذى فاز فى معارك الصيف ؟

ـ لم يفز أحد

ـ بل فاز النمسويون ، اذ صدوا الايطاليين عن (سان جابرييل) .. لقد فازوا ، ولم يقدر يوما لفائز أن يكف عن السعى !

ـ أتظن اذن أن الحرب ستظل مستمرة ؟

ـ لست أدرى، ولكننى أظن أن النمسويين لن يكفوا ماداموا منتصرين .. اننا لانرتد الى الله والى الانسانية الا عندما نكون مهزومين !

ـ كم من جندى يشعر بالإنسانية دون أن يكون قد هزم !

ـ ذلك لأنه هزم من البداية .. لقد غلب القوم على أمرهم يوم انتزعوا من حقولهم ليحشدوا فى الجيش . وهذا هو السر فى حكمة الفلاح وعقله .. انه مغلوب على أمره من البداية . أتح له السلطان والقوة ، ثم ابحث عن حكمته !

ولعله لمح ماكان بى من تعب ، من جراء الرحلة ، وأدرك اننى أتوق الى النوم ، فعجل بالانصراف !

وقدر لى أن أقضى الليلة التالية فى خط القتال .. كان القلق يشيع فى النفوس : هل يشن النمسويون هجوما ، أو ان الامطار قد تقعدهم ؟ .. وكانت الأمطار تتساقط .. ثم بدأت الثلوج تنهمر من وقت الى آخر .. وحوالى الساعة الثالثة صباحا ، أمطرنا النمسويون بالحمم والقذائف فترة ، ثم هدأوا .. وعلمنا أن قوات المانية انضمت اليهم ، فداخل الخوف نفوس رجالنا .. وشغلنا بنقل الجرحى الى مستشفيات الميدان .. حتى اذا انبثق ضوء النهار ، انقطع المطر . فواجهنا هجوما ثانيا ، ولكنه أخفق .. وعلمنا أن الأعداء اخترقوا الجزء الشمالى من خطنا ، وأخذوا يهاجمون الجزء الجنوبى .. وتعرض قطاعنا لهجوم جديد مع غروب الشمس ، فصدرت الينا الأوامر باخلاء مستشفيات الميدان . ومن ثم فقد شغلنا طيلة

النهار التالى فى نقل الجرحى . ثم يممنا شطر (جوريسيا) ، فألفيناها خالية .. وكانت ثمة سيارة نقل ، تحمل مومسات بيت الهوى الخاص بالجنود . ولم يكن ثمة أحد فى مقر قيادتنا، ولكنى وجدت رسالة كتبت لى بالطباشير على زجاج احدى النوافذ .. كان على أن أحمل المعدات الطبية - فى السيارات الثلاث التى ظلت تحت أمرتى - وان أتجه الى (بوردينونى) ، ولكن سائقى السيارات كانوا مكدودين .. بل ان « بيانى » - وهو أمهرهم - قال لى : « لقد غلبنى النعاس ثلاث مرات وأنا فى طريقى الى هنا ! » . فسمحت لهم بالراحة بضع ساعات

وكان الظلام يسود البلدة ، والمطر ينهمر ،عندما غادرناها .. وقد خلت الطرق ، أللهم الا من « طوابير » الجند التى كانت تمر خلالها فى انسحابها .. وكانت الطريق مزدحمة بالجنود ، وسيارات النقل الثقيلة ، والعربات التى تجرها الجياد ، والأهالى السائرين فى موكب الجيش المنسحب ، ينشدون مكانا آمنا ! .. لذلك رحنا نسير ببطء ، وما لبثنا أن توقفنا ، اذ سدت الطريق امامنا ..

وهبطت لارى ما هناك ، ثم عدت أتفقد سياراتى . ووجدت فتاتين فلاحتين الى جانب سائق احداها ، وقد جلستا جامدتين ، متيبستى الاطراف ، خائفتين .. واشتد بهما الجزع ، حين بدأ السائق يداعبهما ، ويتحسس فخذ كبراهما .. وأمسكت الصغرى بيد أختها ، وكأنها تشجعها ، ولكن هذه انفجرت باكية .. وصاح السائق : « اذن فلماذا صعدتما الى السيارة عند أول اشارة ؟! » .. وكانت صغرى الفتاتين تنظر اليه والى فى قسوة . وقال السائق للكبرى ، وهى ماضية فى البكاء : « لاتخافى .. لا خطر هناك من .. لامكان لـ .. » ، وكان فى كل مرة يلفظ كلمة قذرة مكشوفة . وأمعنت الفتاة فى البكاء . وحار السائق فى اسكاتها ، ثم خطرت له فكرة ، فهتف : « أعذراء هى ؟ » . وهزت الفتاة رأسها

مؤكدة ، فأشار الى اختها : « وأنت ؟ » ، فهزت هى الأخرى رأسها . واذ ذاك انصرف عن مغازلتهما

وتحولت أتابع سيرى .. كان الجنود يتقدمون ، بينما ظلت المركبات واقفة . وفكرت فى الفتاتين .. ليس للعذارى مكان فى أى انسحاب ! .. لقد كانتا عذراوين حقا ، ولعلهما تقيتان جدا .. لو لم تكن هناك حرب ، لكان كل انسان فى فراشه فى وقت كهذا .. ان « كاترين » ولابد فى فراشها ! ولعلها تفكر فى والرياح ممعنة فى هبوبها ، والمطر سادر فى هطوله . وتمنيت لو أن حبيبتى « كاترين » كانت فى أحضانى ، وفى فراشى مرة أخرى !

وأخرجنى من خواطرى صوت « بيانى » يعلن أن الطريق قد فتحت ، فقفزت الى السيارة .. وطلع النهار ، فتبينت ان كثيرا من الفلاحين كانوا قد انضموا الى موكب الانسحاب، وقد حملوا متاعهم ، وأثاثهم ، ودواجنهم .. وكانت ثمةعربات ريفية كثيرة .. وكلاب أيضا ! .. وظل المطر ينهمر ، والوحل يكسو الطريق .. وهبطت مرة أخرى ، ورحت أبحث عن مسلك فرعى ، تنطلق فيه سياراتى لتتخلص من بطء الموكب الذى كان يزحف على الطريق الرئيسية .. لو ان بعض الفلاحين تخلوا عن عرباتهم أو جيادهم ، لازدادت سرعة الموكب المنسحب . وما لبثت أن أصدرت أمرى لسائقى سياراتى ، كى ينحرفوا عن الطريق ، ويشقوا سبيلا خلال الاراضى الزراعية .

وانطلقنا فى شبكة من الطرق الجانبية ، حتى اذا حانت الظهيرة ، غاصت سياراتنا فى طريق موحلة ، على بعد عشرة كيلو مترات من (أودينى) . وقضينا وقتا طويلا نعالج الموقف ، حتى اذا وجدنا أن العلاج مستحيل ، قررنا أن نقطع بقية المسافة على الأقدام .. **وأخرجت من حافظتى ورقتين ماليتين من فئة العشر ليرات ، قدمتهما الى الفتاتين العذراوين ،**

وأمرتهما بأن تلحقا بموكب الانسحاب .. وقال أحد السائقين: « كم تعطيني لكى أنطلق فى نفس الاتجاه ؟ » .. ثم أردف : « أعطنى مائتى ليرة ، أمش مباشرة الى النمسا ذاتها ! »

وبلغنا طريقا تفضى الى النهر ، فاذا أرتال من السيارات والمعدات المتروكة ، ولا أثر لرجل واحد !.. ولاح لنا جسر على مسافة .. وسمعت طلقات من بعد ، فصحت : « يحسن أن نسرع بعبور الجسر قبل أن ينسف ! » .. وقال احد الرجلين : « ربما كان ملغما ! » فقلت : « سأتقدمكما واعبره .. ولن تبهظكم خسارة رجل واحد ، لو أنه نسف ! »

على أننا قبل أن نحاول عبور الجسر ، لمحنا رؤوسا فى خوذات فولاذية ، تتحرك فى الجانب الآخر .. كانوا من الألمان وليسوا من النمسويين ! .. وكان ثمة خط حديدى ، فسرنا بمحاذاته ، واذا به ينحرف جنوبا عن الطريق الرئيسية .. وصادفتنا قناة نسف جسرها ، ولكنا استطعنا أن نعبرها على أطلاله . وكنا نسمع أصوات طلقات ، فى الاتجاه المقابل لنا .. وانطلقت رصاصة نحونا ، فانبطحنا فى الوحل . وزحفنا فى حمى كثيب بمحاذاة النهر .. وانطلقت رصاصتان أخريان، فأصابتا — فى هذه المرة — واحداً منا . ولم نستطع اسعافه ، فمات !

وزحفنا حتى صادفتنا مزرعة ، فقررنا أن نقبع فى مخزن الغلال بها الى أن يهبط الظلام .. وكانت المزرعة خالية تماما ، حتى من الماشية !.. وكان من المستحيل أن يكون ثمة ألمان فى هذا الجانب ، ولكن الايطاليين كانوا خليقين بأن يصبحوا أخطر من الألمان ، لأن الخوف كان كفيلا بأن يجعلهم يظنوننا من هؤلاء فيطلقون النار علينا ! .. ومن ثم فقد كان المخزن أكثر الأماكن أمنا . وكنا نسمع أصوات المدافع الرشاشة طيلة الوقت ، تتردد فى الفضاء . وما لبثنا أن تسللنا الى قبو بيت المزرعة ، حيث عثرنا على « سجق » وعلى نبيذ .. **وفجأة ، فطنت الى غياب واحد منا ، فرحت أسأل عنه « بيانى » . وعند ما**

الحفت ، قال : « لقد ذهب .. أراد أن يكون أسيرا ، فقد كان خائفا من ان نقتل!» . وتناولت جرعة من النبيذ، وانا صامت، ثم سألته : « ولماذا لم تذهب أنت الآخر ؟ » . فقال بيانى ، وهو منهمك فى تقطيع (السجق) : « لم أشأ أن أتركك ! »

ونمنا بعض الوقت ، حتى اذا هبط الليل ، قمنا نواصل سيرنا .. وكانت ليلة عجيبة . ولست أدرى ماالذى توقعته فيها : الموت ، أو الرصاص فى الظلام ، أو الاضطرار الى الجرى ؟! .. ولكن شيئا من هذا لم يحدث . بل إننا كنا على مقربة من الالمان مرتين ، تحت المطر المنهمر ، ولكنهم لم يفطنوا الينا .. واستطعنا أخيرا أن نتصل بالفروع الرئيسية لموكب الانسحاب .. لم أكن قد فطنت من قبل الى ضخامة هذا الموكب ، فلكأنما ضم الريف بأسره ! .. وظللنا نسير طيلة الليل . وكانت ساقى تؤلمنى .. **وكانت الخواطر مهتاجة . وفى ذات مرة ، كان « بيانى » يخاطبنى بلقبى العسكرى ، واذا بصوت يصيح فى الظلام : « ليسقط الضباط ! » . فجرنى « بيانى » بعيدا ، وآثر أن يناديني باسمى مجردا .. وفى مرة أخرى ، كان بيانى يقول : « ليت الحرب تنتهى ! » ، واذا بجندى يهتف : « يحيا السلام ! » .. وصاح آخر : « الى الأهل ! » . وهنا همس لى بيانى : « انهم يلقون بنادقهم أثناء السير ، حتى لايستطيعوا الاندماج فى قتال ! »**

ومع النهار ، أقبلنا على جسر .. وتزاحم الجميع على عبوره ، حتى لقد وقفنا فى منتصفه طويلا لانملك أن نتحرك . وفكرت فى العاقبة لو أن طائرة ألقت على الجسر قنبلة . وكان ثمة ضباط وجنود ــ من البوليس الحربى ــ يتفرسون فى الوجوه .. ورأيتهم يجرون من وسط الجمع بعض الضباط . وحدق اثنان منهم فى وجهى ، ثم تقدم أحدهما فأمسك بخناقى . وسألته : « ماشأنك ؟ » ، ثم لكمته فى وجهه ، فتفصد الدم .. وأقبل آخر نحونا ، فمددت يدى لأنتزع

مسدسى ، وأنا أقول : « ألا تعرفون أن ليس لكم أن تمسوا ضابطا ؟ » . وتعلق الرجل بذراعى ، فرحت أضربه . وسمعت ضابطه يصيح : « أطلقوا عليه النار اذا قاوم ! »

واستطاعوا أن يزحزحونى عن الجسر ، فسألت الضابط : « من تكونون ؟ » .. كانوا من بوليس الميدان ، يتصيدون الضباط الهاربين من الجبهة .. وقادونى أخيرا الى جماعة من الضباط الذين تصيدوهم من وسط الجمع ، وراحوا يحققون معهم ، ويسألون كلا منهم : « ماالسبب فى أنك لست مع فصيلتك ؟ » .. وكان ثمة محقق راح يقول : «أمثالكم هم الذين مكنوا الهمجيين من تدنيس أرض الوطن!» . فانبرى له « يوزباشى » من المعتقلين وسأله : « هل اشتركت يوما فى انسحاب ؟ »

وكان المطر يتساقط .. ولم يكن ثمة مجال للتفاهم ، فسرعان ماصدر الامر باطلاق الرصاص على « اليوزباشى » بتهمة « تخليه عن جنوده » ! .. وفى وسط الهرج ، وبينما كان المحقق يسأل ضابطا آخر ، شعرت بأن الفرصة الوحيدة سانحة أمامى .. واندفعت فجأة بين جنديين ، ورحت أجرى وأنا منكس الرأس ، حتى بلغت النهر ، فقفزت اليه . وكان الماء باردا .. ومكثت تحته أطول مدة استطعتها ، ثم رفعت راسى فتنفست ، وعدت ثانية أغوص تحته .. وكان الرصاص يلاحقنى ، ولكنه لم يلبث أن انقطع .. ولمحت قطعة من الخشب على سطح الماء ، فأمسكت بها واحتميت خلفها ، حتى عثرت على قطعة أكبر تعلقت بها .. وأسلمت نفسى للتيار

***

• **وكان** الماء باردا ، وقد طفت على وجهه أشياء كثيرة .. ولقد كان من حظى أن عثرت على تلك القطعة الثقيلة من

الخشب ، فتعلقت بها ، وأرخيت عضلاتى مسلما نفسى للتيار ، حتى بلغت منطقة امتدت الحشائش عندها — من البر الى عرض الماء — فى أجمات كثيفة ، فجهدت حتى استطعت بعد لأى أن أتشبث ببعض حشائشها ، ثم صعدت اليها ، ورحت أسعى حتى بلغت أرض الضفة فارتميت عليها .. وبعد أن استرحت ، نهضت أتفقد المكان ، فحدست أننى فى مواجهة (سان فيتو) .. وعدت فخلعت ثيابى واعتصرت الماء منها . وكانت أوراقى وحافظة نقودى مخضلة بالماء ، ولكن شيئا منها لم يتلف . وأحصيت نقودى فكانت ثلاثة آلاف ليرة وبضع ليرات .. وعاد المطر ينهمر ، وشعرت ببرودة ، ولكننى رحت أضرب أطرافى وأفرصها ليجرى الدم فيها .. وسرت طيلة نهارى فعبرت السهل الفينيسى . وما لبثت أن صادفت قطارا للبضائع يسير ببطء ، لطوله وازدحام عرباته بالمعدات الحربية ، فقفزت اليه فى غفلة من الحراس ، واختبأت فى احدى العربات .. ولم أتكبد فى هذه المغامرة أكثر من جرح فى جبهتى ، غمر وجهى بالدم . ولكننى لم ألبث أن رحت أفرك هذا الدم حين جف ، واستعنت بماء المطر المنهمر على تنظيف وجهى .. ثم شعرت بجوع فظيع ، فاستلقيت على بطنى

وحاولت ألا أفكر فى « كاترين » ، خشية أن أجن ، اذ لم أكن واثقا من أنه سيقدر لى أن أراها ثانية .. ولكنى وجدتنى أفكر فيها — على الرغم منى — وأنا مستلق على أرض العربة الصلبة ، والقطار يسير ببطء ، ورنين وصلات العربات ينبعث فى أذنى .. وتمثلتنى راقدا معها على أرض العربة ! .. ثم رحت أستعرض موقفى ، وقد فقدت السيارات التى كانت تحت أمرتى ، ورجالها .. لم يعد هناك مايربطنى بحرب غير مضمونة العاقبة .. لم يعد ثمة التزام !.. وخلعت النجوم الدالة على رتبتى العسكرية ، ثم تمنيت أن أتخلص من الزى كله .. لم يكن فى ذلك مايمس الشرف ، فأنا لم أنقلب ضد الايطاليين ،

ولكننى نفضت يدى منهم ، متمنيا لهم كل توفيق .. لم يكن لى فى قتالهم أية مصلحة ، ولا أى مبعث للزهو أو الفخر !

وراح الحنين الى كاترين والى الأكل والشرب والنوم يعذبنى، وأنا ألصق بطنى بأرض العربة الصلبة !

الجزء الرابع

• **وتسللت** مغادرا القطار فى (ميلان) ، ثم دلفت الى حانة تناولت فيها قدحا من القهوة الساخنة ، وقطعة من الخبز .. وحاول صاحبها أن يستدرجنى ، فلما أظهرت له عدم الميل الى الكلام ، قال : « أرى أنك فى مأزق ، وعندى مأوى لمن هم فى مآزق دائما » . فقلت : « ولكننى لست فى مأزق ما ! » .. وكان رده : « أمتأكد أنت ؟ .. اذن فلا تمش فى هذه السترة، اذ أن مكان النجوم واضح على كميها ! »

وسعيت الى المستشفى ، متحاشيا الطرقات المزدحمة بالجنود .. وهناك ، استقبلنى البواب وزوجته بترحاب بالغ، وكأننى ابن كان غائبا عنهما . ومنهما علمت أن « كاترين » و « مس فيرجسن » قد رحلتا الى (ستريزا) قبل يومين . وانصرفت الى مسكن صديق لى أمريكى كان يدرس الموسيقى فى (ميلان) .. ولم يحاول أن يسألنى عن موقفى أو مأزقى ، بل انه أعارنى بعض ثيابه المدنية .. ولكم شعرت بأننى غريب عن تلك الثياب ، فقد ألفت الزى العسكرى طويلا !

ودفعت عنى الثياب المدنية كل الشكوك ، فوصلت الى (ستريزا) بسلام . ويممت لفورى شطر أكبر فنادقها (ايل بوروميه) ، فاستأجرت غرفة واسعة ، ذات موقع جميل ، معلنا أن زوجتى لن تلبث أن تلحق بى . وبعد أن اغتسلت ، هبطت الى مشرب الفندق .. وكان الساقى يعرفنى – مذ قضيت شطرا من عطلتى هناك – وقد رحب

بى كل الترحيب ، لاسيما حين علم أننى كنت أقضى فترة للنقاهة .. وبعد أن تناولت بعض الكؤوس، سألته أن يستعلم لى عن ممرضتين انجليزيتين هبطتا البلدة منذيومين .. وغاب برهة ، ثم عاد فذكر لي انهما كانتا تنزلان فى فندق صغير بجوار محطة السكة الحديدية

وما كان أحلى اللقاء مع « كاترين » مرة أخرى ! .. ولقد ثارت «مس فيرجسن» على، وراحت ـ بتزمتها الاسكتلندى ـ تنهال على رأسى تقريعا ، لما سببته لكاترين من متاعب ، اذ تماديت فى علاقتى بها ، حتى أصبحت تحمل فى احشائها جنينا، دون ان يربطنا زواج !

ومع ذلك فقد انتقلت « كاترين » الى فندقى ، وشاطرتنى غرفتى .. وكانت ليلة عذبة بهيجة ، رغم المطر الذى ظل ينهمر طيلة الليل .. وكنا نغفو ، ثم لانلبث أن نستيقظ معا ، فلم يشعر أحدنا بأنه وحيد .. لقد كان بوسعنا أن نشعر ـ عندما نكون معا ـ باننا وحيدان ، ولكن .. بالنسبة للعالم !

وكانت الليلة التالية من الليالى المطيرة العاصفة ، حتى لقد اغتصبت الريح نافذة الحجرة ، وتدفق المطر خلالها .. واستيقظت على طرقات خفيفة على باب الحجرة ، فسرت الى الباب بخفة، لأجد ساقى الفندق بادى الاضطراب .. وبادرنى قائلا : « هل أستطيع أن أحدثك عى انفراد ؟ »

وكانت الغرفة مظلمة ، وليس من مكان أختلى به فيه ، اذ كانت « كاترين » نائمة ، فدعوته الى الحمام .. وهناك أفضى الى بأن هناك من ارتاب فى أمرى ، وأنا فى الملابس المدنية ، وكان قد رآنى من قبل فى الزى العسكرى ، فوشى بى الى السلطات ! « ولسوف يلقون القبض عليك فى الصباح ! » .. ونصحنى بأن أهرب الى سويسرا ، وعرض على أن أنطلق فى قارب كان يمتلكه

ـ ولكن هناك عاصفة !

– ان العاصفة قد انقضت .. ومع أن الريح شديدة ، الا أنها مأمونة

وأيقظت « كاترين » ، فأوضحت لها الأمر فى اقتضاب . وسرعان ما ارتدت ثيابها ، فحمل الساقى حقائبها وحقيبتى وتسلل بها خلال سلم الخدم ، بينما هبطت مع « كاترين » الى البهو ، فاذا حارس الفندق مستيقظ . وحملق فينا الرجل مذهولا ، وتساءل : « أتخرجان الآن ؟ » . فقلت : « أجل ، فنحن مشوقان الى أن نرقب أثر العاصفة على البحيرة ! » .. وتطوع باعارتنا مظلة كبيرة ، فنفحته بعشر ليرات ، وانطلقنا .. وعند مرساة للقوارب ، على ضفة البحيرة ، كان الساقى فى انتظارنا وقد أعد زورقه ونقل اليه الحقائب .. وكان الظلام دامسا . وسألت الرجل : « أحب أن أدفع لك ثمن زورقك ! » . فأجاب : « تستطيع أن ترسل الى ماتشاء ، فيما بعد » . ودفع الى ببعض الشطائر ، وبزجاجتى خمر ، وأخذت كاترين تشكر له هذا الكرم ، فأجابها بصراحة : **« عفوا ياسيدتى ، انما يسرنى أن أساعدكما ، لاننى لا أحب أن أزج بنفسى فى مآزق متعبة ، اذا ماقبضوا على السيد فى الفندق! »**

وراح يشرح لى الطريق .. ولم يكن ثمة ابهام ، بل كان يكفى أن أنطلق فى خط مستقيم .. وقال : « انك لن تغدو فى سويسرا حتى تجتاز جبل (تمارا) ، وتصل الى (بريساجو) ! » .. وكانت الساعة الحادية عشرة مساء ، فقال : **« اذا ظللت تجدف طيلة الوقت ، فستصل الى هناك فى الساعة السابعة صباحا .. فان المسافة خمسة وثلاثون كيلو مترا ، وليس عليكما سوى ان تنطلقا مع اتجاه الريح »**

وما أن أستقر بنا المقام فى الزورق ، حتى دفعه بنا الى عرض الماء .. وأعملت المجدافين ، فسرعان ما أوغلنا فى البحيرة .

ورحت أجدف فى الظلام ، وقد انقطع المطر وظهر القمر ، وظلت الريح تهب قارسة .. ولم أشأ أن أجد فى التجديف ،

بل رحت أستعين بالريح ، مرجئا الجهد الى مابعد .. وكان الزورق خفيفا ، والريح قوية ، فلم أحتج الى أكثر من دفعات خفيفة بالمجدافين .. ولكننى لم ألبث أن نشطت فى التجديف ، وكدنا نرتطم ببعض ألسنة صخرية ، أكثر من مرة ، فقدكنت أحرص على أن لانبتعد كثيرا عن الشاطىء ، حتى لانضيع الوقت اذا ضللنا الطريق فى عرض البحيرة .. وحاولت «كاترين» أن تجدف عنى مسافة، ولكننى أبيت، اشفاقا عليها وهى حبلى، **فلما برح بى التعب ، اقترحت أن ننشر المظلة ـ التى أعارنا البواب اياها ـ لتكون كشراع ، ففعلت . وأمسكت بطرفين منها ، فسرعان ما ملأها الهواء ، واذا الزورق ينطلق خفيفا ، سريعا ، بينما أمسكت ((كاترين)) الدفة ، وقبضت على أحد المجدافين لتساعد على بقاء الزورق فى اتجاهه المستقيم ، حتى اذا عادت الأمواج الى الاضطراب ، طويت المظلة ، لأعود الى التجديف** . ولكن « كاترين » أصرت على أن أتناول أولا بعض الشطائر ، وبضع جرعات من الخمر .. وكان القمر قد عاد يتوارى بين السحب .. وفعلت هذه الراحة القصيرة ـ مع الاكل والشراب ـ فعل المعجزات ، فأقبلت أجدف بقوة .

وقطعنا حوالى ثلاثة أرباع المسافة ، ثم صادفنا بعض أنوار على الشاطىء ، فآثرت ان أوغل فى عرض البحيرة ، فقد أصبحنا معرضين لأن نصادف حرس السواحل .. ولاح ـ فى الظلام ـ جبل (تمارا) ، فأدركت أننا اقتربنا من غايتنا .. وكان على أن أتجاوز الجبل بحوالى ثمانية كيلو مترات ، قبل أن أطمئن الى أننا فى المياه السويسرية . وعادت « كاترين » تقترح ان تتولى هى التجديف ، فقبلت ، واستلقيت فى استرخاء .. ثم تناولت بضع جرعات من « البراندى » ، فسرعان ما دبت فى جسمى بوادر الحمية والنشاط من جديد!.

وكانت الريح قد فترت ، اذولجنا منطقة أشرفت فيها



الجبال على الشاطئ .. وأدركت ان النهار وشيك الانبلاج ، فأقبلت أجدف بشدة . ولكننا لم نلبث أن سمعنا خفقان محرك بخارى ، فأدركنا أن ثمة قاربا لحرس السواحل، وأسرعت الى عرض البحيرة ، حيث رحت أجدف حوالى ثلاثة أرباع الساعة ، وقد عاد المطر ينهمر .. ثم عدت اقترب من الشاطئ ..

وانقطع المطر .. وما لبث النهار أن بزغ ، وصحبه رذاذ خفيف .. وأيقنت من أننا بتنا فى (سويسرا) ، فقد لاحت بيوت كثيرة بين الأشجار ، على مبعدة من الشاطئ .. كما بدت على مسافة منا ، قرية لها طابع القرى السويسرية . وكانت قرية من قرى صيادى الأسماك . لذلك رحت أجدف بشدة حتى بلغنا البر ، فرسوت بالزورق بين زوارق الصيادين ، ثم ساعدت كاترين .. ووطأت أقدامنا أرض (سويسرا) !

* * *

• **وبدا** لنا كل شيء جميلا .. حتى المطر . وولجنا المقهى ــ الذى رأيناه من قبل ــ فطلبنا فطورا . وما ان غابت ربة المكان لتحضر ماطلبنا ، حتى ملت فقبلت كاترين ، وشددت على يدها بقوة .. وراح كل منا يتأمل الآخر .. وهتفت كاترين : « أواه يا حبيبى .. أليس كل شيء جميلا ؟ » ..

وقلت لها : « أعتقد أنهم لن يلبثوا ان يلقوا القبض علينا » . فأجابت : « لا بأس ياحبيبى .. لنتناول الفطور أولا ، فليس فى

وسعهم أن يفعلوا بنا شيئا ، لاننا بريطانية وأمريكى ! »

وألقوا القبض علينا بعد الفطور ، واقتدنا الى مركز الجمارك بالبلدة ، حيث أطال ضابطه فحص جوازى سفرنا ، ثم قال : « لماذا دخلتما سويسرا بهذه الطريقة ؟ » . فأجبت : « اننى رياضى ، مشغوف بالتجديف » .. فعاد يسأل : « ولماذا جئتما ؟ » . وكان ردى : « للاستمتاع برياضة الشتاء .. اننا سائحان . وأنا أدرس الهندسة المعمارية ، وابنة خالى تدرس الفن » .. ومرة أخرى ، عاد يسأل: « لماذا غادرتما ايطاليا ؟ »، فأجبت : « أردنا أن نستمتع برياضة الشتاء ، فليس فى الامكان دراسة هندسة ولا فن والحرب دائرة ! » .. **وحمل الضابط جوازينا ، وغاب فى غرفة أخرى ، ثم عاد يقول : « سأرسلكما الى لوكارنو فى عربة ، وبرفقة أحد الجنود ! »**

وقبل أن ننصرف ، سألنا عما كان معنا من نقود .. وكان مجموع ما معنا ثلاثة آلاف وسبعمائة ليرة . واذ ذاك ، تخلى الضابط عن صلابته ، وقال : « اذا كنتما تريدان الاستمتاع برياضة الشتاء ، فان (ونجن) هى خير مكان .. وأبى يمتلك فندقا هناك » !!

ورافقنا الجندى ـ فى العربة ـ الى(لوكارنو)، فلم نصادف هناك متاعب تذكر .. كان كل منا يحمل جواز سفر صحيحا ، وكنا نمتلك نقودا ، ومن ثم فقد منحنا اذنا مؤقتا بالاقامة !

الجزء الخامس

• **وأقبلت** الثلوج متأخرة فى ذلك العام . وكان الكوخ (الشاليه) الذى أقمنا فيه ، ذا موقع بديع .. كان بوسعنا ـ ونحن نتناول الفطور فى السرير ـ أن نشهد البحيرة ، والجبال القائمة على ضفتها الفرنسية ـ عبر المياه المتألقة ـ والغابة

بأرضها اللينة الطرية ، اذ لم يكن الصقيع قد جمد بعد .. وأمام الكوخ مباشرة ، كان الجبل ينحدر وئيدا نحو السهل الصغير ، محاذيا للبحيرة . وكانت ثمة جزيرة تتوسطها شجرتان كأنهما شراعا مركب صيد صغير .. وخلف الطرف الأقصى للبحيرة ، انبسط وادى (الرون) بين سلسلتين من الجبال . فاذا كنا فى البيت ، كنا نقضى الوقت فى القراءة ولعب الورق .. أو نأوى الى الفراش ، فقد كنا نلوذ بالنوم كثيرا ، وقد لاح لنا أن الحرب كانت جد بعيدة عنا .

وكنا ننحدر على الجبل أحيانا الى (مونترو) ، فنسير على ضفة البحيرة ، نرقب البجع والطيور المائية ، أو نجوس خلال طرقات البلدة ، نتأمل نوافذ المتاجر .. وقد تذهب « كاترين » الى الحلاق — كى يصفف شعرها — فأنتظرها فى المشرب

وكان الجنين ينمو نموا حسنا فى أحشاء « كاترين » ، وقد طمأننا طبيب البلدة الى سلامة كل شىء .. وقلت يوما لكاترين: « أرى من الخليق بنا أن نتزوج ، مادمنا سنحظى بهذا الطفل ». ولكنها أجابت : « لا ، لقد تضخم بطنى ، ولن أقبل أن أتزوج بمرأى من الملأ ، وأنا فى هذه الحال ! .. وما الذى يضايقنى من هذا الوضع ؟ ان المرة الوحيدة التى شعرت فيها بأننى كالمومسات ، كانت ونحن فى (ميلان) ، ولم تدم لأكثر من سبع دقائق ! .. لقد أنبأت الطبيب بأننا تزوجنا منذ أربع سنوات ، وهذا يكفى .. ألا ترى أننى سأصبح أمريكية اذا ما تزوجتك ، والقانون الأمريكى يعترف بشرعية الطفل فى أى وقت يعقد فيه زواجنا ؟ »

وبدأ الجليد ينهمر قبل عيد الميلاد بثلاثة أيام .. ومكثنا فى سريرنا — فى ذلك اليوم — والنار تتأجج فى المدفأة .. وتمنت « كاترين » لو انها استطاعت ان تتزحلق على الجليد ، ولكن الحمل كان يعوقها ، ويضطرنى انا الآخر للمكث بجوارها وجلسنا الى المدفأة بعد العشاء — فى مساء ذلك اليوم —

فسألتنى كاترين بغتة : « ألا تحب أن تقوم برحلة الى مكان ما ، وحدك ، وأن تختلط بالرجال ، وتتزحلق على الجليد ؟ .. اننى أخشى أحيانا أن تكون مشوقا الى أن ترى غيرى من البشر ! » .. فهتفت : « ولماذا ؟ .. لست أريد أن أرى سواك ! » . فعادت تسألنى : « أو لاتشعر بضيق لأنك لاتمارس عملا ما ؟ »

ــ لا ، بل أننى أحب هذه الحياة .. ألست تحبينها ؟

ــ بلى .. ولكننى ــ وقد تضخمت ــ أخشى أن تثقل صحبتى عليك

ــ أواه ، ياكات ! .. انك لاتدرين مدى تهوسى بهواك !

وكان الجليد سادرا فى الانهمار .. وقضينا السهرة نلعب بالشطرنج ! ولم ينتصف شهر يناير ، حتى كانت لحيتى قد نمت بشكل بديع ، تحقيقا لرغبة « كاترين » .. وكان البرد قد اشتد ، وتراكم الجليد فى كل مكان ، ولكن شيئا من هذا لم يكن يثنينا عن جولاتنا على الأقدام .. وكانت كاترين لاتفتأ تسألنى : **« ألا تهفو نفسك الى رؤية الناس ياحبيبى ؟ »** فأجيبها بالنفى .. وتعود فتسألنى : **« ألا تخشى أن تباعد طفلتنا بيننا ؟ » . وأجيبها :** « لا ، لن نسمح لها بذلك ! »

ــ وما موقفنا من الناحية المالية ؟

ــ لدينا الكثير .. وبوسعنا أن نطلب المزيد من جدى

ــ ألن يحاول أهلك أن يستردوك بعد ان عرفوا انك فى سويسرا ؟

ــ سأكتب اليهم شيئا عن أمرنا .. فاننى لم أكتب اليهم الا عن حاجتى الى المال .. لنكف عن الحديث عنهم !

كان القلق يساورها أحيانا من أن أملها أو أضيق بها ، لاسيما وهى تتقدم فى حملها .. ولكننى كنت ازداد جنونا بها ! .. ومضت الحياة بنا فى موكب جميل ، حتى اذا أقبل شهر مارس ، أقبلت معه الأمطار الغزيرة ، واقترب موعد الوضع ، فرأينا أن ننتقل الى (لوزان) ، لنكون بقرب المستشفى ،

ولنبتاع الثياب للطفلة المرتقبة .

* * *

• **وبعد** منتصف ذات ليلة ــ وقد قضينا ثلاثة أسابيع فى لوزان ــ أتى المخاض «كاترين» ، فأسرعت أتصل بالطبيب ، فأمرنى بأن أبادر بنقلها الى المستشفى .. ولم يكن النهار قد أنبلج تماما ، حين غادرنا الفندق . **وقالت كاترين : « لكم أنا مسرورة .. لن يمضى سوى وقت قصير ، ثم ينتهى كل شىء ! .. اننى لست خائفة ! » . فتمتمت مشجعا : « أنك لشجاعة جريئة يافتاتى ! »**

ولم تنقض سوى دقائق ، حتى كانت« كاترين » فى سريرها ، فى المستشفى ، والى جوارها ممرضة تجس نبضها ، وتتعرف مدى الفترات التى كانت تشعر فيها بأوجاع الوضع .. وكنت أشعر بالقلق ، بينما كانت« كاترين » تبتسم رغم الآلام التى كانت تتبدى على وجهها .. ولم تلبث أن قالت : « اذهب فتناول بعض الطعام ، فأنا بخير ! » .. وتلكأت ، حتى اذا اشتدت عليها نوبات التوجع ، ألحت فى أن أنصرف .. وكان ثمة مقهى على مقربة من المستشفى فسعيت اليه ، وتناولت كأسا من النبيذ ، وكعكة ، ثم قدحا من القهوة .

وعندما عدت الى المستشفى ، كانت « كاترين » قد نقلت الى قاعة الولادة ، فأسرعت الى هناك .. ورأيتها مستلقية على منضدة ، والى جوارها بعض أنابيب ، بينما كان الطبيب عافكا على فحصها . وألبستنى ممرضة مرولة بيضاء قبل أن ألج القاعة . وبادرتنى كاترين فى قلق : « أواه يا حبيبى ! .. اننى لا أقوى على بذل جهد يذكر ! » .. وقال الطبيب : « لا تقلق .. انما انتقلنا الى هذه القاعة ، ليسهل تخديرها كلما اشتد بها الألم ! »

وأخذت الأوجاع تتناوبها فى قسوة ، حتى لقد كانت تتلوى

وتصرخ ، فتبادر الممرضة بوضع قناع الغاز المخدر على وجهها .. وكانت تلتفت الى – بعد كل نوبة – فتبتسم وتقول: « كانت هذه النوبة شديدة ! .. أذهب فتناول فطورا ثانيا ياحبيبى ! » . ولكننى أصررت على البقاء

وانتصف النهار و « كاترين » لاتزال فى قاعة الولادة ، وقد عاد تردد نوبات الوجع الى الابطاء .. وكانت تحاول جاهدة أن تبدو مرحة أمامى .. وكانت تربت معصمى أحيانا ، وتتمتم وهى تبتسم : « ما أحلاك ياحبيبى ! .. أننى أحاول ما استطعت .. أحاول أن أدفع الجنين ، ولكن الجهد لا يلبث ان يفتر ! » .. وبدأ الانهاك يستولى عليها !

وخرجت فى الساعة الثانية ، فتناولت بعض الغداء والبيرة ، ثم عدت الى المستشفى . وكان باب القاعة مغلقا ، فطرقته .. ولما لم أتلق جوابا ، أدرت مقبضه ، فانفتح .. وكان الطبيب يجلس على مقعد ، وكاترين لاتزال على المنضدة . وقال لها : « ها هو ذا زوجك ؟ » . **فقالت فى صوت غريب : « أواه يا حبيبى ! .. اننى لن أموت ، فقد تجاوزت المرحلة التى كان يجب ان أموت فيها .. ألست مسرورا لذلك ؟ .. ومع ذلك ، فانا لست خائفة .. لن أموت يا حبيبى ! » . فقال الطبيب : « انك لن ترتكبى حماقة كهذه ، فتموتى وتتركى زوجك وحيدا ! » . فهتفت: « لا ، لن أموت .. من الغباء أن أموت .. ها هو ذا الألم يعود .. أعطنى المخدر ! »**

وأمرنى الطبيب – بعد برهة – بأن أغادر القاعة ، على أن يدعونى عندما يرى الظرف مناسبا .. ومكثت فى الغرفة التى كانت مخصصة لكاترين .. وانقضى وقت ، ثم بدأ الظلام يهبط ، فعجبت من أن الطبيب لم يدعنى .. أواه ، ياكات ! .. أهذا هو الثمن الذى تدفعينه لقاء نومنا معا ؟ ! .. أهذه هى نهاية اللعبة ؟ ! .. أمن أجل هذا يتحاب الناس ويتضاجعون ؟ .. لقد قضت « كاترين » أشهر الحمل فى خير حال ، فلم تمرض

ولا أحست بتعب يذكر .. ولكن ، ماذا يحدث لو أنها ماتت ؟ .. لا ، لن تموت ! .. ولكن ، ماذا لو انها ماتت ؟ .. لا ، كل ماهنالك أن الوضع بطىء ، وأنها تجتاز أزمة مؤقتة !.. ولكن ، ماذا لو أنها ماتت ؟

وراح السؤال يلح على ذهنى باصرار بغيض ، الى أن أقبل الطبيب ، فعلمت منه أنها لم تحرز تقدما يذكر ، واقترح أن يجرى لها العملية « القيصرية » ، فأذنت له ، وأهبت به أن يسرع ما استطاع . ثم هرعت الى قاعة الولادة ، **فاذا « كاترين » مسجاة ، وقد أصبح وجهها فى بياض الغطاء المسبغ على جسمها ، وتبدى عليها الانهاك .. وعاودها الألم قاسيا فظيعا ، فلم يعد المخدر يخفف من وطأته ، حتى انها راحت تتلوى وتجهش بالبكاء .. وأخذت أشجعها ، فتمتمت : « لم أعد شجاعة يا حبيبى ، لقد تحطمت ! .. اننى لن أموت يا حبيبى .. أليس كذلك ؟ »**

ـ ليس بوسعك أن تموتى .. لن أدعك تموتين !

وما لبث ان أقبل طبيب آخر ، انضم الى الأول .. ثم نقلت « كاترين » الى قاعة العمليات .. وراح كل امرىء يجرى ، ويسرع ، ثم أغلقت الأبواب .. وظللت واقفا فى الردهة الخاوية ، وعيناى لاتبرحان أبواب القاعة .. والمطر ينهمر فى الخارج .. وأنقضى وقت ، ثم خرج من القاعة طبيب وممرضة ، يحملان شيئا دخلا به غرفة أخرى .. وأسرعت خلفهما .. كانا يحملان الوليد ، وقد أمسكه الطبيب من قدميه ، وراح يضرب جسمه . ولم أشعر نحوه بأى شعور .. وقال الطبيب : « أنه ولد رائع ! » .. وسألتنى الممرضة : « ألست فخورا به ؟ » . **فقلت : « لا ، لانه كاد يقضى على أمه ! »**

وعدت الى الردهة ، ثم الى باب قاعة العمليات ، فوقفت عنده .. وخيل الى أن « كاترين » قد ماتت ، فهكذا كانت تبدو ، اذ كان وجهها مغبرا قاتما ، وكان ثمة طبيب يخيط

قطعا فى بطنها ، بينما كان ثمة طبيب آخر ممسكا بقناع الغاز المخدر .. وبعد برهة ، فرغ الطبيب الأول من مهمته ، فسألته عن حالها .. وأجاب : « أنها بخير ! » . وسرعان مانقلوها على محفة ، فجريت بجوارها .. وكانت تئن . وعندما أسلموها الى سريرها ، جلست على مقعد عند قدميها . ثم نهضت ، فسرت الى رأس السرير . ومدت يدا واهنة ، وهتفت فى صوت ضعيف مكدود : « أواه ياحبيبى ! .. هل رأيت ، الطفل ؟ » . ونبهتها الممرضة الى أنها يجب ألا تتكلم ، بينما قلت : « انه كبير ، وجميل ! »

وكانت الحجرة معتمة .. وتمتمت كاترين : « لشد ما أنا متعبة ! » . وهممت بأن أتكلم ، ولكن الممرضة أصرت على أن أغادر الحجرة .. وفى الردهة ، علمت أن الوليد قد مات ، اذ أن الحبل السرى كان قد التف حول عنقه أثناء الوضع .. ومكثت وحيدا فى الردهة المعتمة .. اذن فقد مات الطفل ؟ ! اذن فلماذا كان الطبيب والممرضة يعالجانه ؟ .. لعلهما كانا يتمنيان أن يعود الى التنفس ! .. ولكنه كان سليما فى أحشاء « كاترين » ، وكان يتحرك ويركل ! .. والآن ، هل تموت كاترين ؟ !

وأرهفت السمع ، فلم يواتنى صوت من غرفة كاترين . وفتحت الباب ، فاذا الظلام يزحف على المكان .. وكانت الممرضة تجلس بجوار السرير ، فسألتها : « كيف حالها ؟ » . وأجابت « أنها بخير .. تستطيع أن تذهب فتتناول عشاءك ، ثم تعود اذا شئت ! »

* * *

• **وكان** الظلام يسيطر على الشارع ، والمطر ينصب دافقا . وأسرعت الى المقهى ، فتناولت بعض الطعام والبيرة ، ثم شعرت بأننى لا أطيق بقاء ، فأسرعت الى المستشفى ، تحت وابل المطر .

وعندما بلغت الردهة المفضية الى غرفة « كاترين » ، صادفت المرضة .. وبادرتنى قائلة « لقد سألت عنك فى الفندق ! » .. وغاص قلبى بين جنبى ، وهتفت : « ماذا جرى ؟ »

— لقد أصيبت زوجتك بنزيف !

ولم تدعنى أدخل الغرفة .. فعدت أسألها : « أهناك خطر ما ؟ »

— ان الحالة جد خطيرة !

وتركتنى ودخلت الغرفة ، وأوصدت الباب .. وشعرت بأن كل قواى قد فارقتنى .. حتى عقلى لم يعد يقوى على التفكير .. لقد كنت أدرك أنها ستموت ! .. ورحت أصلى ، وأهتف : « **لاتدعها تموت ! .. أرجوك يارب ! .. لاتدعها تموت ! .. سأفعل كل شىء من أجلك اذا هى لم تمت ! .. يا الهى العزيز ، أرجوك .. أرجوك .. لقد أخذت الطفل ، فلا تأخذها هى !** »

وفتحت المرضة الباب ، وأشارت الى ، فتبعتها .. وكانت كاترين مسجاة ، جامدة .. وأنحنيت على الفراش وأنا أبكى ، فتمتمت : « **ياحبيبى المسكين .. لسوف أموت !** »

— بل أنك بخير يا حبيبتى .. اننى موقن من ذلك!

— لست خائفة .. ولكننى أكره الموت !

وابتسمت فى عناء ، بينما كان الطبيب يوصيها بأن لاتسرف فى الكلام . ولكنها عادت تقول : « **انك لن تفعل مع أية فتاة أخرى مافعلته معى .. ولن تقول لها ماكنت تقوله لى .. أليس كذلك ؟ .. ولكننى أريدك على أن تهنأ مع الفتيات ، رغم ذلك** »

وعاد الطبيب يناشدها أن لاتسرف فى الكلام ، ثم أمرنى بالخروج .. فقالت كاترين : « **لاتبتئس ياحبيبى .. سأوافيك فى الليالى لأمكث معك ! .. لست خائفة !** »

ودفعنى الطبيب الى الخارج ، فمكثت طويلا أنتظر . ثم خرجت المرضة من الحجرة ، فسألتها عن الحال .. وأجابت:

« أنها جد خطيرة ! » .. وسألتها فى لهفة : « أصدقينى .. هل ماتت ؟ » . فأجابت : « لا ، ولكنها فاقدة الوعى ! » .. كانت كل الجهود قد أخفقت فى ايقاف النزيف ، وأصبحت « كاترين » فى غيبوبة مستمرة .

ومكثت الى جوارها ، حتى لفظت آخر أنفاسها !

وعندما غادرت الحجرة ، قال لى الطبيب : « هل أرافقك الى الفندق ؟ » .. فرفضت فى جفاء . وعاد يقول : « لم تكن ثمة حيلة .. لقد كانت .. » فقلت : « لا أريد حديثا ! » . وابتعد الطبيب ، فعدت الى الحجرة .. وكانت ثمة ممرضتان ، فقالت احداهما : « ليس لك أن تلج الآن » . ولكننى صحت : « بل أخرجى أنت .. والأخرى ! »

وأوصدت الباب ، وأطفأت النور .. لكأنما كنت أودع تمثالا جامدا !

وخرجت بعد برهة ، فغادرت المستشفى ، ورحت أسير .. تحت المطر المنهمر !

—✻—

ثقافة الأديان



أصحاب العقائد والرسالات

عزيزى القارىء :

لما كانت رسـالة « كتابى » تستهدف تعميم الثقافة الرفيعة بجميع أنواعها ، ولما كانت الثقافة الدينية من أول أسس الحضارة البشرية والتاريخ الانسـانى ، فقد رأيت أن أقدم لك فى هذا الباب دراسات شاملة لسير أصحاب الوحى من دعاة العقائد والاديان ، ولسير أنبياء الصف الثانى . . على أن أتبعها فى فرصة قريبة بمجموعة مكملة لها من القصص الانسانية التى وردت فى كتب الاديان نفسها ، أى من قصص التـوراة والانجيـل والقرآن .

وقد قدمت لك فى هذا الباب ، فى الاعداد السابقة : قصة حياة موسى ، وقصة حياة المسيح ، وقصة حياة محمد . .

كما قدمت لك قصة أبى بكر الصديق ، وأقدم لك اليوم : سيرة القديس بولس



القديس بولس

رجل الدين الذى رفع من قيمة النفس البشرية
ودعا إلى المساواة والديموقراطية والتضامن الاجتماعي

إقتبس هذا الرسم عن لوحة « القديس بولس فى ايفيس » للرسام « لوسيور » ، وهي محفوظة بمتحف اللوفر

الدين والدنيـا معا .. !

• قد تختلف الاديان في طقوسها وبعض تفصيلاتها وتعاليمها ، ولكن الذى لاشك فيه هو أن الرسل والانبياء وتلاميذهم ليسوا مجرد دعاة دينيين فحسب ، اذ انه لامجال للدين ما لم يكن ثمة مجتمع ، وما لم يهيأ هذا المجتمع للسمو الذى يدعو اليه الدين .. ولقد نجد بعض الزعماء والقادة الدينيين مسرفا في التصوف والاستغراق الروحى .. ولكن بعضهم - من ناحية أخرى - يعتبرون أئمة للاصلاح الخلقى والاجتماعي والسياسى ، ولهم فى هذه المجالات تعاليم ومبادىء تتناقلها الاجيال ، الى يومنا هذا .

واذا ذكر هؤلاء المجاهدون الابطال ، فان القديس « بولس » يأتى بين قادة الصف الاول منهم .. وعلى هذه الأسس قام الزميل « محمد بدر الدين خليل » بدراسة هـذه الشخصية ، من عدة مصادر .. أهمها :

١ - « سير حية » (زعماء دينيون) للمؤرخين العالميين « هنرى توماس ودانا لى توماس »

٢ - « القديس بولس » : للمؤرخ والناقد الانجليزى « جون كاوبر بويز »

٣ - « الكتاب المقدس » (العهد الجديد) : سفر « اعمال الرسل » و « رسائل بولس الرسول » .

• كان اسمه الأصلى « شاول » ، ولكن والديه أطلقا عليه اسم « بولس » من قبيل العطف ، لصغر جسمه .. على أنه عوض ضآلة جسمه بذكاء خارق .. وقد ولد - فى السنة الثانية بعد ميلاد المسيح - فى أسرة من أغنى أسرات اليهـود « الفريسيين » ، اشتهر أبناؤها بالتفقه فى الشريعة اليهـودية « الناموس » ، فى مدينة (طرسوس) التى كانت مركزاً لصناعة الصوف فى العالم القديم .. ومن ثم نشأ الصغير وهو على معرفة واسعة ، لم تقتصر على الدراية بـ « ارادة الله » فحسب ، وانما شملت أيضا دراية بأمور البشر .

ولقد قيدت تربية « بولس » بما كان مفروضا على التربية من قيود ، فى مجتمع يهودى شديد التعلق بالناموس والتقاليد

الدينية ، وان قدر له أن يصيب قسطا وافرا من الالمام بالآداب والفلسفة الاغريقية .. حتى اذا بلغ الخامسة عشرة من عمره، الحق بمعهد الحاخاميين - أو المعهد التلمودى - فى (أورشليم) حيث كان النشء العبرانى يتفقه فى أحكام التلمود وتعاليم الشريعة اليهودية . وفى تلك الفترة بالذات ، أخذ يتعلم صناعة النسيج ، فحذقها قبل أن يفرغ من دراسته فى المعهد .. وكان فى ذلك مسوقا بما ورد فى التعاليم اليهودية ذاتها : « من لم يعلم ابنه حرفة ، علمه السرقة » ! .. ومن ثم فان « بولس » كان - عندما فرغ من دراساته الفقهية - معدا لان « يستخدم يديه فى كسب قوته ، وعقله فى تلقين الشريعة » .

رسول النقمة لكل من يعتنق المسيحية !

. وعاش « بولس » متمسكا أشد التمسك بتعاليم التوراة، فكان يثابر على الصوم ، ولا يعمل شيئا فى يوم السبت، ويغسل يديه ويفرك صحاف طعامه لينظفها ، ويحرص على اتباع كل بند من الوصايا المائتين والثمانى والاربعين ، وعلى الامتناع عن كل مكروه من المحرمات الثلاثمائة والخمسة والستين ، التى وردت فى الشريعة الموسوية .

ولم يكن يقتصر على ذلك، بل انه كان يحرص على ان يحذو حذوه - فى مراعاة الوصايا والمحرمات - كل جيرانه . وكان يرى أن الواجب يدعوه الى أن يزدرى كل من يغضب الله .. ولقد كان أشد الناس اغضابا لله - فى رأيه - هم « اليهود المسيحيون » ، فآلى على نفسه أن يكون ذا دور عملى فى اضطهادهم .. وانه ليصف ذلك للملك « أغريباس » عندما أقتيد ليحاكم أمامه ، فيقول : « .. فأنا ارتأيت فى نفسى أنه ينبغى أن أصنع أمورا كثيرة مضادة لاسم يسوع الناصرى . وفعلت ذلك أيضا فى أورشليم، فحبست - فى سجون - كثيرين

من القديسين .. ولما كانوا يقتلون ، ألقيت قرعة بذلك (يقصد أنه كان يدلى بصوته مؤيدا قتلهم) ، وفى كل المجامع كنت اعاقبهم مرارا كثيرة واضطرهم الى التجديف على الله . واذ أفرط حنقى عليهم كنت أطردهم الى المدن التى فى الخارج » .. وعندما تآمر عليه اليهود فى أورشليم وألقى أمير كتيبة المدينة القبض عليه ـ اخمادا للفتنة ـ خاطب الشعب باللغة العبرانية فكان مما قاله : « .. كنت غيورا لله كما أنتم جميعكم اليوم ، وأضطهدت هذا الطريق (يقصد الدين المسيحى) حتى الموت ، مقيدا ومسلما الى السجون رجالا ونساء » .. وكان فى تحمسه لاضطهاد المسيحيين يتمنى لو أنهم يرجمون جميعا حتى يهلكوا عن بكرة أبيهم !

هاتف من السماء

• **فأية** معجزة تلك التى حولت «بولس» من رسول عذاب ونقمة على المسيحية ، الى رسول دعوة وتبشير بها ؟

لقد ظل يصب حقده واضطهاده على أتباع المسيح فى (أورشليم) . ثم طلب من رئيس الكهنة أن يوفده الى دمشق ليسوق اليه كل من يصادفهم من الاتباع ، موثقين ! وفيما كان يقترب من دمشق ، اذا بنور ساطع ينبثق من السماء ، فيطغى على بهاء الشمس .. وخر «بولس» ومن كانوا معه على الأرض .. **وأنبعث صوت ينادى بالعبرانية : « شاول ، شاول .. لماذا تضطهدنى ؟ » . فهتف شاول ، الذى هو بولس : « من أنت ياسيد ؟ » . فقال الصوت : « أنا يسوع الذى أنت تضطهده . صعب عليك أن ترفس مناخس » .. وفى غمرة الذهول والحيرة والرهبة ، هتف بولس : « يارب ، ماذا تريد أن أفعل ؟ » .. وجاءه الرد : « قم وأدخل المدينة فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل ! »**

ونهض « بولس » عن الأرض وهو مفتوح العينين ، فاذا به لايبصر شيئا مما حوله . وأقتيد الى (دمشق) ، حيث مكث ثلاثة أيام لا يبصر ولا يأكل ولا يشرب .. ومالبث أن وافاه « حنانيا » — وكان من تلاميذ المسيح — اذ أوحى اليه أن يوافيه، فبصره بالدين وبالرسالة التى قدر له أن يؤديها .

ويصف « رينان » هذا الذى حدث لبولس بأنه « نوبة من الرمد » .. وكيفما يكن تفسير ماجرى ، وسواء كان ظاهرة ذات تفسير علمى ، أو انه كان معجزة فوق طاقة البشر ، فان أهم مافى الأمر أنها قلبت « بولس » من رسول شر الى رسول حب ! .. واذا كان قد سار الى (دمشق) بنية البطش والنقمة، فانه وصل اليها ليكون مباركا ، وهاديا ، ومرشدا الى المحبة والسلام !

يهرب فى سلة

• ومن الاقوال المأثورة : « اتق شر من أحسنت اليه » .. كما أن من الأقوال المأثورة عن بعض الفلاسفة المتشائمين : « لماذا تكرهنى وأنا لم أصنع لك معروفا ؟ ! »

وهكذا كان شأن « بولس » . ففى الوقت الذى بدأ يحسن فيه الى اليهود ، ويحمل عبء هدايتهم ، اذا بهم ينقلبون عليه فيذيقونه ما أذاقه هو — من قبل — لمن سبقوه فى هذا الطريق ! .. وفى اللحظة التى كف فيها عن الاضطهاد ، اذا به يغدو هدفا للمضطهدين !

وتعرض فى البداية لضياع المتاع ، ثم لم يلبث ان تعرض لضياع حياته ذاتها ، اذ تشاور اليهود ليقتلوه ، وراحوا يراقبون أبواب (دمشق) ليل نهار . ولم تقدر له النجاة الا بحيلة بارعة ، اذ وضعه اصحابه فى سلة ، وأنزلوا هذه السلة من فوق سور المدينة ليلا !

واذ ذاك بدأ مرحلة جديدة من مراحل حياته .. مرحلة



تقشف وزهد ، فنزل عن كيس نقوده فى مقابل تاج من الشوك ، وجعل تجارته فى الدنيا تبشيرا بالسلام والمحبة ، فلم يتلق لسلعته ثمنا غير الضرب والرجم .. فيالها من سلعة غير مربحة !

ولكنه لم يحفل بايذاء ، وانما كان أقسى هم أثقل قلبه ، هو أن تلاميذ المسيح ارتابوا فى أمره ، حين حاول أن يتقرب اليهم ويلازمهم ..

فما كان أحد ليصدق أن الرجل الذى كان حربا عليهم ، قد تحول ـ بمثل هذه السرعة ـ الى واحد منهم .. لا الى مؤمن فحسب ، وانما الى داعية ومبشر بالعقيدة التى كان يحاربها . وكان لهم العذر كل العذر فى أن يخافوه وأن يظنوه جاسوسا عليهم !

طلائع الآلام والعذاب

• **وهكذا** مكث « بولس » فترة من الوقت منبوذا من اليهود ومن تلاميذ المسيح ، على السواء .. كل من الفريقين يتجنبه ويتحاشاه ولا يصغى اليه . ومن الطبيعى أن يكون فى هذا الوضع عذاب لنفسه . وكأنما لم يكن العذاب النفسى كافيا ، فقدر له أن يعانى ألما بدنيا ، اذ أصيب أثناء تجواله بما وصفه بأنه « شوكة فى الجسد » . وقد ظهر من أعراض هذا المرض أنه « ملاريا » حادة ، فأورثه هذا الداء آلاما بدنية ظلت تلازمه طوال عمره !

وفى غمرة هذا العذاب المزدوج ، كان القنوط يراوده،فيتمنى لو أنه القى عنه عبء الرسالة ، ليحملها منكبان أقوى من منكبيه ، ولكنه كان كلما اشتد يأسه ، سمع الهاتف الذى واتاه من السماء وأمره بأن يسعى فى الناس مبشرا بالمسيح . فكان هذا مدعاة لأن يستجمع كل جلده وقوته ، وأن يتشبث بالمهمة القدسية التى وكلت اليه ، فيؤديها فى صبر ودون ما شكوى أو تقاعس

وقدر له فى هذه الفترة الحرجة ، أن يتلقى العون والتشجيع من مصدرين .. من بطرس الرسول ، ومن « برنابا » تاجر الأقمشة . فقد كان بطرس أول من تقبل « بولس » - من رسل المسيح وحوارييه - فأسكنه مكانة فى قلبه ، وأدخله بيته ، وقال لزملائه : « ماهذا الرجل بجاسوس .. انما هو تلميذ صادق من تلاميذ الرب » .. وقد عزز ذلك بأن دعاه الى أن يقضى لديه أسبوعين ، فكانت هذه الفترة فرصة للصديقين ، تبادلا خلالها كثيرا من الآراء عن المسيح ..

كذلك أفاد بولس من اتصاله ببرنابا ، فقد كان اسم هذا الرجل مطابقا لحاله فعلا .. كان « ابن العزاء والتسرية » !..

ولقد التقى برنابا ببولس فى(طرسوس) ، فأسره الشاب بنحوله ولباقته وقوة دعوته ، فقاده الى الرسل ، وروى لهم كيف انه رأى الرب فى الطريق وكلمه ، وكيف أنه جاهر فى (دمشق) باسم يسوع وأعلن أنه المسيح الذى بشرت به التوراة .. ثم راح يشجعه على أن يجوس مع الرسل خلال (أورشليم) وماحولها مبشرا برسالة المسيح،ومتعرضا لجدال اليونانيين ، حتى أوغر صدورهم ، فتآمروا على قتله .

وهنا نصحه « برنابا » بأن يخرج بدعوته من نطاق قومه - اليهود - الى الأقوام الأجنبية .. وبمعنى آخر ، ان يخرج بدعوته من النطاق القومى الى المجال الدولى .. الى الامم .

المسيحيون الأوائل فى (انطاكية)

• **وهكذا** أنطلق الشيخ « برنابا » والشاب « بولس » الى (انطاكية) فى سنة ٤٥ ميلادية .. ففى هذه المدينة — التى كانت معقلا للوثنية — لجأ اليهود الذين اضطهدوا لايمانهم بالمسيح ، وشرعوا يعززون دعائم الدين الجديد .

وفى هذه المدينة ، ولدت ((المسيحية)) كدين قائم بذاته. فلقد كان أتباع المسيح — قبل وصول بولس الى هناك — لايعدون ان يكونوا مجرد طائفة يهودية ، يجل أفرادها عقائد اليهود ، ويلتزمون بالناموس — أو الشريعة اليهودية — ويتمسكون بما قاله يسوع : ((لا تظنوا انى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ماجئت لانقض ، بل لأكمل)) .. ولم تكن لهم كنيسة منفصلة ، وانما كانوا يتعبدون فى المعابد اليهودية ، كذلك لم تكن كلمة « المسيحية » قد عرفت بعد ، وانما كانت العقيدة التى دعا اليها السيد المسيح تعرف باسم « المذهب الثورى » ، أو « الطريقة » .. وقد ظل هذا الوضع سائدا عدة سنوات بعد موت المسيح ، الى أن أطلق بولس على أتباعه فى (أنطاكية) — ذات يوم — «المسيحيين». ومع ذلك فقد ظل هؤلاء المسيحيون الاوائل يتشبثون — فترة من الزمن — بعقيدتهم القديمة ، ايمانا منهم بأنه : « لكى تكون مسيحيا ، يجب أولا أن تكون يهوديا » . وسعى بولس لاجتذاب غير اليهود الى العقيدة ، فأستبعد كل المحرمات والطقوس التى كان اليهود المتطرفون يتشبثون بها ، وأحل محلها شرطا واحدا للخلاص .. ذلك هو : الايمان بقداسة المسيح ، فان « الانسان يتبرر بالايمان بدون اعمال الناموس » ، كما عبر « بولس » فى رسالته الى أهل (رومية) ، أى (روما) .

غذاء للابدان وغذاء للارواح

• **وكان** هـذا الاتجاه من « بولس » ضربة موفقة ، نمت

عن عبقرية . فان تخفيف عنت التطرف اجتذب الناس ومهد للمسيحية ان تنتشر بين العالمين .

بيد أن الذين أقبلوا على اعتناق المسيحية ، لم يلبثوا أن تبينوا أن طريقهم ليست سهلة بسيطة كما توقعوا ، اذ أن الآلهة القديمة من شأنها أن تغار من أية عقيدة جديدة . فسرعان مارأى الحكام الوثنيون فى العالم ـ لاسيما قياصرة الرومان ـ أن الدعوة الجديدة انما تنأى بالناس عن معتقدات آبائهم وأجدادهم ، فما كان منهم الا أن عقدوا العزم على القضاء المبرم على دعاتها واتباعها معا .. **ولكن بولس ظل دائبا ، يتنقل من مدينة الى أخرى ـ من مدن الامبراطورية الرومانية ـ يبشر بالمسيح .. وبالأمل والمحبة . فان حكمته كانت تنمو بازدياد الآلام ، وقد هدته الى أن المحبة هى الركن الاكبر .**

ولقد كان بولس من أولئك القلائل الذين استطاعوا أن يترجموا المحبة الى بر وخير ايجابى ، فلم يكرس حياته للتبشير بالكلمة فحسب ، وانما كرسها كذلك لجمع الاعانات للفقراء والمحتاجين .. ومن ثم فقد كان يحمل الى كل من حل بينهم قوتا لابدانهم ، وغذاء لارواحهم ، وكان بذلك يضع المثال العملى لمبدأ التضامن الاجتماعى

وكان الوثنيون قد ألفوا تعدد الارباب ، فلم يفهموا ـ لأول وهلة ـ العقيدة الجديدة . وقد حدث أن هبط برنابا وبولس بلدة (ليستره) ـ أحدى قرى اليونان ـ ذات يوم ، فأخذ القوم يتطلعون فى دهشة الى الشيخ ذى اللحية البيضاء الكثة الطويلة ، والى الشاب المهيب المظهر . **فلما كان المساء ، جلس «بولس» يبشر الناس بالمسيح الذى وعد الله به آباءهم . وكان فى المجلس رجل مقعد كسيح منذ مولده ، وقد راح يصغى الى « بولس » فى استغراق . وتأمله هذا ، فلما تبين أنه أوتي من الايمان ما يضمن له الشفاء ، هتف به : « قم على**

رجليك منتصبا ! » .. واذا بالرجل يثب واقفا ، وصار يمشى بين الناس !

وسواء كانت هذه معجزة علوية ، أو كانت تجربة لها مايبررها فى علم النفس والعلاج الايحائى ، فان الناس اعتقدوا ان الغريبين ليسا سوى اثنين من أربابهم هبطا اليهم فى صورة البشر . وفى الصباح التالى ، استيقظ بولس على هرج ومرج، فاذا بالقوم يغنون ويهتفون ، وقد أقبلوا بالاكاليل ، وساقوا الثيران ليذبحوها . وتساءل « برنابا » و « بولس » عما هناك ، فلما أدركا أن القوم جاءوا يقدمون اليهما الذبائح ، ايمانا منهم بأنهما من الأرباب ، مزق الرسولان ثيابهما ، وصاحا فى الجمع : « أيها الرجال ، لماذا تفعلون هذا ؟ .. انما نحن الآخران بشر تحت آلام ، مثلكم ، نبشركم بأن ترجعوا عن هذه الأباطيل الى الاله الحى الذى خلق السماء والأرض والبحر وكل ماعليها ! »

ولكن ، اذا لم يكن الغريبان الهين ، فكيف يجوز لهما أن يقولا هذا القول ؟ .. اذن ، فهما كافران ولابد !

وكان من جراء هذا المنطق ، أن انقض القوم على «بولس»، فجروه من مسكنه ، ورجموه فى الطريق ، ولم يتركوه الا وقد ظنوه ميتا . ولكن « بولس » كان ذا جلد عظيم . فما لبث أن نهض وسار عائدا الى القرية .. وبهت القوم ! .. وفى هذه المرة ، أنصتوا اليه ، واستطاعوا أن يفقهوا قوله .. وأدركوا انه رجل على استعداد لأن يضحى بحياته فى سبيل الحق والحقيقة !

داعية للديموقراطية ومصلح اجتماعى

• **وكانت** الحقيقة ــ لدى بولس ــ تتألف من ثلاث شعب: أبوة الله ، وبنوة يسوع ، وأخوة البشر .. فكل البشر «اخوة

فى أبوة الرب » . **وبهذا نرى أن بولس كان من أوائل دعاة الديموقراطية الصحيحة الصادقة .. وكان الى جانب ذلك مصلحا اجتماعيا تقدميا، فهو يتخذ من هذه المساواة والوحدة تكأة لينادى بأن على الأقوياء أن يحتملوا الضعفاء ، وأن يعمل كل امرىء على ارضاء أخيه فى سبيل الخير والصالح المشترك وحفظ كيان المجتمع** . ولقد كتب الى « ثيموثاوس» فى رسالته الأولى يقول : « أوص الأغنياء فى الدهر الحاضر ان لا يستكبروا ولا يلقوا رجاءهم على غير يقينية الغنى ، بل على الله الحى الذى يمنحنا كل شىء بغنى للتمتع .. وأن يصنعوا صلاحا وان يكونوا أغنياء فى أعمال صالحة ، وأن يكونوا أسخياء فى العطاء ، كرماء فى التوزيع .. »

وهو يمثل المساواة وتماسك المجتمع ـ فى رسالته الأولى الى أهل (كورنثوس) ـ بقوله : « لانه كما ان الجسد هو واحد وله أعضاء كثيرة .. كذلك المسيح أيضا ، لأننا جميعنا بروح واحد أيضا اعتمدنا الى جسد واحد ، يهودا كنا أم يونانيين، عبيدا أم أحرارا .. » . **وهو يضرب بأعضاء الجسد المثل على أن الناس درجات ، وأن ضآلة مكانة الفرد لا تعنى أنه أقل من سواه قيمة للمجتمع** . فيقول : « فان الجسد أيضا ليس عضوا واحدا ، بل أعضاء كثيرة .. ان قالت الرجل (أى القدم) لانى لست يدا لست من الجسد ، أفلم تكن لذلك من الجسد ؟.. وأما الآن فقد وضع الله الأعضاء كل واحد منها فى الجسد كما أراد . ولكن لو كان جميعها عضوا واحدا فأين الجسد ؟ .. فالآن أعضاء كثيرة ولكن جسد واحد ، لاتقدر العين أن تقول لليد لا حاجة بى اليك .. **بل بالأولى أعضاء الجسد التى تظهر أضعف هى ضرورية . وأعضاء الجسد التى نحسب أنها بلا كرامة نعطيها كرامة أفضل .. لكن الله مزج الجسد معطيا الناقص كرامة أفضل ، لكى لا يكون انشقاق فى الجسد ، بل تهتم الاعضاء اهتماما واحدا بعضها لبعض . فان كان عضو**

واحد يتألم ، فجميع الاعضاء تتألم معه »

ثم هو يجعل المحبة أساس التضامن الاجتماعى : «ان كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة ، ولكن ليس لى محبة ، فقد صرت نحاسا يطن أو صنجا يرن . وان كانت لى نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم .. ولكن ليس لى محبة ، فلست شيئا . وان أطعمت كل أموالى ، وان سلمت جسدى حتى أحترق، ولكن ليس لى محبة، فلا أنتفع شيئا .. المحبة تتأنى وترفق .. المحبة لا تحسد .. المحبة لا تتفاخر ، ولا تنتفخ ، ولا تقبح ، ولا تطلب ما لنفسها ، ولا تحتد ، ولا تظن السوء ، ولا تفرح بالاثم .. المحبة لا تسقط أبدا . واما النبوات فستبطل ، والألسنة فستنتهى ، والعلم فسيبطل » .

مشكلة الحياة والموت

• **ولقد** حلل « بولس » حادث صلب السيد المسيح ، فخرج منه بأن يسوع ضحى بنفسه من أجل الجنس البشرى، وان موته انما أريد به أن يكون دليلا للعالم على أن ثمة بعثا بعد كل موت، أو ـ بالأحرى ـ **ليس الموت موتا مطلقا أبديا !**

ومن ثم فقد شرع يتطلع الى حقيقة هذه الظاهرة .. **وخرج من تأملاته بأن الموت حق محتوم على كل البشر ، ولكنه ليس سوى معبرة انتقال من احدى مرحلتين فى الحياة ، الى المرحلة الأخرى ..** « لكن يقول قائل : كيف يقام الأموات، وبأى جسم يأتون ؟ » . وهنا ينبرى لجدال المتشككين فى البعث ، بمنطق رائع ، فيقول : « **ياغبى ، الذى تزرعه لا يحيا ان لم يمت . والذى تزرعه لست تزرع الجسم الذى سوف يصير ، بل حبة مجردة** .. ولكن الله يعطيها جسما كما أراد ، ولكل واحد من البذور جسمه . ليس كل جسد جسدا واحدا ، بل للناس جسد ، وللبهائم جسد آخر ، وللسمك آخر ، وللطير اخر .. وأجسام سماوية وأجسام أرضية .. هكذا أيضا قيامة

الأموات . يزرع فى فساد ويقام فى عدم فساد ، يزرع فى هوان ويقام فى مجد ، يزرع فى ضعف ويقام فى قوة ، يزرع جسـما حيوانيا ويقام جسما روحانيا » .. وهكذا حل مشكلة الموت والبعث والحياة الآخرة ، بأسلوب علمى لايكاد يختلف عن الأسلوب الذى يفخر به العلم الحديث .

ومن الحياة الأخرى اتخذ أملا يمنى به الناس ويحثهم على الخير ، والخلق القويم ، واتباع التعاليم

بولس فى قبضة أعدائه

• وأصغى الناس — فى كل مكان — الى « بولس » ، الذى راح يتنقل من بلد الى بلد ، يؤدى رسالته ، وهـو مسـلح بالمناعة الروحية وبعدم الخوف من الموت .

على أن جرأته فى دعوته أثارت نفوس الاقطاعيين والرجعيين فى اليونان ، وأقلقت خواطر الحكام ، وألبت عليه الكهنة الذين كانوا يتخذون الدين أداة للكسب والمصالح الخاصة . فأوسعوه اضطهادا ، وراحوا يتربصون به . واشتد حقدهم عندما ازداد عدد الذين كانوا يؤمنـون بدعوته ، وبينهم أعضـاء بالمجـامع اليهودية .. وأخذ بولس يجاهد فى جبهتين ، فكان يحمل على الوثنية ، وكان يشتد فى مجادلة اليهود الذين أبوا أن يؤمنـوا بيسوع ورسالته .

وبعد جولة طويلة فى آسيا وبلاد اليونان ، عاد « بولس » الى (أورشليم) ، وصعد الى الهيكل .. واذ ذاك تكاثر عليـه أعداؤه من اليهود ، وأثاروا الخواطر ، فتراكض الناس وجروا « بولس » الى خارج الهيكل ، وأوصدوا الأبواب دونه ،وتألبوا عليه يتآمرون على قتله . ولكن أمير الكتيبة — الموكل بالامن فى (أورشليم) — خف الى اخماد الاضطراب ، وأمر بأن يقيـد



« بولس » بسلسلتين ، وهم — تحت ضغط الهائجين — أن يمده للسياط ، لولا ان بولس قال له : « أيجوز لكم أن تجلدوا انسانا رومانيا لم يصدر حكم بجلده ؟ » .

وخشى الامير تبعة عمله ، فأحال بولس على مجمع حضره رؤساء الكهنة جميعا . وما ان علم « بولس » بأن قسما منهم كانوا من اليهود الصدوقيين ، وقسما من الفريسيين ، حتى صاح فى المجمع : « أنا فريسى ابن فريسى .. وانى لاحاكم لانى أؤمن بقيامة الاموات » . ولما كان الفريسيون يؤمنون بالقيامة ، فقد تحمسوا له ، ودب النزاع بينهم وبين الصدوقيين ، فخشى الأمير العاقبة ، وأوحى الى رجاله بأن يختطفوا « بولس » من وسط المجتمعين .

طمع الوالى ينقذ المتهم !

• **وقابل** اليهود هذا المسلك بأن اتفق أربعون منهم على أن يضربوا عن الطعام والشراب حتى يقتلوا « بولس » . ثم أوعزوا الى أعضاء المجمع بأن يطلبوا الى الأمير أن يدع لهم السجين كى يناقشوه . ولكن الامير أدرك أن وراء هذا الطلب كمينا للقضاء على « بولس » ، ومن ثم فقد هربه فى جنح الليل الى (قيصرية) — مقر الوالى « فيلكس » — فى حراسة شديدة .

وما أن علم « فيلكس » بالقضية ، حتى استدعى اليه رئيس الكهنة واعضاء المجمع ، الذين كانوا خصوما لبولس ، ليحكم

بينهم . وكان ((فيلكس)) خليقا بأن يعنف بالسجين ، لولا أن لهجة ((بولس)) أوقعت الرعب فى قلبه ، كما أن ادراكه لحقوقه كمواطن رومانى ، جعـل الوالى يحجم عن جـلده ، دون ما محاكمة وحكم صريح . واذ علم ((فيلكس)) أن بولس لم يكن مذنبا فى شىء اللهم الا أنه كان يواسى المسيحيين ويعظهم ويجمع الأموال لمساعدتهم ، داخله الطمع ، وخيل اليه أن بوسـعه أن يستغل هذا السجين ، بأن يغريه بشراء حريته بالمال . لذلك اكتفى ازاءه باجراء قانونى يشبه ما يجرى اليوم من ترك المتهم حرا فى التنقل ، على أن يكون تحت مراقبة السلطات ، وعلى أن لا يبرح المدينة

وبهذا الوضع ، أصبح من حق « بولس » أن يتنقل فى أرجاء المدينة ، وأن يستدعى اليه أصدقاءه ويتحدث اليهم .. بل ان الوالى أخذ يستدعيه اليه مرارا ، ويجاذبه أطراف الحديث ، وهو لاينفك يطمع فى أن يغريه بأن يفتدى نفسه بالمال

العواصف تتلاعب بالسفينة

. **وانقضى** عامان على هذا الوضع ، ثم قـدر لفيلكس أن ينقل من المدينة ، فترك « بولس » مقيدا . وعند ما خلفه فى الولاية « فستوس » ، تقدم اليه رئيس كهنة أورشليم وكبار اليهود فيها ، ملتمسين منه استحضار «بولس» الى (أورشليم) ، معتزمين أن يدبروا كمينا لاغتياله فى الطريق .

ورأى الوالى أن يتبع أسلوبا قانونيا يعفيه من المسئولية ، فاستدعى اليه « بولس » فى (قيصرية) ، بحضـور اليهود الذين كانوا قد وفدوا من (أورشليم) ، واستمع الى الدعاوى الكثيرة التى راحوا يوجهونها الى السجين . **واذ اشتم بولس من مسلك الحاكم أنه يوشك أن يسلمه لأعدائه ، استعان بما كان لكل رومانى من حق فى أن يطلب أن يحاكم أمام الامبراطور الرومانى ، لذلك فانه بادر قائلا : ((اننى لم أظلم اليهود فى شىء**

كما تعلم تمام العلم ، وليس فى وسع أحد ان يسلمنى اليهم .. الى قيصر أنا رافع دعواى »

ولم يجد الوالى بدا من أن يجيبه الى مطلبه ، وأن يبعث به الى (روما) ، مع عدد من الأسرى ، على ظهر سفينة

وقدر للرحلة أن تجرى فى جو عاصف . وسارت السفينة ببطء أياما ، ثم اشتدت الرياح أياما عديدة ، حتى دب اليأس فى نفوس من كانوا عليها

السجين يصبح منقذا !

• **وكان** « بولس » هو الوحيد الذى ظل مطمئن النفس فى هذه الفترة الحرجة ، وكان لايفتأ يقول لرفاقه : « لا تخافوا ، لأنه لاتكون خسارة نفس واحدة منكم ، الا السفينة ! » .. فلقد واتاه الوحى بأن السفينة قد قدر لها أن تغرق ، ولكن جميع من عليها كتب لهم أن ينجوا !

وصحت نبوءة بولس .. وبعد أن ظلت السفينة تتخبط فى البحر الادرياتيكى أربعة عشر يوما — عدا الايام الطويلة التى قضتها بين (صيدا) ومدخل ذلك البحر — **وعندما أيقن الملاحون من أن السفينة ستغرق ، أنزلوا قاربا الى البحر ليهربوا وحدهم ، ولكن « بولس » نبه قائد الحرس ، وقال له : « اذا لم يبق هؤلاء فى السفينة ، فلن تستطيعوا النجاة ! » . فما كان من القائد الا أن أحبط مؤامرة الملاحين ، واذ ذاك أصبح « بولس » هو المسيطر عليهم** . وكانوا جميعا قد قضوا أربعة عشر يوما صائمين ، فنصحهم بأن يفطروا ، وضرب لهم المثل بنفسه ، اذ تناول خبزا وأكله

وما أن أكل جميع من كانوا على السفينة — وكانوا ٢٧٦ نفسا — حتى دب الانتعاش فى أجسامهم ، وعاودتهم القوة .. واذ ذاك أقبلوا يخففون حمولة السفينة . حتى اذا طلع النهار ،

أبصروا خليجا له شاطىء ، فسعوا اليه ، ولكن مقدم السفينة انحشر بين الصخور ، وظل مؤخرها ألعوبة للأمواج

وفكر الحراس فى أن يجهزوا على الاسرى، حتى لا يهربوا . ولكن « بولس » أشار بأن يغادر الجميع السفينة ، فيسبح القادرون منهم على السباحة ، ويتعلق الآخرون بألواح وحطام السفينة ، مؤكدا لهم أنهم سينجون جميعا !

وأخذ قائد الحراس بهذا الرأى ، فقدر للجميع أن ينجوا فعلا ! .. ولاذوا بجزيرة قضوا فيها ثلاثة أشهر ، قبل أن تتاح لهم سفينة تقلهم الى الأراضى الايطالية .

المحكمة العليا تطلق سراحه

• وفى (روما) ، استدعى « بولس » كبار اليهود ، وذكر لهم كيف أن يهود (أورشليم) قد أسلموه مقيدا الى أيدى الرومانيين ، وهو الذى لم يأت ذنبا ضدهم أو ضد تقاليد الآباء .. **واستند – فى ذلك – الى انه رغم تبشيره بالمسيح ، لم يتنكر للعقيدة الموسوية ، ولا تنكر للناموس . وراح – فى يوم آخر – يشرح لهم دعوته ، ويقنعهم ، بما ورد فى ناموس موسى والانبياء ، بشأن يسوع . فاقتنع بعضهم ، وانصرف عنه البعض الآخر دون اقتناع .**

وما لبثت المحكمة العليا فى (روما) أن تبينت أنه – من جميع الاعتبارات السياسية – كان بريئا ، فأطلقت سراحه ، وسمحت له بأن يعيش فى سلام .

وأقام « بولس » فى روما عامين كاملين ، فى دار استأجرها لنفسه ، يعلم الناس ويلقنهم عقيدته جهارا – دون أن يلقى أى اعتراض – ويكتب الرسائل الى تلاميذه ، ويتلقى منهم الهدايا البسيطة التى كانت رمزا لعواطفهم

ويؤكد المؤرخان « هنرى ودانا توماس » انه ليس ثمة

قرينة أكيدة على أن « بولس » مات مستشهدا ، كما ذكر بعض من تعرضوا لسيرته . بل انه يقول — فى رسالته الى أهل (فيلبى) — « أريد أن تعلموا ، أيها الأخوة ، أن أمورى قد آلت أكثر الى تقدم الانجيل ، حتى أن وثقى صارت ظاهرة فى المسيح فى كل دار الولاية ، وفى باقى الأماكن أجمع » .. يعنى انه كان منصرفا الى الدعوة ، وانه اكتسب أتباعا لعقيدته من رجال الحكم أنفسهم . وقد ظلت هذه هى المهمة التى وجه اليها كل همه ، حتى وافاه أجله ، فتخفف من العبء الذى حمله على كاهليه فى حياته ، وتنفس الصعداء وهو راض عما فعل ، وأسلم الروح وهو يقول : « **قد جاهدت الجهاد الحسن .. أكملت السعى ، حفظت الايمان** » . وبقى صوته يتردد من بعده — عبر الاجيال والقرون — قائلا :

« أعلم أنه فى الأيام الاخيرة ستأتى أزمنة صعبة ، لان الناس يكونون محبين لأنفسهم ، محبين للمال ، متعظمين ، مستكبرين ، مجدفين ، غير طائعين لوالديهم ، غير شاكرين ، دنسين ، بلا حنو ، بلا رضى ، ثالبين ، عديمى النزاهة ، شرسين ، غير محبين للصلاح ، خائنين ، مقتحمين ، متصلفين ، محبين للذات ، دون محبة لله ، لهم صورة التقوى ولكنهم منكرون قوتها ، فأعرض عن هؤلاء »

أتراه كان يتحدث عن زمننا هذا .. الزمن الذى طغت فيه المادة فغيرت القلوب وأورثتها جحودا وأنانية بالغين ؟

ان يكن ذلك ، فان « بولس » لم ينس أن يرشد البشر الى العلاج الناجع :

« لتثبت المحبة الاخوية .. لاتنسوا اضافة الغرباء .. أذكروا المقيدين (الراسفين فى الأغلال) كأنكم مقيدون معهم ، والمذلين (بضم الميم وفتح الذال ، أى المستضعفين المعرضين للذل) كأنكم أنتم أيضا فى الجسد .. ليكن الزواج مكرما عند

كل واحد ، والمضجع غير نجس .. لتكن سيرتكم خالية من محبة المال » !

نصيحة فيلسوف انسانى وعالم اجتماعى ، تصلح لكل زمان ، ولكل طائفة .. فهى الطريق الى السمو الخلقى !

بولس .. الفيلسوف المنطقى

• **ولقد** عنى المؤرخ والناقد الأدبى الانجليزى « جون كاوبر بويز » بأن يحلل شخصية « بولس » كانسان عادى ، غاضا بصره عن الهالة القدسية التى تحيط به ، فكان من أهم ما خرج به من دراسته : **ان « بولس » لم يكن متصوفا شاعريا – على غرار الكثيرين من الدعاة الدينيين – وانما كان فيلسوفا مفكرا ، وجه همه الأكبر نحو الكون فى مجموعه ..** وكان فى ايمانه بيسوع ، صادرا عن عقيدة راسخة بأن هذا الايمان فى صالح الجنس البشرى ، حتى لقد كان على استعداد لان يضحى بعنقه ، فى سبيل أن تلين أعناق قومه فتنحنى أمام سر يسوع !

والواقع أن القديس بولس كان فيلسوفا صادقا . ولعل دراسته لآداب الاغريق قد أكسبته موهبة التفكير المنطقى الذى سلكه فى رسالته . ومن ثم نجده فى حديثه عن الله وعن المسيح ، يسلك أسلوبا يصل بالاقناع الى فؤاد وعقل كل من ينصت اليه .. وانك لتلمس هذا فى حديثه الى أهل (أثينا)، يوم ثارت نفسه عليهم ، اذ رآهم يعبدون الأصنام : « أيها الرجال الأثينيون : أراكم من كل وجه كأنكم متدينون كثيرا .. لأننى بينما كنت أجتاز وأنظر الى معبوداتكم ، وجدت أيضا مذبحا مكتوبا عليه : « لاله مجهول » ! .. **فالذى تتقونه وأنتم تجهلون ، هذا .. أنا أنادى لكم به .. الاله الذى خلق العالم وكل مافيه ، اذ هو رب السماء والارض ، لا يسكن فى هياكل**

مصنوعة بالأيدى ، ولا يخدم بأيدى الناس كأنه محتاج الى شىء ، اذ هو يعطى الجميع حياة ونفسا وكل شىء »

أى منطق قوى ؟ ! .. لقد وجدهم يتقون « ربا مجهولا » ، فكيف يعيبون عليه ان جاء يقول لهم ان هذا « المجهول » هو خالق السماء والأرض وكل مافيهما ؟ .. وكيف يلومونه اذ قال أن « الاله » لا يسكن هياكل يصنعها الناس ، لأنه يملأ السموات والأرض .. وأن « الاله » لا يحتاج الى أن يخدمه الناس ، لأنه هو المعطى والمانح والوهاب ؟ .. ثم ، **كيف يجادلون وينكرون وهم يعترفون بأن ذلك الاله « مجهول » ؟!**

وهو يقول فى رسالته لأهل رومية (روما) : « .. اذ معرفة الله ظاهرة فيهم ، لأن الله أظهرها لهم . لأن أموره غير المنظورة ترى منذ خلق العالم ، مدركة (أى ملموسة) بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته ، حتى انهم بلا عذر .. لأنهم لما عرفوا الله لم يمجدوه أو يشكروه .. وأبدلوا مجد الله الذى لايفنى بشبه الانسان الذى يفنى، والطيور والدواب والزحافات»

.. والخبير بالنفس الانسانية

• **ونعود** الى « جون كاوبر بويز » ، فنجده يخرج من تحليلاته بأن « بولس » كان بارعا فى استخدام علم النفس كوسيلة لاقناع الناس برسالته . وبدلا من أن يدعو الناس الى عبادة « اله » محوط بالغموض والأسرار المستعصية ، بالغ سواه فى تصوير جبروته وبطشه وسلطانه ، اذا به يكشف لهم عن ناحية جديدة عليهم ، يبدو فيها الاله غفورا رحيما .. **« فماذا نقول : ألعل عند الله ظلما ؟ .. حاشا ! لأنه يقول لموسى انى أرحم من أرحم ، وأتراف على من أتراف .. فاذن هو يرحم من يشاء ، ويقسو على من يشاء ! »**

وهو يتعرض بعد هذا للقدر ، فيأخذه على أنه قضاء مسلم

به ، ولا حيلة فيه . ويبرر ذلك لمن قد يعترض على ماذكره ، ويتساءل عما يبرر اختيار الله لمن يرحمه ، ولمن لايرحمه ، وعن عدالة تحميل الانسان مسئولية هـذا الاختيـار .. فيقول : **« من أنت أيها الانسان الذى تجاوب الله ؟ .. ألعل الجبلة تقول لجابلها : لماذا صنعتنى هـكذا ؟ .. أم ليس للخـزاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة اناء للكرامة وآخر للهوان ؟ »** .. انه بهـذا يخلص الى ماانتهى اليـه من قبـل « هوميروس » ، الذى كان لايفتأ يقول عن القدر ، وهويتنهد: « انه أقوى منا » ، ومن ثم فقد كان يدعو البشر الى أن يهيئوا أنفسهم تبعا لدنياهم ، ولهـذا الواقع ، وأن يسـلكوا أحـكم السبل فيروضوا أنفسهم على ذلك .. **وهى نفس النتيجة التى انتهى اليها النبى « أيوب » وكثير من أصحاب الرسـالات ، والفلاسفة** . ولكن « بولس » يسوقها فى منطق سـليم ، ذى طابع نفسى يكسبه قوة اقناع ! .. وهو ينزل ـ فى سبيل ذلك ـ من روحانية التصوف ، الى واقع الأرض والتربة والطبيعة التى يلمسها البشر !

التضحية والفداء فى سبيل المجموع

• **بل** انه ليذهب ـ فى علاجه النفسى ـ الى أبعد من هذا .. انه ليتحول عن احاطة الالوهية بالغموض والهالات ، ليصورها فى أجلى صـور البطولة والأمل اللانهـائى .. ولا بد انه لمس طبيعة النفس البشرية ، اذ تنصرف عن كل غامض يصر على الغموض ، واذ تنفر من كل باطش جبار .. وتقبل على كل ما يصور التضحية ، وما يفتح أمامها أبواب الأمل ، فهو يسلم بما ورد فى الكتب من أن المسيح مات من أجل خطايا البشر ، ولكنه ـ فى الوقت ذاته ـ ينادى بالبعث والقيامة . وهو يتطرق من هذا الى انه « ان كان واحد قد مات لأجل الجميع، فالجميع

اذن ماتوا » . ثم يبين حكمة هذه التضحية البطولية بقوله : « وهو مات لأجل الجميع كى يعيش الأحياء فيما بعد ، لا لانفسهم ، بل للذى مات من أجلهم وقام » .. ويشرح كيف أن الله اغتفر للبشر خطاياهم اكراما للتضحية الكبرى ، ثم يقول : « اذن نسعى كسفراء عن المسيح ، كأن الله يعظ بنا . فنطلب عن المسيح : تصالحوا مع الله ! »

واذن فقد كانت تضحية السيد المسيح ، من أجل أن يصالح البشر مع الله ، فيعودوا لطاعته ويلتمسوا رضاءه !

وليس هنا مجال البحث الدينى ، ولكنا لا نملك سوى أن نعترف ببراعة هذا المنطق وقوة نفاذه الى القلوب والعقول . ثم اننا لانملك الا أن نلمس خلفه دعوة اجتماعية ، هى اليوم أساس الدعوات الديموقراطية السائدة : « الفرد للمجموع » .. لقد مات المسيح ليعيش الأحياء ! .. انها دعوة التضحية، والبذل ، والفداء ، فى سبيل الصالح العام !

ولو أننا جردنا « بولس » من الرداء الدينى ، لوجدنا تحته رداء للزعامة الاجتماعية والانسانية الخالدة .

الانسان .. بين الروح والجسد

• **والحق** ان الذى يتأمل حياة القديس « بولس » — من الناحية غير الدينية — لا يملك الا أن يضمه الى أولئك الفلاسفة الذين كانوا يدعون الى « حياة طيبة » ، كسقراط — فى الماضى — و « جوته » فيما بعد .. وهو لا يطلب من الانسان — فى سبيل بلوغ هذه الحياة — سوى أن يطهر دخيلة نفسه ، كما يعنى بتنظيف ظاهره ، أى جسده .. « لأن اهتمام الجسد هو موت ، ولكن اهتمام الروح هو حياة وسلام »

وهو يرفع الانسان الى أرقى المراتب ، ويعلى من كرامته ، حين يقول : « أما تعلمون أنكم هيكل الله ، وروح الله يسكن فيكم » . ثم هو — فى مهارة التربوى النفسى الخبير — يتوسل

بهذا الى حض الانسان على أن يكرم جسده عن الدنس : « ان عشتم حسب الجسد فستموتون ، ولكن ان كنتم بالروح تميتون أعمال الجسد فستحيون » .. « لان من يزرع لجسده ، فمن الجسد يحصد فسادا . ومن يزرع للروح ، فمن الروح يحصد حياة أبدية . فلا نفشل فى عمل الخير .. فلنعمل الخير للجميع » .. وهذه هى القاعدة التى يرسى عليها أساس المجتمع .. ان يعمل المرء الخير للجميع . وهو يتوسل لذلك بالحب : **« لان من أحب غيره فقد أكمل الناموس » .. « لان الناموس فى كلمة واحدة يكمل : تحب قريبك كنفسك . فاذا كنتم تنهشون وتأكلون بعضكم بعضا ، فأنظروا لئلا تفنوا بعضكم بعضا »**

ثم هو يكل كل ذلك الى النفس ، فكأنه يعلى من قدر الفرد، اذ يجعله رقيب نفسه : « **ليمتحن كل واحد عمله ، وحينئذ يكون له الفخر من جهة نفسه فقط .. لأن كل واحد سيحمل حمل نفسه** » .. وهو لا يفتأ ينبه الى الوسيلة : « جربوا أنفسكم » .. « امتحنوا أنفسكم » ، لأنه يدرك أن الجسد ــ وبالاحرى الشهوات ــ تنازع النفس دائما : **« وانما أقول أسلكوا بالروح ، والروح ضد الجسد ، وهذان يقاوم احدهما الآخر حتى تفعلوا مالا تريدون »**

واذن ، فهو ينبه الى الصراع الشديد ، وهو ينبه الى عواقبه ثم يرشد الى السلاح القوى للنصر : **« ألك ايمان ؟ .. فليكن لك بنفسك أمام الله » !**

وهذا هو السلاح البتار فى كل ناحية من نواحى النشاط الحيوى ، وليس فى العبادة وحدها .

• • • • •

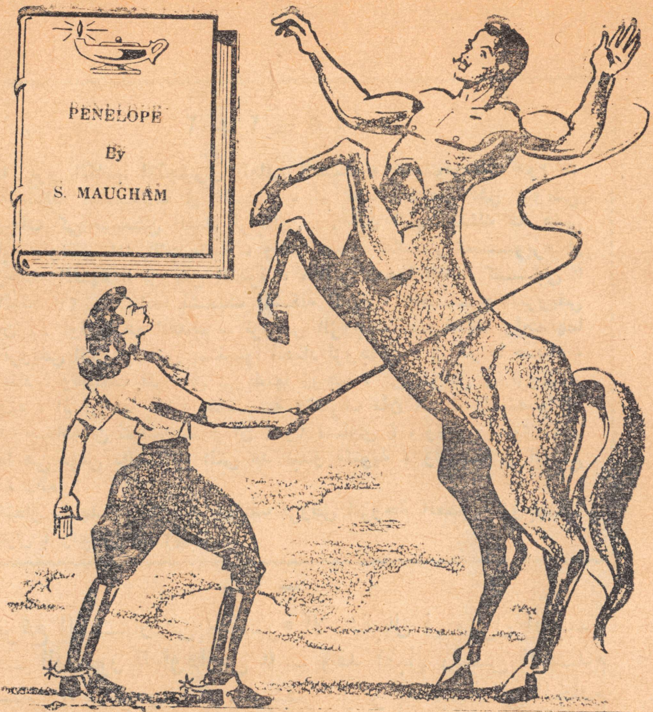
• **وهكذا** لم تقتصر رسالة القديس بولس ــ أو بولس

الرسول - على الدعوة الدينية فحسب ، وانما هى شملت أهم أساسين لحياة الانسان :

ففى الناحية الفردية : ((**امتحنوا أنفسكم**)) !

وفى الناحية الجماعية : ((**لاتصيروا (أى لاتجعلوا) الحرية فرصة للجسد ، بل بالمحبة اخدموا بعضكم بعضا**)) . . و ((**لاتكونوا مدينين لأحد بشىء ، الا بأن يحب بعضكم بعضا ، لأن من أحب غيره فقد أكمل الناموس**))

وقد كان ((بولس)) خير وفى لهذا المبدأ ، اذ عاش حياته يحب الناس - حتى أعداءه - ويخدمهم بالمحبة !



ترويض الزوج!

تمثيلية فكهة تعالج مشكلة اجتماعية دقيقة

للروائى الانجليزى الكبير: سومرست موم

تلخيص: الدكتور نظمى لوقا

٢ + ٢ = ٥ ؟ !

• يرى الكاتب الانجليزى العالمى الصيت ، « سومرست موم » ان مشكلة المشكلات فى البيوت ، لم تعد تقتصر على ترويض الزوجات كى يسلسن القياد لرجالهن .. فان العهد بذلك قد مضى بآدابه وأوضاعه الاجتماعية ، وقد أحسن شكسبير تصويره فى مسرحيته الفكهة « ترويض النمرة » ، التى قدمها لك « كتابى » فى العدد ٢٧ .. وانما تشعبت المشكلة اليوم ، فأصبح الترويض نوعين .. أولهما هو القديم - ترويض الزوجات - وثانيهما وأحدثهما هو ترويض الازواج حتى يسلسوا القياد لزوجاتهم ، فى غير ما صدام ، ولا عناد ! وتختلف المرأة فى ترويضها زوجها ، عن الرجل فى ترويضه زوجته ، اذ ان لها عقلية خاصة لاتعترف بأن الخط المستقيم هو أقرب مسافةبين نقطتين - أو أن ٢ و٢ تساوى ٤ ، ولاشىء سوى ٤ - وانما هى تؤمن بالوسائل التى قد تبدو ملتوية ، ولكنها فى الواقع فعالة دائما !

فتعال نشهد مع « موم » كيف تروض الزوجة العصرية زوجها العصرى ، وتجعل ٢+٢=٥ !

- ١ -

• **ترفع** الستار عن حجرة الاستقبال فى منزل الطبيب الشاب - **الدكتور « أوفاريل »** - وقد أقبل رئيس الخدم **يقود مستر « دفنبورت »** . وينظر الزائر بدهشة الى الخادم - اذ يجد القاعة خاوية - ثم يسأله عن ابنة أخته . **ومن هنا ندرك أن مسز « أوفاريل » - زوجة الطبيب - هى ابنة أخت « دفنبورت »، الذى يبدو متزمتا فى أرستقراطيته ، مسرفا فى اناقته ، تحتل عروة سترته زهرة فاخرة كبيرة**

ويشتد عجب الضيف الارستقراطى ، حتى ليكاد يصل الى الانكار الشديد ، اذ يعلم ان ابنة اخته ليست بالدار . فهو لم يحضر الا بدعوة تلغرافية منها . وفيما هو جالس فى انتظارها يفد سيد متقدم فى السن ، نفهم من حديثه أنه محام ، وأنه جاء - هو الآخر - بدعوة تلغرافية .. من مسز أوفاريل بالذات !

ولا تلبث شخصية ثالثة ان تنضم اليهما ، هى « **مسز جوليتلى** » ، شقيقة « دفنبورت » ووالدة ربة الدار . وتبدو منزعجة لأنها تسلمت برقية من أبنتها تدعوها فيها على عجل . **ولا تكاد الام تتبادل عبارات الدهشة مع المحامى ومع شقيقها ، حتى يدخل زوجها الأستاذ « جوليتلى » – العالم الرياضى المشهور** . ويتبادل الاربعة عبارات الدهشة من سلوك « **بنيلوبى** » – وهو اسم مسز أوفاريل – ويحارون فى تعليله . ويلاحظون أن كل البرقيات تضمنت – الى جانب الدعوة العاجلة – عبارات تباينت بتباين الذين أرسلت اليهم : فقد جاء فى برقية الخال : « **الدوقة أنستازيا . احضر فورا** » . وفى برقية المحامى : « **السعر ستة شلنات . احضر فورا** » . أما الام فورد فى برقيتها : «**فضيحة كبرى . احضرى حالا**» . بينما جاء فى برقية الاب : « **– س + ص = ٩/٧ ١ باذنجانة . احضر فورا** » !

ويشتد الجدل بين الاربعة حول الباعث على هذه الدعوة المفاجئة . فنجد الخال مهتما بموضوع «الدوقة» – التى ورد اسمها فى البرقية – فيروح يسوى ربطة عنقه . وفجأة يفتح الباب الداخلى وتدخل « بنيلوبى » الرشيقة الحسناء الخفيفة الروح ، فيثور فى وجهها الجميع ويسألونها أين كانت ..

بنيلوبى (بهدوء ولطف) : هنا فى البيت .. فى حجرة انتظار المرضى بجوار الباب ، لاراكم وأنتم تدخلون تباعا .

الخال (فى ارستقراطية) : اتبعثين الينا ببرقيات للحضور ، ثم تتوارين لتسلمينا الى قلق كهذا ؟ .. انه سلوك شائن !

بنيلوبى : أبدا يا خالى ، بل هو سلوك معقول جدا ، ويتمشى مع روح العصر .. تصرف اقتصادى لا اكثر . فلو اننى انتظرت قدومكم هنا – فى حجرة الجلوس – لاضطررت الى أن اروى لكل قادم منكم ، على حدة ، نفس القصة بتفاصيلها ، ولاجبت عن نفس الاسئلة التى سيظن كل منكم أنها لم تخطر الا

بقريحته . وفى هذا مجهود معاد بغير مبرر !

الخال (متلهفا) : ولكن ، ماذا وراء برقيتك ؟ .. ماذا عن الدوقة ؟

بنيلوبى : أوه ، لاشىء !.. لست أعرف عنها شيئا !.. لقد ذكرت لكل منكم الموضوع الذى أعلم أنه يثير اهتمامه ، لكى اطمئن الى حضوركم على الفور ، اذ ان الموقف خطير والساعة حرجة ! .. فأنا .. أريد أن أطلق زوجى !

ويتصايح الجميع وقد بوغتوا بالنبأ .. وتتوالى أسئلتهم ، فندرك أن «بنيلوبى» تحب زوجها «ديكى» . ولكنها اكتشفت فجأة أنه يخدعها ــ منذ شهر ــ مع صديقة لها ، يقضى معها أوقاته فى كل ليلة ، متعللا بأنه يعنى بمريضة لا تفرغ لها استشارات ولا مداولات ولا عمليات جراحية !

الاب : هل من عادتك ان تسأليه ــ كلما عاد من الخارج ــ عن المكان الذى كان فيه ؟

الأم : وما صلة هذا السؤال بمانحن فيه ؟.. ان والدك عالم رياضي يا ابنتى ! .. أليس عندك ورقة وقلم ؟

وتقدم الابنة لابيها قلما وورقة ، فى سخرية ، ولكنه يتقبلهما فى جد ويستغرق فى الكتابة

الأم : والآن يا ابنتى ، أكملى حديثك !

بنيلوبى : سأهجر هذا البيت الليلة ، والى الابد ، بعد أن أواجه زوجى برأيى فيه كاملا ، وأقذف فى وجهه بخاتم الزواج .. ثم أطلقه !

وفجأة يقع بصرها على ما يكتبه والدها الجليل

بنيلوبى : وامصيبتى ! .. لقد جن أبى !.. أبى فقد عقله !. انظروا ! انه يملأ الورقة بـ ٢+٢=٥ . ويكررها فى كل سطر !

الاب : ليس هذا رأيى الشخصى ، ولكنى ظننت اننا قد ننتهى الى الاقتناع بالخطأ الواضح ، لو أننا ثابرنا على تكراره . ولذلك رأيت أن أكرر هذه الحسبة مائة مرة .. على سبيل التجربة !



بنيلوبى : كررها مائة مليون مرة أن شئت ، فلن تكون ٢+٢ الا أربعة فى جميع الاحوال!

الاب : ولكنى رأيتكم الآن تجمعون ٢+٢ ، فتجعلون حاصل الجمع ٥ ! .. أما رأيى الشخصى فى الموضوع ، فهو أنك يا ابنتى قد أسأت معاملة زوجك العزيز !

بنيلوبى : افتراء .. بل أننى كنت أعبده وأهيم به ليل نهار .

الاب : وهل من رجل يستطيع أن يصبر على هذا التدله من امرأة تعاشره مدة طويلة ؟ .. لقد كنت تحبين المثلجات وانت طفلة ، فهل تحبين أن يكون افطارك وغذاؤك وعشاؤك من هذه المثلجات دون غيرها ؟

بنيلوبى : ان هذا يكون عذابا ، لا متاعا ، بالطبع !

الاب : وكذلك الحب الشديد ، الملحاح بالليل والنهار ! أحسبك لاتتركين زوجك يخرج دون أن تودعيه هامسة له (**ويبدأ فى تقليدها**) : « متى تعود يا حبيبى ؟ » . فاذا عاد وجدك جالسة فى الانتظار ، لتبادريه متسائلة : « أين كنت يا روحى ونور عينى ! .. حدثنى عن كل دقيقة قضيتها بعيدا عنى بالتفصيل !» . وحين يجلس المسكين ليقرأ الصحف او يدخن ــ وهو يتوق الى لحظة هدوء ــ تجلسين على ذراع الكرسى ، أو ربما على ركبتيه ، وتطوقينه بذراعيك .. الحق يا بنيتى ان هذا شىء مزعج وثقيل وسخيف ، ومزهق للانفاس ! .. الا ليتك تعملين على استرجاع زوجك الى بيته ، بدلا من الطلاق !

بنيلوبى : وهل هذا ممكن يا أبى ؟ .. كيف ؟

الاب : بالكياسة والذوق والتعقل . ويجب ، لكى نصل لحل هذه المسألة ، أن نعرف أولا نقطة مهمة جدا : هل « آدا فرجيسن » ، التى يحبها زوجك .. جميلة ؟

بنيلوبى : أوه ! .. انها آية فى الجمال .. فتانة !

الاب (متنهدا) : سنسترده منها اذن ! .. ان المسألة فى غاية البساطة . ترخين له العنان .. تتركين له الحبل على الغارب !

بنيلوبى (متهكمة) : أأترك له الحبل كى يشنق به نفسه ؟

الاب (بجد) : بل ليشنق به غريمتك الحسناء . أتركيه يسهر ويعود مع باعة اللبن فى الصباح .. ولا تستجوبيه ، ولا توجهى اليه سؤالا واحدا ، بل كونى لطيفة معه جدا .. وتظاهرى بأنك تصدقين أنه أنهك قواه فى تمريض العجائز طول الليل .. ورفهى عنه ووفرى له الراحة . فاذا هم بالخروج ، لا تسأليه الى أين ، ولا تدعيه يدرك بأى شكل من الاشكال أنك ترتابين فى سلوكه .. وانتهزى كل فرصة ممكنة للجمع بينه وبين صاحبته !

بنيلوبى : أجمع بينهما ؟ !

الاب : ما وسعك ، فهذه هى المهارة .. انها تحرمه من ثلاثة أرباع لذة العشق الحرام ، وهى لذة الاختلاس والمجازفة ..

بنيلوبى : والربع الباقى ؟

الاب: أتركيه للزمن وللحماقات التى سترتكبها « آدا فرجيسن » ، فهى امرأة ، ولا مندوحة لها من ارتكاب الحماقات التى كنت ترتكبينها . اتركيها هى تجلس بدلا منك على ذراع مقعده أو ربما على ركبتيه ! .. واتركيها تسأله بدلا منك عن مواعيده وتحركاته ، واتركيها تمسك بطرف ثوبه - اذا هم بالانصراف - وتضمه الى صدرها وتناشده أن يمكث معها خمس دقائق أخرى ! .. فالدقائق الخمس التى يبقاها الرجل مع المرأة -

مهما يكن متعلقا بها ــ هى المسمار الاخير فى نعش الحب ! ..
وأتركيها تسأله وهو يغادرها ، بعد أنقضاء الدقائق الخمس ، فى اى وقت سيعود . فان هذا السؤال هو الحفرة التى يوسد فيها الحب ، فلا قيامة له بعدها أبدا !

* * *

• **ويعود** الزوج من الخارج ، فاذا به رجل وسيم ظريف . ولا يلبث الخادم أن يعلن مقدم « آدا فرجيسن » ، فتدخل الغانية وكأنها أقبلت لتزور صديقتها « بنيلوبى » ، لا زوج الصديقة . ثم ينصرف الاب والام والخال ، فترافقهم « بنيلوبى » الى الباب مودعة ، ويخلو الجو للعاشقين .

ديكى : ما الذى أتى بك الآن ؟

آدا : أتيت لانك لم تقل لى قبل انصرافك متى سأراك غدا ؟ فى أى ساعة ؟ لم أطق صبرا ياحبيبى . ولست آمن التليفون على أسرار حبنا .

وفى هذه اللحظة تعود « بنيلوبى » . وبعد حديث قصير جدا ، تسألها « بنيلوبى » عما اذا كانت مرتبطة بأى موعد فى المساء ، وما أن تجيبها بالنفى حتى تسألها ان تساعدها :

بنيلوبى : الواقع أننى أحس تعبا طارئا ، وكنت قد وعدت ديكى أن أرافقه الى الاوبرا . . وهو لا يحب الذهاب الى المسرح بمفرده ، فهلا ذهبت معه من أجل خاطرى ؟

وبعد تمنع خفيف ، تقبل « آدا » القيام بهذه « المهمة » ، فيصطحبها « ديكى » ويخرجان .. وما أن يقفل الباب خلفهما حتى تنهض « بنيلوبى » وكأنها تريد أن تناديهما ليعودا ، بيد أنها تغالب نفسها وتقول : « كلا . يجب أن أصمد ما دمت قد بدأت » !

- ٢ -

• **وترفع** ستار الفصل الثانى عن حجرة الفحص الطبى بالطابق الأرضى من منزل الدكتور أوفاريل ، حيث يهم مريض بالانصراف ، تاركا جنيهين، أجر الاستشارة. وعلى أثر انصرافه يقبل الاستاذ جوليتلى **حمو الطبيب** فيدعوه هذا لتناول الشاى معه فى نفس الحجرة .. ونفهم من ذلك أن الساعة حوالى السادسة مساء ، وأن موعد العيادة قد انتهى .. ويدعو «ديكى» زوجته بنيلوبى ، كى تهبط من الطابق الاعلى ، فتتناول معهما الشاى .. وفى انتظار حضورها يشكو لحميه كساد الحال !

ديكى : تصور أن هذين الجنيهين هما كل ما دخل جيبى هذا النهار !

وتدخل ((بنيلوبى)) ، فيلاحظ والدها أنها ترتدى ثوبا جديدا فاخرا . فيحدثها فيما يشكوه زوجها من كساد ، وينصح لها بالقصد فى النفقات . ويتغيب ((ديكى)) عن الحجرة لحظات ، فيخلو الجو لبنيلوبى ووالدها .

بنيلوبى : لقد طفح الكيل يا أبى . لم يعد فى استطاعتى أن أستمر فى تجاهل الحقيقة الواقعة ، بعد أن قضيت شهرا كاملا فى عذاب مستمر .. اننى أستقبل تلك المرأة فى كل يوم باسمة هاشة، وأتحين كل فرصة ممكنة كى أجمع بينهما فى خلوات .. وأمنع نفسى من البكاء ـ حين أنفرد بذاتى ـ حتى لا يلمحا أثرا من الدموع فى مقلتى ، أو تقرحا فى جفنى

الاب : انما يحيرنى فى الموضوع هو مشكلة حساب الوقت! .. كيف يجد زوجك الفراغ اللازم من وقته لصحبتها ؟

بنيلوبى : انه يتدبر الامر بكل الطرق .. يقتطع من وقت عمله متعللا بمريضته المزعومة التى يسميها مسز ماك .. تصور يا أبى ان هذه العجوز المسكينة أجريت لها من الجراحات

ـ فى هذا الشهر بالذات ـ عملية فى كل يوم من أيام السباق !

الاب : ولماذا فى أيام السباق بالذات ؟ !

بنيلوبى : لان العزيزة «آدا» مشغوفة بالسباق .. و «ديكى» العزيز هو الذى يدفع قيمة المراهنات طبعا .. ومن المعيب جدا أن يمس بنسا من ربحها فى حالات الكسب ، بالطبع ..

الاب : من أين لك أن تعلمى هذا ؟ .. أتتلصصين على حساباته ؟

بنيلوبى : أنا ؟! أنا أفعل شيئا كهذا ؟ .. كل ماهناك هو أنى دأبت على أن أشترى لنفسى ثوبا جديدا فاخرا ، فى كل مرة يرافق « آدا » فيها الى ميدان السباق تحت ستار اجراء عملية لمسز ماك .. وغالبا ما أختار الثوب لفداحة ثمنه قبل أناقة منظره ! .. ولست أدرى الان ماذا أصنع وقد تطورت المسألة الى ما هو أخطر من العمليات الجراحية .. فلقد أجمع الأطباء على ضرورة انتقال مسز ماك الى الريفييرا ، ولا بد من أن تصحبها صديقتها « آدا » ، وطبيبها المعالج !

ويدخل ديكى ، فيصمتان .. وبعد حديث يتجلى فيه الاقتضاب والتوتر ، ينصرف الاب ويترك الزوجين وحدهما . وبمجرد خروجه ينكشف ما وراء هذا التوتر المستتر .

ديكى (مخرجا من جيبه مجموعة أوراق) : ما هذا كله ؟

بنيلوبى (ببراءة مفتعلة) : واضح يا عزيزى أنها فواتير ثيابى الجديدة . ألست تراها جميلة ؟

ديكى : وغالية أيضا ، أن ثمن كل فستان ـ فى المتوسط ـ ٣٥ جنيها ! .. لم أعد أحتمل هذا الاسراف ، فقد بلغت مشترياتك فى هذا الشهر نحو مائتى جنيه !

بنيلوبى : ان لديك ـ والحمد لله ـ مريضة بمثابة منجم ذهب ، وهى مسز ماك !

ديكى : ولكني لم أتسلم بعد مليما واحدا منها .

بنيلوبى : فكرة ! .. ابعث اليها بكشف الحساب ، بمناسبة تأهبها للسفر .

ديكي : قد تقتلها المفاجأة ، وهى بعد ضعيفة !

* * *

• **وتقبل** اذ ذاك «آدا فرجيسن» ، فتعتذر عن اضطرارها الى أن تقطع عليهما جلستهما ، لانها جاءت فى طلب مشورة طبية . وهنا تنصرف « بنيلوبى » ، فتتعلق « آدا » بعنق الطبيب وتقول — بدلال مصطنع — انها جاءته تسأله خدمة صغيرة .. **لقد ابتاعت سندات فى « البورصة » ، وينقصها مائة وثمانون جنيها لتغطية الثمن . ويختلج جفنا « ديكى » لضخامة المبلغ — الذى سألته أن يقرضها اياه — ولكنه يحرر لها اذنا على مصرفه .**

وتعود « بنيلوبى » — بعد انصراف « آدا » — فتجده شارد البال . وما أن تسأله عما به ، حتى يقول : « كنت أسائل نفسى : ألم يدهشك أن تسافر آدا معى الى باريس ، فى رفقة مسز ماك ؟ »

وتنفجر « بنيلوبى » ضاحكة .. ويحملق فيها « ديكى » مذهولا ، وهى تستغرق فى الضحك ، ثم لا تلبث أن تقول : « أتظننى بلهاء ؟ .. اننى أعلم بما بينكما من البداية ، ولكنى حرصت على التعامى حتى لا أزعجكما ! ! »

ويشعر ديكى بخجل شديد ، فلا يسعه الا أن يعتذر ، والا أن يبدى ألمه لانها ظلت تضحك منه طول الوقت وتستغفله ، وهو يخالها غافلة عن الحقيقة .. ولا يتمالك أن يعدها بأن يقطع علاقته بآدا فورا . ويتصل بدارها تليفونيا ، فيجدها متغيبة ، ولكنه يقول للخادم : **« أخبرى مسز فرجيسن بأن صديقتها العزيزة — مسز «ماك»— قد أصيبت بهبوط مفاجيء**

في القلب ، سيمنعها من السفر الى أجل غير مسمي ! »
وتنزل الستار مؤذنة بانتهاء الفصل الثاني

- ٣ -

• **وترفع** ستار الفصل الثالث عن «بنيلوبى» وقد جلست الى والديها، فراح أبوها يرسم لها خطة الاحتفاظ بقلب زوجها بعد أن استردته . **فهو ينصح لها بأن تجعل « ديكى » يشعر بأن عليه أن يحاول اقتناص قلبها باستمرار ، فلا يطمئن الى أن هـذا القلب أصبح ملك يديه نهائيا . اذ أن لذة السعى الاقتناص ، تذكى الحب .**

ولا يلبث أن يفد « ديكى » . وهنا ينتهز الوالدان الفرصة لينصرفا . وما أن يغادرا الدار ،حتى تأمر« بنيلوبى» وصيفتها بأن تعد لها حقائب الثياب لرحلة تستغرق ثلاثة أيام .

ديكى : أراحلة أنت ؟ .. الى أين ؟ ولماذا ؟

بنيلوبى (ببراءة مصطنعة) : الى الريف .. سأقضى بضعة أيام مع آل هندرسون،حتى لا أمكث هنا وحدي ، عندماتسافر أنت مع مسز ماك !

ديكى : ولكنى ألغيت رحلة باريس !

بنيلوبى (بعذوبة بالغة) : أما أنا ، فقد ارتبطت بموعد مع آل هندرسون ، وهم الان فى انتظار قدومى . فدعنى أذهب . وعلى فكرة . . يجب أن تخرج الآن ، فهذا موعد زيارتك المعتادة لبيت مسز ماك !

ديكى (بحدة) : عليها اللعنة ! لقد ماتت مسز ماك .

بنيلوبى : مسكينة ! .. (**وكأنها ترفه عنه**) بوسعك الآن أن ترسل قائمة الحساب الطويلة الى الورثة !

ديكى (فى أسى) : بنيـلوبى ! .. لدى اعتراف خطير ! .. **(باندفاع)** ان مسز ماك لم توجد قط !

بنيلوبي (بمنتهى العذوبة) : وهل تظنني آمنت بوجودها

يوما ؟ .. ولكنى كنت أشعر بسرور ــ على كل حال ــ لعنايتك بانتحال الاعذار لتبرير لياليك التى كنت تقضيها فى الخارج .. فى حجرة نوم مسز ماك العجوز المسكينة !

ديكى : انك ذكية الى درجة الخبث ! انك تذهلينني ... ولست أدرى ماذا راقنى فى « آدا » وأنت أفضل منها وأفتن ألف مرة ! .. ليتك تعلمين كم سامتنى سوء العذاب !

بنيلوبى (وهى تهز رأسها) : أظنها كانت لا تفتأ تسألك عما اذا كنت تحبها .. واذا هممت بالخروج سألتك متى تعود .. واذا عدت سألتك أين كنت وماذا صنعت فى كل دقيقة ؟

ديكى : ما أعجب هذا ! كأنك كنت معنا ! .. لننس الماضى على كل حال .. والآن ، هل تساعديننى فتخبرينها ــ بلباقتك الفائقة ــ بأن كل شىء قد انتهى بيننا الى الابد ؟ !

وفى هذه اللحظة تعلن الوصيفة قدوم آدا للزيارة . فيخرج « ديكى » من باب غير الذى تدخل هى منه .

آدا : هل الدكتور هنا ؟ .. أريد أن أقابله

بنيلوبى : ان المسكين نائم ، متعب ، أثر سهر طويل بجانب سرير مسز ماك المسكينة ، الى أن لفظت أنفاسها على صدره ، فهو حزين جدا لهذا السبب ومنهك القوى !

آدا (بجزع) : أتقولين ماتت ؟

بنيلوبى : تشجعى ياعزيزتى ، فأنا أعلم أنهـا كانت أعز صديقاتك !

وتواسيها وتبكيان معا . ثم يدخل « ديكى » فتسأله زوجته ان يبقى مع « آدا » ريثما تحضر لها بعض الشراب . وما أن تخرج « بنيلوبى » ، حتى تبدى آدا التنمر لديكى .

آدا : والآن ، ما هذه المهزلة ؟

ديكى : ان مسز ماك انسان .. والانسان ــ كما تعلمين ــ مخلوق فان .. مصيره الى الموت !

آدا : دع هذا العبث ! أين كنت ليلة أمس ؟

ديكى : بجانب سريرها ، باذلا جهدى فى تخفيف آلامها

آدا (تقاطعه) : كفى كذبا !

ديكى : لا تؤاخذينى ، فقد تعودت فى المدة الاخيرة الكذب حتى صدقته أنا أيضا . والمسألة كلها - باختصار - أنى اكتشفت فجأة أنى أحب بنيلوبى حتى العبادة !

آدا : اشبع بها ! .. وهل تظننى سأموت ؟ ماذا صنعت بخطاباتى وصورى ؟

ديكى : كنت أحرقها أولا بأول كأمرك .

آدا (بحقد) : آه ، أما أنا ياصاحبى فأحتفظ بخطاباتك كلها ، وقد يلذ لبنيلوبى أن تقرأها !

ديكى (هادئا) : اطمئنى ، فهى تعرف كل شىء بحذافيره . كانت تعرف منذ البداية ، ولكنها كانت تتظاهر بالغفلة ، استخفافا بنا !

آدا (باكية) : ما أفظع هذا ! انها تحتقرنى الى الدرجة التى لاترانى معها أهلا لان تغار منى !

بنيلوبى (وهى داخلة) : أهى دموع حقيقية فى هذه المرة ؟.. ان خالى « دفنبورت » هنا .. فى حجرة الجلوس .. وهو مغرم بك ، ويتمنى أن تتعشى معه !



وتمسح آدا دموعها ، واذا « دفنبورت » يلج الحجرة .. ويقبل على « آدا » اقبالا واضحا ، ولا تلبث الغانية أن تتفق معه على أن يرافقها الى باريس .

وما أن تنصرف « آدا » مع « دفنبورت » ، ويخلو الجو

للزوجين ، حتى يتبين « ديكى » أن زوجته مصرة على الرحلة الى الريف ، وفاء بوعدها لآل هندرسون .. ويحاول «ديكى» اقناعها بالعدول عن الرحلة ، ولكنها تزداد اصرارا .

ديكى : ليكن ما تشائين ، ما دمت راغبة عن صحبتى ، بل عن محبتى .. فلولا غبائى لأدركت — من عدم اكتراثك بخيانتى — أنك لم تعودى تحبينني .. آه يا ربى ! .. ولكن ، اسمعى ! لن اسمح لك بالرحيل ! **(يسند ظهره الى الباب)**

بنيلوبى (بغضب) : ان كان فى عزمك أن تبقينى بالرغم من ارادتى ، فهذه مسألة أخرى !

ديكى : انك على حق . يجب أن تبقى باختيارك لا مرغمة . ولكن ، مهلا ، ولنتفاهم !

بنيلوبى : لن أتفاهم قبل أن تترك هذا الباب حرا

ديكى (يترك الباب مذعنا) : آه ، ليتك تعلمين كم أحبك !

بنيلوبى : لو كنت تحبنى حقا ، لما حاولت حرمانى من متعة

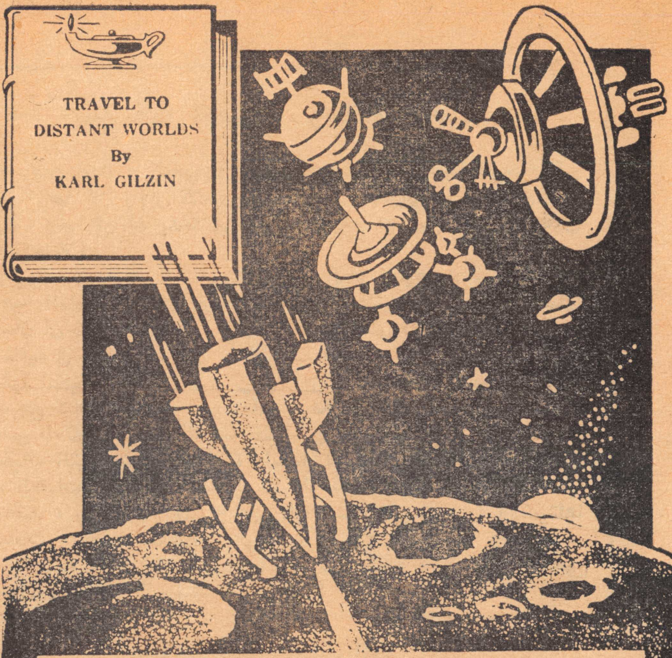
ديكى : هذا حق، فما أشد أنانيتى ! .. اذهبى يا حبيبتى

بنيلوبى : أأفهم من هذا أنك لم تعد تريدنى على أن أبقى ؟

ديكى : بل أريدك ، ولا أدرى كيف سأقضى الوقت بدونك ، ولكن تفكيرى فى سرورك يطفى على ألمى لفراقك .

بنيلوبى : اذن مر الخادم بأن تعيد الحقائب ، وان ترد الثياب

ويكاد « ديكى » يجن فرحا ، فيقفز نحو زوجته .. ويتعانقان ، بينما تهبط الستار .



نحو عوالم بعيدة!

استعراض طريف لما أحرزه العلم من تقدم فى سبيل الوصول إلى الكواكب الأخرى، ولمكان "الأرض" من الكون وكواكبه

للباحث الروسى الكبير : كارل جيلسن

عرض وتلخيص : فوزى الشتوى

بين خيال الادباء .. وحقائق العلم !

◆ قدم اليك « كتابى » - فى العدد ٦٨ - وصفا للرحلة الى القمر ، كما كان رجال الادب والقصصيون يتصورونها فى مطلع هذا القرن ، ولم تكن قد بدت فى أفق العلم نذر توحى بالامل فى تحقيق هذه الامنية !

واليوم ، يقدم لك « كتابى » الجانب الآخر للموضوع .. يقدم لك الناحية العلمية بحقائقها وبياناتها المادية ، التى استطاع بفضلها الانسان أن يتغلب على قيود الارض - يوم أطلق الروس اول اقمارهم الصناعية فى الفضاء - وان يخطو أولى خطواته لغزو الكون ، يوم ارسلوا الكلبة « لايكا » لتعيش فى الفراغ .. وهذه الصورة ننقلها اليك عن كتاب « السفر الى عوالم بعيدة » ، الذى يعرض العالم الروسى « كارل جيلسن » فيه كثيرا من معلومات البشر عن الفضاء ، والعقبات التى تعترض السفر ، والحيل التى فكر فيها العلماء لتذليل هذه العقبات . ولكى نبسط لك الموضوع ونعفيك من التشعب والتعقيد ، ركزنا الاهتمام على الرحلة الى القمر ، ووشيناها بالبيانات وبأحدث النظريات الروسية فى غزو الكون .. ومما يزيد الكتاب متعة ، ان المؤلف صاغ المعلومات العلمية فى أسلوب قصصى مشوق . نتركك الآن لتتبينه بنفسك !

« اكسبريس » الى القمر

◆ **كانت** القاعة الصغرى بدار الفلك بموسكو ، تزخر فى ذلك المساء - الليلة التاسعة عشرة من شهر يوليه من أحد الأعوام الأخيرة من القرن العشرين - بمشاعر متباينة لم يألفها جوها .. مشاعر كانت تتلاطم وتمتزج فى آن واحد ، بين غبطة وتحمس وأسف وحنق ، فتتفاعل فى صدور الطلبة الشبان والشابات ، الذين التفوا حول أساتذتهم عقب الاجتماع الذى عقدته الجمعية الفلكية ، وقررت فيه منح الاوائل العشرة من الطلبة ، حق القيام برحلة الى القمر ، احتفالا بانقضاء خمس عشرة سنة على وصول أول انسان الى هذا الكوكب

وبالرغم من النشوة العارمة ، فقد احس الفائزون بحاجة ماسة الى ان يعودوا الى قراءة كل شىء عن القمر والسفر فى الفضاء ، خلال الاسبوع الذى كان يفصلهم عن بداية الرحلة .. كما كان عليهم أن يعدوا شتى الأجهزة لتسجيل كافة الملاحظات، منذ الثانية الأولى فى الرحلة حتى الثانية الاخيرة . لذلك أقدموا بعد يومين من تلك الليلة السعيدة ـ فى نظرهم ـ على زيارة ((المطار الكونى)) لمشاهدة السفينة المعدة لرحلتهم ..

فاذا بها من أضخم سفن الفضاء التى فى المكان ، نظرا لانها تعمل على الخط السريع (موسكو ـ القمر) ، ولا ترسو ـ خلال الرحلة ـ على أية محطة للتزود بالوقود ، كما تفعل السفن الصغيرة الأخرى . وكانت الطائرة على شكل «سيجار» ضخم ، ارتفاعه ٥٠ مترا ، ووزنه ٩٤٠ طنا ، وقطره نحو ستة أمتار . ولم يذهل الطلبة لهذه الضخامة ، فقد كانوا يعرفون أن الطاقة الذرية لاتزال فى مرحلة التجارب فى السفن الكونية ، فكان من البديهى أن تعتمد سفينتهم على الوقود الكيميائى الذى يشغل نحو ٨٦ فى المائة من وزنها . وكانت المسافة مقسمة الى ثلاث مراحل ، كلما فرغ وقود مرحلة منها ، تخلصت الطائرة من خزانات هذا القدر من الوقود ، لتعود الى الأرض بالمظلات الواقية .. وهكذا لم يكن الجزء الذى يصل الى القمر ـ من الطائرة ـ يزيد فى الوزن على أربعة أطنان ، ولكنه يحمل وقودا زنته ١٦ طنا ، ومعدات وزنها ستة أطنان

وراح الدليل يحدث الطلبة ، مقارنا سفينتهم هذه،بالسفينة التى بدأ بها الانسان مغامراته فى فضاء الكون ، فاذا سفينتهم تبدو قزما صغيرا الى جانب تلك . فان ضعف مواد الوقود فى الماضى ، كان سببا فى أن سفن الفضاء كانت ضخمة الحجم . وكانت الحاجة الى حمل كميات هائلة من الوقود ، لا تمكن

السفينة من أن تحمل من الركاب والاجهزة مايزيد على واحد في المائة من وزنها . ثم توالت الاكتشافات وظهرت موادجديدة يسرت زيادة الحمولة ، وذللت كل العقبات ، اللهم الا نزرا يسيرا . **ولعل أكبر عقبة بقيت ، هى تلك التى تتمثل فيما تلقاه السفينة الكونية من عناء ، وهى تخترق الغلاف الهوائى حول الارض . اذ أن هذا الغلاف بتياراته يعتبر أشبه بـ((فرملة)) تعوق انطلاق السفينة ، وتساعدها فى ذلك جاذبية الارض . وكلما ابتعدت السفينة عن سطح الارض ، فان مقاومة الهواء وشدة الجذب تضعفان . وعلى هذا الاساس يقدر ما تحتاج اليه السفينة من وقود فى رحلتها !**

ومن المعروف أن احتراق أية مادة كيمياوية ، ينتج غازات ذات ضغط . فاذا حدث الاحتراق فى « غرفة » مغلقة ، فان هذه الغازات تحدث ضغطا على شتى جدران « الغرفة » . وهذا الضغط هو الذى يقذف القنابل من فوهات المدافع

ولقد استخدمت هذه الفكرة فى اطلاق الصواريخ أو سفن الفضاء ، باحداث فتحات فى مؤخرة السفينة ، مما يؤدى الى تركيز الضغط على المقدمة ، فيدفع السفينة فى الفضاء . **ولكى تتحرر السفينة من مقاومة الهواء ومن جاذبية الارض ، فانها تحتاج الى الانطلاق بسرعة قدرها ١٥ر٦ كيلو متر فى الثانية الواحدة ، أى حوالى ٥٦٠٠٠ كيلو متر فى الساعة !**

وقال الدليل للطلبة أن هذا لا يعنى التحرر من الجاذبية الارضية فور بدء الرحلة .. « بل الواقع أن الدقائق القليلة التى سيعمل المحرك فيها ، خليقة بأن تعرضكم لضغط جبار يحتم عليكم الرقاد . ذلك لان ازدياد السرعة يرافقه ازديادفى الجاذبية الارضية ، حتى ليصل وزن كل منكم الى ثلاثة أمثال ماكان عليه قبل ذلك . وهذا من شأنه أن يحدث تأثيرا قويا على اعضاء الجسم ، والدم ، فيحسن الاستلقاء على الظهر »

• **والاحتفاظ** بمستوى ثابت لحالة الضغط على أجسام ركاب السفينة ، فقد زودت محركاتها بأجهزة آلية تعمل على ضبط تزايد السرعة تبعا للعوامل المختلفة التى تساعد على تخفيف وزن السفينة فى أثناء انطلاقها . فمحرك هذه السفينة ـ على ماذكر الدليل ـ يتألف من سبعة صواريخ ، قوة دفع كل منها ٤٥٠ طنا ، وتستهلك من الوقود سبعةأطنان ونصف طن فى كل ثانية . ومن ثم فان وزن السفينة يقل ـ بهذا المقدار ـ فى كل ثانية . ومن ناحية أخرى ، نجد أن السرعة المتزايدة خليقة بأن تتجاوز النطاق المحدد ـ اذا تركنا قوة الدفع على حالها ـ وربما أصبحت خطرا على الركاب . ولهذا تزود غرف احتراق الوقود ، بأجهزة تقيس قوة الدفع وتثبتها فى مستواها عن طريق تحديد كمية الوقود التى تنتقل الى غرف الاحتراق والاقلال منها .

وعندما تنجز محركات المرحلة الاولى مهمتها ، وتستهلك كل وقودها ـ وقدره ٦٨٥ طنا ـ فان وزن السفينة يهبط الى ٢٥٥ طنا ، فتنقص قوة دفع المحركات الى حوالى ٨٠٠ طن . وفى هذه الفترة ، تنفصل الاجهزة الخاصة بالمرحلة الاولى ـ عن جسم السفينة ـ بطريقة تلقائية ، فتبدأ محركات المرحلة الثانية فى العمل ، حتى اذا أدت مهمتها انفصلت ، هى الاخرى ، وعادت الى الارض . أما محركات المرحلة التالية ، فتعمل عندما تدخل السفينة فى جاذبية القمر . وقد روعى أن تكون فى مقدم السفينة ، لتعمل كفرملة تمنع اصطدام السفينة بأرض القمر !

ومن الطريف أن المدة التى تعمل فيها المحركات ، لاتتجاوز ثمانى دقائق : منها ست دقائق فى عملية الاقلاع من الارض ومغادرة هوائها الكثيف ، ودقيقتان فى اكتساب مزيد من

السرعة .. أما بقية الرحلة – التى تستغرق ثلاثة أيام – فتتم بالانطلاق الحر ، وبغير محركات ! . اذ أن السفينة عندما تتحرر من المقاومة الهوائية فى غلاف الكرة الارضية ، لا تعود متأثرة – فى الفراغ – الا بجاذبية الارض والشمس والقمر . وتكون الجاذبية الارضية هى المؤثر الاكبر – فى بادىء الامر – على أن عملها لايتجاوز اضعاف سرعة السفينة ، لتتناقص كلما اقتربت من القمر .. حتى اذا اجتازت السفينة الخط الذى تتعادل عنده الجاذبية الارضية مع الجاذبية القمرية، أصبحت هذه الاخيرة هى المؤثر الاكبر ، فتأخذ السفينة فى السقوط الى القمر . وتبعا لجاذبيته تزداد سرعتها فى اتجاهه . وعلى ارتفاع معين من سطحه يبدأ محرك المرحلة النهائية عمله ، لا ليكون مصدر قوة دافعة تزيد من سرعةالسفينة، وانماليكون كفرملة تخفض سرعة الهبوط الى الصفر .

فى داخل السفينة

• **وصحب** المرشد الطلبة فى زيارتهم لجوف السفينة ، فشاهدوا عددا ضخما من العمال فى عمل دائم ، ينقلون المعدات على تباين انواعها وأشكالها .. وانكب آخرون على فحص كل شبر من أجزائها ، فان أى خلل فى أى جهاز قد يعرض حياة المسافرين للخطر

ويتمثل الضمان الوحيد للحياة فى الفضاء ، فى الحرص التام على نقل كل عوامل الحياة المألوفة على الارض الى داخل السفينة : من درجة رطوبة، وحرارة، واكسوجين، وضغط .. وهذا يحتم أن تكون السفينة محكمة لا تسمح بنفاذ العوامل الخارجية الى داخلها . وفى الوقت نفسه تحتفظ بالبيئة الداخلية فى الوضع الملائم للحياة .

ولعل الاكسوجين هو أهم عوامل الحياة فى داخل السفينة، ولذلك كان من الضرورى توفر الاجهزة التى تنقى جوها من

غاز ثانى اكسيد الكربون الذى يفرزه الانسان . وليس معنى هذا طرده الى الخارج ، بل ان الوسائل الكيمياوية الحديثة جعلته من المواد الثمينة فى سفن الفضاء ، اذ أن من الميسور تحويله الى ماء ، وتخليصه من كربونه ، ثم اعادة استخدامه كأكسوجين ، بعد أن يمرر فى أجهزة خاصة تزوده بالرطوبة اللازمة لسلامة الحياة

وتدل الدراسات على أن الانسان يحتاج الى كيلو جرام واحد من الاكسوجين فى اليوم . كما أنه يحتاج الى حوالى كيلو جرامين ونصف كيلو جرام من الماء ، فى اليوم الواحد . **ولما كان الماء الذى يشربه المرء ، يتحول الى عرق يتبخر فى الهواء ، لذلك تجهز السفينة بأجهزة لجمع هذا البخار وتنقيته واعادة استخدامه . ومن الطبيعى أن هذا معناه الاستغناء عن شحن السفينة بكميات هائلة من الاكسوجين والماء ، اذ من الممكن الاقتصار على كميات محدودة تستهلك وتجدد باستمرار .**

ولقد تقدم علم التغذية فى السنوات الاخيرة بدرجة كبيرة ، سيضاعف من قيمتها لدى ركاب سفينة الفضاء ، أن تقدم علم الكيمياء أدى الى امكان تحويل الفضلات الى مواد مفيدة .. ومن هذا نرى أن مايحتاج اليه كل راكب - من اكسوجين وماء وغذاء - لن يتجاوز خمسة كيلو جرامات فى اليوم . وقد صممت السفينة على هذا الاساس

الطاقة الشمسية فى السفينة

• **وفوق** السطح العلوى للسفينة ، أشار الدليل الى خزانات سوداء اللون ، ومجموعات من المرايا والانابيب .. ثم ذكر ان هذه جميعا هى وسائل الانسان للافادة من حرارة الشمس وأشعتها . فالخزانات السوداء تمتص الحرارة وتوزعها على عدد من الاجهزة المختلفة التى تحولها - بمساعدة الانابيب - الى طاقة كهربائية .. كما أن المرايا تتولى عكس

الاشعة الشمسية الى خزانات أخرى تحتفظ بالحرارة أطول مدة ممكنة ، لنفس الغرض

وفي الوقت ذاته ، نجد أن السفر في الفراغ يحتاج الى تجهيز جوف السفينة بوسائل التبريد . فان اتجاهها نحو الشمس يرفع الحرارة في داخلها الى درجة تتعذر معها الحياة . ومن الطريف أن الطاقة الشمسية ــ المولدة بالطريقة السالفة ــ هي التي تستغل في تبريد غرف السفينة التي سيكيف الهواء والضغط في داخلها ، بحيث يعادلان ماهو مألوف فوق الجبال

واستأنف الطلبة جولتهم في المطار ، فشاهدوا أبراج مراقبة السفن الكونية ، ورأوا ــ على لوحات التليفزيون والرادار ــ بعض هذه السفن وهي تندفع نحو الكوكب ، كما سمعوا روادا في بعض الكواكب ، وهم يدلون بما لديهم من أنباء !

.. وبدأت الرحلة !

• **ومرت** الايام مسرعة ، وحان يوم السفر .. وصعد الطلبة الى الغرفة المخصصة لهم في السفينة ، في رفقة المضيفة والربان ومساعديه . **ومن نوافذ تلك الغرفة ، شاهدوا أحد الجزءين اللذين يتألف منهما برج السفينة ، وهو يتحرك في الطريق المرسوم له ، مبتعدا عنها . حتى اذا اغلقت الابواب في احكام ، وتأهبت السفينة للرحيل ، تحرك الجزء الثاني من البرج ، منفصلا عنها ..** وانطرح الطلبة على الاسرة العشرة التي رتبت في صفين على جانبي الغرفة،كل سرير فوق الآخر .

وان هي الا دقائق حتى انطلق صاروخ أخضر ، فاذا الحياة تدب بطيئة في محركات السفينة .. ثم أخذت قوة المحركات تزداد ، وما لبثت السفينة ان بدأت تصعد ، حتى أرتفعت عن قاعدتها، وتحررت من القيود التي كانت تربطها الى الارض، واذ ذاك اشتد نشاط المحركات ، وراحت تدفعها بسرعة حتى غيبتها في الافق !

الدقائق الاولى فى الفضاء

• **وخيم** الصمت على المسافرين ، واكتفوا بأن راحوا ينقلون البصر فيما حولهم .. وما لبثوا أن لمحوا فى سقف الغرفة بابا أدركوا أنه يؤدى الى غرفة رجال السفينة . وكانت الى جواره ساعة ضخمة ، استلفت نظرهم اليها كبر عقرب الثوانى فيها . **وفيما كانوا يراقبون هذا العقرب ، شعروا بثقل كبير يجثم على صدورهم . وحاولوا الحركة ، فاذا بالحشيات وكأنها التصقت التصاقا محكما بظهورهم .. وأدركوا أن السفينة كانت تكتسب سرعة جبارة ، وأن من الخير أن يغالبوا شد الجاذبية الارضية بالاستلقاء والسكون .**

وكان مقياس الارتفاع فى حركة دائبة .. وألفوه بعد ثلاث دقائق يسجل ارتفاعا قدره ٢٠٠ كيلو متر عن سطح الارض . وارسلوا البصر خلال النوافذ ، فاذا زرقة السماء تختفى ليحل محلها مزيج من اللونين الاسود والبنفسجى ، شاع فيه ضوء باهت ، تخللته آلاف النجوم اللامعة

وعجزوا عن معرفة الاتجاه الذى كانت السفينة تندفع فيه ، ولكنهم حدسوا أنها كانت تتجه شرقا ، لتفيد من سرعة دوران الارض حول محورها . وكان الفضاء يزداد ظلمة فى جانب تكثر فيه النجوم اللامعة ، بينما كانت أشعة الشمس تفيض — فى جانب آخر — فى حدة ووهج يعشيان الابصار .

وسجلت الساعة مرور ست دقائق ، فتوقفت محركات الجزء الخاص بالمرحلة الثانية — من السفينة — وسقطت بمظلاتها الى الارض ، وفى الحال أحس المسافرون بزوال الكابوس الذى كان يجثم على صدورهم ، وشعروا بالاسرة وكأنها تهوى من تحتهم .. وبحركات لا ارادية ، تعلق كل منهم بجزء من فراشه . **وكانت هذه الحركات المفاجئة ، مع زوال قوى الجذب ، عاملا حرك أجسامهم فى أوضاع طريفة ،**

فاذا هم معلقون فى الهواء على غير نظام أو تناسق ، وقد بدا بعضهم واقفا على رأسه ، أو مرتكزا على احدى ذراعيه .. كانوا معلقين على غير هدى لايعرفون « فوق » معينا ولا « تحت » . فقد زالت الجاذبية الارضية ، وصارت لاية حركة عضلية نتائج بعيدة عن كل حدس أو ارتقاب !

وأسعفتهم المضيفة ، فساعدت كلا منهم على العودة الى مكانه ، وأعطته نعلين مغناطيسيين ، ما أن ثبتهما تحت قدميه ، حتى التصقا بالاشرطة المعدنية الممتدة فى أرض السفينة ، فاذا بهذه الاشرطة المعدنية هى « أرضهم » الجديدة .. وبمعونة المضيفة ، حولوا الاسرة – التى كان بعضها فوق بعض – الى مقاعد كل منها خلف الآخر ، كما هى الحال فى سيارات الركوب العامة . ولم يعد باب مقصورتهم فى أعلا ، بل صار أمامهم ، تعلوه الساعة . فان زوال الجاذبية الارضية غير الاوضاع ، وجعلهم كمسافرين فى احدى السيارات

وسرعان ما ألفوا الوضع الجديد بفضل تمريناتهم وتداريبهم السابقة على الارض . واتجهت أنظارهم الى عقارب الساعة ومقياس الارتفاع عن الارض – الذى كان قد سجل ، فى تلك الاثناء ، ٣٠٠٠ كيلو متر – بينما سجل مقياس السرعة ٣٥٠٠٠ كيلو متر فى الساعة . **ومن ذلك الارتفاع الشاهق رأوا أرضهم خلال النوافذ ، فاذا بها تختلف عما اعتادوا أن يروه من الطائرات العادية .. كانت جسما غريبا تغطيه السحب وتيارات الهواء ، مما جعله مجرد شىء كروى ، لاتظهر فيه أية تفصيلات .**

وفجأة ظهر قرص مستدير قرب حافة الارض ، أدركوا أنه القمر . وكان يبدو بعيدا ولا سبيل اليه ، ولكنهم كانوا واثقين من أنهم فى طريقهم نحوه ، وأن بعدهم عنه مجرد خدعة من خدع البصر والفكر !

مستعمرات الانسان فى الفراغ

• **وحان** موعد الغداء ، فكان تجربة طريفة ، اذ قدمت لكل منهم الوجبة فى أطباق صنعت خصيصا للرحلات الكونية حتى لا تقفز من أماكنها . وكان عليهم أن يوجهوا اهتماما خاصا لشرب السوائل التى كانت تتكور وتتدحرج فى شتى الاتجاهات . ولعل « الكاكاو » استأثر بحبهم ، اذ أغرتهم كراته البنية اللون على شربه .. وكانت كراته تتدحرج على وجوههم ، وتترك عليها غشاء خفيفا من لونها ، كما كان ابتلاعها من المسائل الصعبة ، فلم يجدوا مفرا من الاخذ بنصح المضيفة وامتصاص الشراب بمصاصات من الغاب . وعندئذ سرى فى حلوقهم سائلا ، كما ألفوا على الارض . وكانت أصناف الطعام مصنوعة بطريقة خاصة تناسب السفر فى الفضاء ، ويغلب أن تكون من السوائل التى يسهل امتصاصها

(أنظر الجزء الاعلى من الرسم الذى يحمل عنوان هذا الملخص ، فى صفحة ١٥١)

وفى اليوم التالى ، وصلت السفينة الى ارتفاع ١٠٠ ألف كيلو متر عن الارض . واذ ذاك ، مرت بمستعمرة من الجزر الكونية التى أنشأها الانسان هناك ، فكان منظرها طريفا دفع الصغار الى الالتصاق بنوافذهم ليروا معالمها وأجزاءها المختلفة وهى تسبح فى الجو ، وتدور حول الارض ، وكأنها سرب من الطيور . وكانت أشعة الشمس تنعكس عليها ، فتبدو كقطع وهاجة من الفضة . وشرح لهم ضابط السفينة أهمية هذه الجزر بالنسبة للجماعات التى تستوطن الكواكب . ففيها يتجمع غزاة الكون ليتزودوا بالوقود والطعام ، ليعدوا السفن لشتى أنواع الرحلات ، من طويلة وقصيرة

ومن المعروف أن اختراق الغلاف الهوائى حول الارض ، يعد من أخطر مشكلات السفر فى الفراغ وغزو الكون .

وتستهلك السفن - فى تخلصها منه - كميات ضخمة من الوقود ، مما كان يجعل السفر من الارض الى الكواكب البعيدة من الامور المستحيلة ، لولا أن هذه المحطات الكونية - التى تسبح بعيدا عن هذا الغلاف - يسرت للانسان أن يعد سفنه فى الحجم العملى ، وأن يقتصر فى تزويدها على كميات قليلة نسبيا من الوقود !

ارتياد كواكب المجموعة الشمسية

• **وبين** لهم الضابط كيف أن وصول الانسان الى المريخ وزحل - وغيرهما من كواكب المجموعة الشمسية - استغرق دراسة طويلة . اذ كان على الرواد - قبل بدء رحلتهم - أن يدرسوا هذه الكواكب ، ويحصلوا على أكبر قدر من المعلومات عنها . وكان أفضل مكان لهذه الدراسة ، هو الاقمار التى تدور حولها ، لاسيما وأن جاذبية هذه الاقمار الصغيرة ضعيفة يسهل تذليلها ، مما يسر للسفن الهبوط عليها دون التعرض للخطر .. ومن هناك درس الخبراء الكواكب ، وعرفوا كيف يذللون عقبات زيارتها واحدا واحدا !

وهذه المحطات الكونية مكان جيد للدراسات العلمية التى يستحيل الحصول عليها على سطح الارض . ومن ثم فقد أنشئت فيها مراصد فلكية أتاحت للانسان أن يدرس الشمس والكون كله بسهولة ، لان هذه المحطات غير محاطة بغلاف هوائى يؤثر على الرؤية ويعكس الضوء ، كما هى الحال فى الغلاف الهوائى المحيط بالارض ، والذى كان يجعلنا نرى الكون على غير حقيقته .. بل ان الارض ذاتها أصبحت موضع دراسة من هذه المحطات ، اذ أتاحت هذه المحطات للانسان أن يرى شكل الارض على حقيقته

وحل آخر أيام الرحلة ، فبدأ قرص القمر يظهر فى وضوح واخذ يزداد كبرا بمرور الدقائق والساعات ، فألصق

المسافرون الصغار وجوههم بنوافذ غرفتهم ، وهم يصيحون في مرح ونشوة لما تبدى لهم على سطح القمر من تضاريس وجبال سبق أن درسوها عن بعد خلال المناظير الفلكية ، أو على صفحات الكتب . **وكان من أهم التضاريس ، تلك الفوهات الواسعة الشبيهة بفوهات البراكين ، مما جعل بعض العلماء يعتقدون انها كانت براكين ثم خمدت ، ولكن كثرتها بالنسبة لحجم القمر ، جعلت علماء آخرين يرتابون في هذا التعليل ، فتكهن بعضهم بأنها من آثار النيازك والشهب التى تتساقط باستمرار على سطح القمر !**

واجتازت السفينة خط تعادل الجاذبية الارضية مع الجاذبية القمرية ـ وهو على ارتفاع ٤٠ ألف كيلو متر من سطح القمر ـ فلم يفطن المسافرون الى فارق يثير انتباههم ، ولكن قائد السفينة كان يرقب مقاييس السرعة والارتفاع بكل يقظة وانتباه .. فقد كانت سرعة السفينة ـ عند ذلك الخط ـ حوالى كيلو متر واحد في الثانية ، ولكنها لم تكد تتجاوزه ، حتى عادت سرعتها تزداد بفعل جاذبية القمر ، فأصدر الربان أوامره على الفور الى المسافرين بأن يستلقوا على أسرتهم استعدادا لتكرار التجربة التى اجتازوها عند الاقلاع من الارض .

وحول الصغار مقاعدهم الى أسرة ، فأستلفت أنظارهم تغير الاوضاع فى الغرفة ، فان الاسرة التى كانت ـ عند الاقلاع ـ فى أعلى صارت ، فى هذه المرة ، فى أسفل . واستلقى كل منهم على فراشه ، وبدأوا يحسون بالضغط يتزايد على أجسامهم ، فيلصقها بالفراش . وأدركوا أنهم يهوون نحو القمر ، وأن جاذبيته أصبحت تتحكم فيهم ، وقد طغت على جاذبية الارض التى ظلت تتحكم فى السفينة منذ بداية الرحلة حتى خط التعادل .

.. وأخيرا أستقرت السفينة على سطح القمر !

• **وراقب** الطلبة مقياس الارتفاع عن القمر ، فاذا به ينخفض بسرعة مخيفة . وحولوا أنظارهم الى مقياس السرعة ، فاذا بالسفينة تندفع بسرعة ثلاثة كيلو مترات فى الثانية .. ثم أحسوا برجة ، وشعروا بمحركات السفينة تعمل بمثابة فرامل تقاوم جاذبية القمر ، وتمكن للسفينة من أن تستنفد كل سرعتها فى اللحظة التى تمس فيها سطحه . ولم يتسع لهم الوقت لمزيد من التأمل والتفكير ، اذ انسابت خلال النوافذ أضواء قوية اخترقت ظلام الكون .. وأدركوا أنها الاضواء الكاشفة التى أرسلها مطار القمر لارشاد السفينة الى مكان هبوطها .. **وأنعموا النظر فى مصادر الاضواء ، فتبينوا أنها كانت محوطة بالظلام الدامس ، بينما بدا على مقربة منها الجزء المنير من سطح القمر ، فأدركوا أنهم سيهبطون على حافة الجزء المظلم . وكانوا يعرفون من دراساتهم أن الشمس تشرق على مثل هذه البقاع مرة فى كل أسبوعين ، بالتوقيت الارضى ، فيستمر النهار فيها ايضا أسبوعين آخرين .**

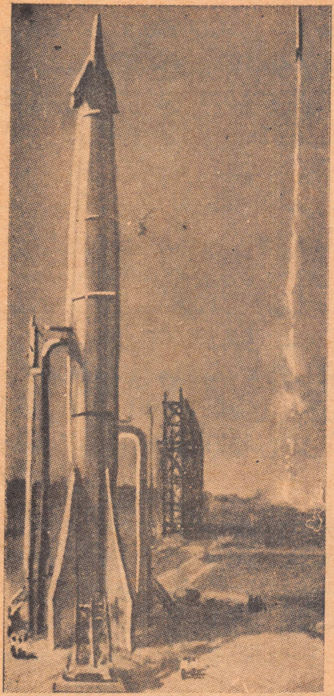
وكان رواد القمر وسكانه يؤثرون الاقامة فى هذه المناطق ، لان الاختلاف فى درجات حرارتها أقل منه فى المناطق الاخرى الدائمة التعرض لاشعة الشمس ، والتى تصل فيها درجات الحرارة والبرودة الى أرقام خيالية !

وانطلقت محركات السفينة تعمل بكل قوتها ، فأحس المسافرون بأثقال تجثم على أجسامهم . وراقبوا سرعة السفينة وهى تتناقص .. حتى استقرت أخيرا ، فوقفت على سيقانها الاربع المصنوعة من الصلب ، والتى كانت مزودة بأجهزة تمتص الصدمات ، فلا يشعر الركاب بشىء !

عندما تصبح الارض قمرا !

• **ولم** يكن المطار دامس الظلام كما توهموا ، بل كان سطحه

مضاء بنور كنور البدر فى اكتماله ، فى ليالينا الارضية .. وبحثوا عن مصدر ذلك الضوء الفاتن ، فاذا به ينساب من كرتهم الارضية التى تحولت الى قمر ضخم يعكس ضوء الشمس على القمر . **وتقدر قوة اضاءتها بنحو ٨٠ مثلا لقوة اضاءة القمر للارض . وكان قرص الارض ظاهراً فى بدره الكامل، فشغل فى السماء مساحة لا تقل عن أربعة أمثال المساحة التى ألفوها – على الارض – للقمر**



السفينة وقد أزيلت عنها الابراج . وتقاس ضخامتها بمن ظهر عند قاعدتها من أشخاص

وارتدى الشبان ملابس الفضاء ، ثم غادروا السفينة واحدا واحدا ، فساروا فى خيلاء الظفر الى قبو صغير، وجدوا تحته عالما آخر . ففى باطن القمر يعيش الناس حياتهم العادية ، بعد أن يخلعوا ملابس السفر فى غرف خالية .

وأوى أصحابنا الى مضاجعهم مبكرين ، فى تلك الليلة .. ثم أوقظوا فى الساعات الاولى من الصباح التالى ، لينعموا بمفاجأة بديعة .. **تلك هى شروق الشمس الذى يحدث هناك**

مرة فى كل أربعة أسابيع .. نصفها نهار ونصفها ليل . ويستغرق الشروق ساعة ، لا دقيقة أو دقيقتين كما هى الحال على الارض .. وكان الوقت مبكرا ، والسماء خالية من تلك الالوان التى ألفوا رؤيتها على الارض قبيل شروق الشمس ، اذ أن هذه الالوان تظهر بسبب غلاف الهواء حول الارض ، وهو غلاف لا وجود له حول القمر . وكان كل ما رأوه قبل الشروق، عبارة عن ملايين من النجوم المتناثرة فى كبد السماء .. نجوم صماء ، لم يكن ضوؤها يخفق ، وانما كانت ذات تألق ساكن ، بسبب الغلاف الهوائى أيضا . **ورأوا ـ كذلك ـ قرص الارض فى عين مكانه الذى بدأ فيه فى الليلة السابقة ، وكأنه مقيد فى موضعه ، لان الارض ـ كما تعرف ـ لاتدور حول القمر ، بل انه هو الذى يدور حولها ، موليا شطرها وجها واحدا ، يراه أهل الارض من كل مكان ، وفى أى وقت ، دون أن يتغير .**

وفجأة أومضت قمم الجبال العالية ، وانعكس منها وهج يعمى الابصار .. منظر لايرى مثله أهل الارض ، فعلى قمة الجبل الواحد ، كنت ترى بقعتين شديدتى الاختلاف : العليا منهما شديدة الاضاءة ، والسفلى شديدة الاظلام ، فلم يكن هناك من هواء يوزع الضوء ويعكسه على شتى المناطق ، وانما كانت أشعة الشمس تسقط مباشرة على البقعة فتغمرها بالضوء ، بينما تبقى البقعة المجاورة فى ظلام ، اذا لم تصل اليها الاشعة .

شمس مشرقة فى ليل بهيم

• **وبرز** قرص الشمس فلم يكن ذهبيا مائلا الى الحمرة ، كعهد أهل الارض به ، وانما كان شعلة ضخمة متوهجة ، وحولها تاجها ، تتدفق منه نافورات من الضوء الغريب المنظر الذى كان يخترق السماء بألسنة شديدة التوهج ، راحت تمتد

الى مسافة بعيدة . وبين هذا كله ، كانت مجاميع من الالوان المختلفة تتدفق فى سرعة وانسجام ، مؤلفة مناظر يندر أن تقع عليها العين ، ويستحيل على الانسان أن ينساها . وكان المرء اذا نظر الى فراغ الكون — فى الوقت نفسه ، وبعيدا عن الشمس — رأى هذا الفراغ معتما ، باهت الضوء ، تلمع فيه النجوم لمعانا باردا خاليا من الوميض .. فكانت مظاهر الليل والنهار تجتمع معا فى آن واحد !

وشاهد الطلبة بحر « شورز » — أى الامطار — فلم يجدوه بحرا على الاطلاق ، ولم يروا قطرة مطر واحدة تسقط عليه .. ولاحظوا كذلك أن مستنقع الضباب — الذى هبطت السفينة بقربه — لم ير الضباب طول حياته .. وهكذا تبينوا أن أسماء القمر نشأت عن خطأ فى تقدير الفلكيين من أهل الارض . فقد ظن بعضهم أن المناطق المظلمة فى القمر مساحات من الماء ، ولكنها فى الواقع صحارى صخرية قاحلة .. وليس فى القمر أودية مستوية ، وانما هناك ما يشبه فوهات البراكين التى تتسع فى بعض الاحيان حتى يصل قطرها الى نحو ١٠٠ كيلو متر . وهناك أيضا أخاديد ضخمة ، وركامات صخرية تبرز منها قمم جبال شديدة الانحدار ، خالية من أى استواء أو أى أثر لسريان ماء عليها !

وكانت أمتع زياراتهم ، هى تلك التى قاموا بها للمنطقة المعامل القمرية ومولدات القوى ومخازن الوقود . فقد شاهدوا هناك مجموعة ضخمة من المنشآت التى أقامها الانسان فى القمر ، لاستغلال الطاقة الشمسية فى توليد الكهرباء وادارة أجهزة تكييف جو مساكن المقيمين هناك . وكانت مجموعة غريبة من الاجهزة ، ذات أهمية قصوى .. فبغيرها تستحيل الحياة على سطح القمر أو فى باطنه ، لانه يتعرض عند ظهور الشمس لاقصى درجات الحرارة كما يتعرض عند اختفائها لاقسى درجات البرد ، فضلا عن خلوه من الهواء !

وكان بين ماشاهدوه ، خزانات ضخمة لوقود سفن الفضاء، تصل الى القمر بطريقة فذة ابتكرها العلم الحديث .. تلك هي استغلال المغناطيسية الكهربائية فى قذف تلك الخزانات - من الارض - بمحتوياتها ، لتمد بالوقود محطات الفضاء ، سواء كانت قمرية أو أرضية . والى جوارها انشئت أحدث المعامل العلمية وأدقها ، لفحص عينات المعادن التى يحتويها القمر ، تمهيدا لاستغلالها لنفع أهل الارض

ولم يكن أهل القمر محرومين من الحياة الاجتماعية . ففى بعض مبانيه أنشئت الاندية للصغار وللكبار . ولعل اطرف المفاجآت التى صادفها الطلبة الزائرون ، هى برامج الاذاعة بالراديو وبالتليفزيون ، التى كانت تنقل من الارض الى القمر ، لتجعل سكان هذا الكوكب على صلة دائمة بالحياة الارضية !

المذنبات مطايا لغزو الكون !

• **ولقد** قدر لهم - وهم فى القمر - أن يشهدوا المذنب « هالى » ، الذى سيعود للمرور بالارض فى عام ١٩٨٦ أى بعد ٧٦ سنة من آخر زياراته . فقد مر بالارض فى ١٩ مايو ١٩١٠ وكان قريبا جدا منها ، حتى أن الفلكيين تنبأوا بأنه سيضربها بذنبه ولكنه مر بسلام .

وفى اليوم الموعود رأى الطلبة هذا المذنب يخترق الفراغ بضوئه الشديد التوهج وذنبه الطويل ، الذى يمتد وراءه نحو ٣٠ مليون كيلو متر ، فكان منظره فريدا ، لاسيما وانه يتم دوراته حول الشمس وكواكبها فى مدار بيضاوى كل ٧٦ سنة !

والمذنبات هى احدى الظواهر الكونية الغامضة ، التى لاتزال تحتفظ بكثير من أسرارها . ويرى بعض العلماء أن لا سبيل لحصرها ، نظرا لكثرتها . وبعضها مضىء شديد التوهج ، وبعضها أقل استضاءة ولمعانا ، ولكنها جميعا تسير فى مدار بيضاوى . وقد يمر بعضها بالمجموعة الشمسية كل بضع

سنوات ، فى حين لايظهر غيره الا كل بضعة آلاف من السنين !

وتقول أحدث النظريات العلمية أن هذه المذنبات تنشأ من سحاب كونى ، يتألف من كتل من غازات باردة متجمدة ، تدور ببطء نسبى حول المجموعة الشمسية على مسافات شاسعة .. حتى اذا مااقترب بعض هذه الكتل الغازية من الشمس ، تحول الى مذنبات تعيش مستقلة فى الفراغ المحيط بالعالم الشمسى . **ويرى بعض الفلكيين أنه اذا أمكن استغلال المذنبات وركوبها ، فانها ستساعد الانسان على الطواف بعوالم غريبة..** فالمذنب « هالى » ــ مثلا ــ يمر بمدارات جميع الكواكب الشمسية مرتين فى دورته التى تستغرق ٧٦ سنة : مرة فى اقترابه من الشمس وأخرى فى ابتعاده عنها الى الكوكب « بلوتو » أبعد أتباع الشمس .. فاذا استطاع انسان أن يركب هذا المذنب، فانه سيجد نفسه فى أوضاع تتيح له زيارة جميع كواكب الاسرة الشمسية

نحو العودة الى الارض !

• **وحان** يوم العودة ، فتأهب الرواد للرحيل ..

ولم تكن سفينة العودة سوى ذلك الجزء الصغير الذى تبقى ــ عند وصولهم الى القمر ــ من السفينة الضخمة العملاقة التى أقلعوا بها من الارض ، وان أضيف اليه ثلاثة خزانات للوقود ، أحدها عند القمة ــ ويتسع لستة وثلاثين طنا من الوقود ــ والآخران على الجناحين ، وسعة كل منهما ٢٥٠ كيلو جراما ، فأصبح وزن السفينة بمعداتها ١١ طنا .. أى مايعادل ٦٨ طنا ، لو أنها كانت على الارض

وكأنما لاحظ الربان ما استولى على الطلبة من دهشة ، فذكرهم بالفرق الكبير بين جاذبية القمر وجاذبية الارض، وبين لهم أن المعدل الذى تتزايد به السرعة للتغلب على الاولى ، لايتجاوز كيلو مترين وثلث الكيلو متر فى الثانية ، فى حين أن

معدل تزايد السرعة لمغالبة جاذبية الارض ـ عند الانطلاق فى الفضاء ـ هو ١١ كيلو مترا

والغلاف الهوائى المحيط بالارض ـ والذى لايوجد مثله حول القمر ـ عامل آخر .. وهذا هو السر فى تزويد السفينة بجناحين ، حتى تتسع المساحة التى تحتك بالهواء ـ عند الهبوط الى الارض ـ فتنخفض سرعة الاندفاع الى سطحها

وانطلقت السفينة .. وفى ثوان معدودة ، بلغت سرعتها ثلاثة كيلو مترات فى الثانية . ثم انحرفت عن وضعها العمودى الصاعد ، لتطير موازية لسطح القمر وتلف حوله على انخفاض كى تيسر للمسافرين أن يشاهدوا بوضوح وجهه الخلفى الذى لم يره أهل الارض .. وهو حوالى خمسى مساحة القمر

ولاحظ المسافرون أن ذلك الوجه لايختلف عن الوجه المعروف، لانه يتعرض لعين العوامل المؤثرة فى هذا، تقريبا ..

وما لبثت محركات السفينة أن توقفت لحظة ، تأهبا لتحويل الاتجاه نحو الارض . **وان هى الا لحظات ، حتى رأى المسافرون منظرا نادرا .. رأوا هلالين ـ كان القمر أقربهما ، والارض أبعدهما ـ والى جوارهما كان « هالى » يتألق بذنبه الطويل الذى ملأ الفراغ .. وفوقه لمع كوكب « الزهراء » كأنه ماسة انعكست عليها الاضواء .. وهنا وهناك ، تناثرت النجوم مؤلفة منظرا من أبدع المناظر !**

وكان الطلبة فى شوقهم الى الارض، لا يحولون أبصارهم عن قرصها ، وقد راح يتسع ويكبر . وما لبثوا أن شعروا بتغير فى محركات السفينة ، فأدركوا أنها تتأهب لاختراق الغلاف الهوائى للارض .. اذ كان من الضرورى أن تخفف سرعتها ، حتى لايؤدى الاحتكاك ـ مع السرعة الهائلة ـ الى رفع درجة حرارة جسم السفينة ، ثم الى احتراقه ، كما يحدث للشهب .

ومرة أخرى ، صدرت اليهم الاوامر بالاستلقاء على أسرتهم، ثم بدأت السرعة فى الانخفاض ، فازداد الضغط على أجسامهم !

تعقيب لكاتب التلخيص

• وتعود سفينة الفضاء الي المطار الأرضى ، مارة بنفس المراحل التى وصفها لك المؤلف فى بداية الرحلة .. ولعلك تتساءل الآن ، بعد أن استوعبت المظاهر الكونية التى وردت فى وصف الرحلة : أين نحن فى الكون ؟ .. وما مدى اتساع هذا الكون ؟

من المعروف أن كرتنا الارضية جزء من مجموعة مركزها الشمس .. وهذه الشمس كرة غازية تصل حرارتها الى نحو ٢٠ مليون درجة ، بسبب تفاعلات ذرية دائمة . وقطر هذه الكرة نحو مليون و ٣٩٠ ألف كيلو متر . ومن أهم توابعها تسعة كواكب ، أقربها منها هو عطارد — أصغر التوابع — ثم الزهرة ، فالارض ، فالمريخ ، فالمشترى — وهو أضخم هذه التوابع — ويليه زحل ، فأورانوس ، فنبتون .. ثم أبعد الكواكب عن الشمس ، وهو « بلوتو »

وبوسعك أن تكون فكرة عن هذه المجموعة ونظامها ، اذا مثلت الشمس بكرة ضخمة قطرها متر ، فيكون كوكبنا الارضى أشبه بحصاة قطرها سنتيمتر واحد ، وتبعد عن الكرة بحوالى ١٠٠ متر ، أما « بلوتو » — أبعد الكواكب عن الشمس — فيكون كحصاة قطرها ٤ر٤ ملليمتر ، ويبعد عن الكرة المثلة للشمس بأربعة كيلو مترات . **ولقد عرفنا أن بعض هذه الكواكب — كزحل — خال من الهواء . على أن فى المريخ جوا شبيها بجو الارض ، ولهذا يعتقد بعض العلماء أن لونا من الحياة نشأ فيه قبل ظهور الحياة على الارض .. مما يجيز القول بأنهم أرقى من سكان الارض !**

ولبعض هذه الكواكب قمر أو أكثر ، يعكس عليها ضوء الشمس .. فى حين أن بعضا آخر — كعطارد — لم يؤت أقمارا ما . والى جانب هذه الكواكب توجد مجموعة أخرى من الاجسام المعروفة بالكويكبات ، وهي كتل صغيرة تعد بالآلاف ،

وتدور حول الشمس فى نظام غير رتيب .. وهناك أيضا المذنبات التى تحدثنا عنها ، وهى غريبة فى نشأتها ومدارها البيضاوى .. فضلا عن ملايين الشهب التى تشهدها فى كل ليلة ، وهى تحترق عند اختراقها لجو الارض

وليست كل هذه المجموعة الشمسية الضخمة سوى نقطة فى أحد أطراف مجموعة أكبر ، تسمى « مجرة التبانة » ، ويقدر عدد نجومها أو شموسها بنحو ٢٠٠ بليون ! .. **وأقرب مجموعة تشبه مجموعتنا الشمسية ، تقع على بعد أربع سنوات ضوئية .. أى أن الضوء – وسرعته ١٩٨ ألف ميل فى الثانية – يقطع المسافة بيننا وبينها فى نحو أربع سنوات !**

و « مجرة التبانة » واحدة من ملايين المجرات الموزعة فى فراغ الكون ، والتى أمكن أن نعد منها نحو ٢٠٠ مليون مجرة ، فى كل منها بلايين النجوم

ومن البديهى أن عدد مجرات الكون أكثر من هذا ، ولكن أحدث المناظير وأقواها لاتستطيع اليها وصولا ، لبعدها الذى يزيد على نصف مليون سنة ضوئية . ويقرر بعض العلماء أن الكون يحوى مئات الملايين من الكواكب التى تضم بعض ألوان الحياة . ومن الجائز أن بعضها أرقى منا فى التطور الحيوى !

حلم الادباء وحقائق الباحثين

• **ولقد** اعتاد الانسان – منذبدءالخليقة – ان يحلم بالوصول الى النجوم وغزو الفضاء . وكان فى مقدمة المجتهدين ، العالم الروسى « كونستانتين تسيولكوفسكى » ، الذى عاش فى القرن الماضى . وهو أول من عرف أهمية السرعة الضرورية للسفينة المنطلقة فى الفضاء ، حتى تفلت من الجاذبية الارضية ، ففكر فى استخدام الصواريخ

وقد زادت خطورة الصواريخ بعد اكتشاف القنابل الذرية ، مما حدا بالدول الكبرى الى التسابق فى اتقان صنعها لتقطع

المسافات الشاسعة ، حتى أمكن استغلالها فى ارسال الاقمار الروسية والامريكية لتطوف حول الارض ، ولترسل البيانات العلمية عن الاشعة الكونية والشهب ودرجات الحرارة فى الفراغ الكونى ، وغير ذلك .

ويلاحظ أن الاقمار الروسية والامريكية احتلت مداراتها حول الارض ، واندفعت فيها بسرعة واحدة ـ قدرها ٢٨ ألف كيلو متر فى الساعة ـ وهى السرعة اللازمة لمغالبة الجاذبية الارضية ، وللدوران حول الارض دون الافلات الكامل من هذه الجاذبية . ويعلل بعض الخبراء كبر وثقل القمرين الروسيين وصغر وخفة القمرين الامريكيين بأن الروس وفقوا ـ ولابد ـ الى اكتشاف مادة جديدة للوقود ، ذات قوة دفع جبارة !

ولقد امتاز القمران الامريكيان بالدوران حول الارض فى مدار بيضاوى ، فمكنهما هذا من أن يسجلا أرقاما قياسية فى الارتفاع ، كما أن انبعاج جانبين من المدار البيضاوى ، يمكنهما كذلك من الاقتراب من الارض .. فكان القمر الاول يصل الى ارتفاع ٢٥٧٤ كيلو مترا ، ثم يقترب من الارض حتى يصل الى ارتفاع ٣٧٠ كيلو مترا .

أما القمران الروسيان ، فقد امتازا بأنهما دارا حول الارض فى مدار حلزونى شبه مستدير ، من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ، مما أتاح لهما المرور فوق معظم بلاد العالم . وكان ارتفاع أولهما ٩٠٠ كيلو متر ، والثانى ١٧٠٠ كيلو متر

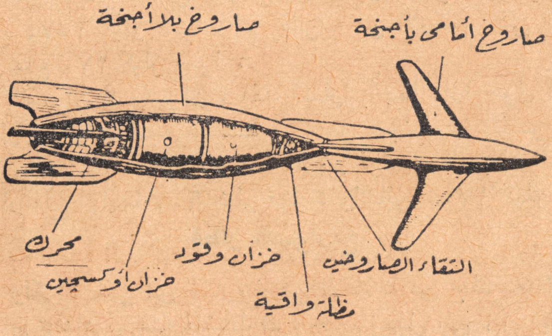
قطار الصواريخ

• **ولكى** يتمكن أى صاروخ من الافلات من جاذبية الارض ، يجب أن تزداد سرعته باضطراد ، حتى تصل الى ١١ كيلومترا فى الثانية . وقد فكر العالم الروسى « تسيولكوفسكى » فى أن من الممكن تحقيق هذه السرعة الجبارة ، باستخدام ما أطلق عليه اسم « الصاروخ القطار » . **وهو يتألف من عدة صواريخ**

فى هيكل واحد ، فتعمل محركات الصاروخ الاول على دفع الهيكل كله فى الفضاء ، حتى اذا نفد وقود هذا الجزء ، انفصل عن الهيكل الرئيسى وسقط ، فيبدأ الصاروخ الثانى عمله ، حتى يفرغ وقوده ويسقط . وبهذه الطريقة تخف حمولة « قطار الصواريخ » ، كما تقل مقاومة الهواء له فى الطبقات التى يرقى اليها ، فتزداد سرعته بنسبة كبيرة .

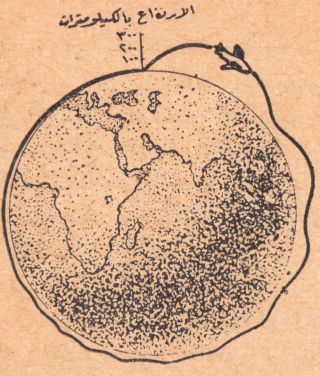
ومنذ ظهرت الطاقة الذرية بقوتها الرائعة ، وهى تداعب عقول المشتغلين بالسفر فى الفراغ الكونى . ويكفى أن نقول أن الطاقة الناتجة من انشطار ٢٠ رطلا من مادة « اليورانيوم » أو « البلوتونيوم » تكفى لارسال ثقل وزنه ألف طن الى القمر، ثم تعيده الى الارض .

ومن الدراسات الهامة للعلماء الروس ، مسألة اضافة الاجنحة للصواريخ ، لتمكينها من أن تسبح فى الغلاف الهوائى .. ومن هذه الدراسات ظهر أن الصاروخ المجنح البسيط —



رسم لصاروخ ذى مرحلتين : الجزء الامامى مجنح ليسبح فى الهواء عند العودة . والخلفى يحمل كمية كبيرة من الوقود ، ويهبط بالمظلة الواقية ، بعد أن يؤدى مهمته .

الذى يرتفع الى ١٠٠ كيلو متر بقوة محركاته – يمكن أن يسقط على بعد ألفى كيلو متر من قاعدته ، فاذا وصل ارتفاعه الى ٣٠٠ كيلو متر ، فانه – بمعونة الاجنحة – يسقط على أى هدف يكون على مسافة ٥٠٠٠ كيلو متر . ومن الجائز أيضا أن يسبح مثل هذا الصاروخ ويلف حول الارض ، اذا هو استطاع أن يصل الى ارتفاع ٣٠٠ أو ٤٠٠ كيلو متر ، وبلغت سرعته أربعة كيلومترات فى الثانية . ولهذه السرعة أهميتها فى منع سقوط الصاروخ بسرعة الى الارض



بالارتفاع الى ٣٠٠ كم ، بسرعة ٤ كم فى الساعة ، يدور الصاروخ حول الارض سابحا فى الهواء الكثيف . وتبين التعرجات كيف يدفعه الهواء الكثيف الى أعلى

ولقد دلت التجارب على أن هذا الصاروخ السريع ، تتوقف محركاته اذا ماوصل الى ارتفاع ٣٠٠ كيلو متر ، فيبدأ طيرانه الحر بالسقوط على الارض بسرعة ، فى طبقات الجو المخلخلة الهواء . وليس معنى هذا أنه سيسقط فى خط رأسى ، اذ أن السرعة التى كانت تدفعه ، ستظل تؤثر عليه وتدفعه قدما الى الامام حول الارض . ويساعده على هذا التقدم أن الارض كروية ، فكلما تقدم عوضت كروية الارض بعض ما فقده فى هبوطه . وبهذه الطريقة يقطع فى الهواء المخلخل نحو ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ كيلو متر

أما مايحدث له عند ما يهبط الى طبقات الهواء الكثيفة ، فتستطيع أن تشبهه بحجر تقذفه الى سطح الماء ، بحيث

يمس جانبه العريض هذا السطح .. فهو - فى هذه الحالة - لايغوص فى الماء ، بل انه يقفز الى أعلى .. ويظل فى هبوط وقفز ، حتى تقوى الجاذبية الارضية على كثافة مادته .. وبالطريقة نفسها يلتقى الصاروخ بالهواء الكثيف ، فيقفز عدة مرات ، حتى تنتهى مقدرته على القفز ، فيسبح بجناحيه مستعينا بسرعته وكروية الارض . ومن الجائز ان يعود الى القاعدة التى أطلقته

شروط الاقمار الصناعية

• **والدوران** حول الارض ميسور من ارتفاع ٢٠٠ كيلومتر ولكن أفضله ماكان على ارتفاع بضعة آلاف من الكيلو مترات . ولكى يستمر الجسم الطائر - سواء أكان سفينة أم قمرا - فى طيرانه ، يجب أن يحتفظ بسرعة قدرها ٧ر٩ كيلو متر فى الثانية ، والا هبط الى الارض - اذا قلت - أو انطلق فى فضاء الكون الى غير رجعة اذا زادت سرعته ووصلت الى سرعة الافلات من الجاذبية الارضية ، وهى حوالى ٢ر١١ كيلو متر فى الثانية .. أما اذا لم تزد السرعة عن ٩ أو ١٠ كيلو مترات فى الثانية ، فان الجسم يظل تابعا يدور حول الارض ، ولكن فى مدار بيضاوى تزداد حدته وطوله بزيادة السرعة

وتفسر هذه الشروط بعض الظواهر المتعلقة بالاقمار الصناعية التى أطلقتها روسيا وأمريكا . ومنها أن القمر الامريكى الاول يدور فى مدار بيضاوى ، مما يدل على ارتفاع سرعته . كما أن القمر الثانى اختفى، ومن المحتمل أن تكون سرعته قد زادت على سرعة الافلات من الجاذبية الارضية، فانطلق فى فراغ الكون . أما القمران الروسيان فكان مداراهما شبه دائريين ، مما يدل على أن سرعتهما كانت كما ينبغى .


SOLITAIRE
BY
R. LINDNER
من خفايا النفوس :
الجائعة !
قصة حالة نفسية واقعية عالجها
الأخصائى النفسانى الدكتور "روبرت لندنر"

جناية الآباء على الابناء

* أثبت علم النفس الحديث أن معظم الشذوذ الذى قد يلابس تصرفاتنا ، ومعظم المتاعب التي نتعرض لها فى الحياة ، قد ترجع فى أصلها الى تجارب مررنا بها فى ماضينا، وفى مرحلتي الطفولة والمراهقة بوجه خاص .. وهذه مأساة جديدة من المآسى التى عرضها الطبيب والمحلل النفسى العالمى « روبرت لندنر » - فى كتابه النافع الذى قدم لك « كتابى » منه قصة « المنبوذ » ، فى العدد الماضي - فبدد الغيوم والغموض ، ليكشف عن العلل والعقد النفسية الكامنة خلف كل مأساة .

والبطلة - فى هذه المرة - امرأة كانت ضحية ، وضحية بشعة، لعقدة نفسية مستعصية ، تبين لنا مدى ما يجنيه الآباء والامهات على أبنائهم وبناتهم ، عندما يتخلون عن التحرز فى علاقاتهم الجنسية، أو فى مشاجراتهم وشقاقهم .

ذات الوجهين !

• **لورا** .. ذات الوجهين !

لقد رأيت فى ذلك النهار أحد وجهيها فاذا به بشع ، منتفخ كأنه البالون على وشك الانفجار ، واذا عيناها تكادان تضيعان فى بالوعتين من اللحم المتورم ، لولا شعاعين من نار الحمى كانا ينبعثان فى فزع ووهن .. أما الانف فكان مطموسا بين بطيختين تسميان خدين ، من تحتهما ذقن مدبب يتصبب عرقا زيتيا . وفيما بين هذه التضاريس حفرة قرمزية تسمى فما !

وأذهلنى مرآها ! .. أذهلنى وقززنى ، حتى أننى لم أستطع كتمان مابى من اشمئزاز . ففطنت لورا اليه ، وصرخت فى ثورة جائحة : « تأملنى ! .. أنظر الى وتقيأ ! أجل ! هذه أنا .. « لورا » بعينها . ألست تعرفنى ؟ .. ها أنتذا ترى ما طالما حدثتك عنه بلسانى طوال الاسابيع الماضية . وليس الوصف كالعيان ! .. فهلا رحمتني ؟ ! »

فقلت لها بأقصى مااستطعت من هدوء : « ارقدى .. ارقدي يالورا ، وحدثيني بكل شيء ! »

ـ وماذا تظن ، بحق الابالسة ، انني كنت أحدثك عنه طوال الاسابيع الماضية ؟

تنشد الموت بالاسراف فى الاكل !

• **وأشحت** عنها بوجهى كى أجلس على مقعدى خلف المكتب ، ولكنها قبضت بيدين من حديد على معصمى ، حتى انغرست أظافرها فى لحمى ، وأرغمتنى على أن أواجهها وأتلقى انفاسها المثقلة برائحة الخمر وعفونة الطعام المتخمر والقيء ، وهى تصرخ بى :

ـ كلا ، لن أرقد . بل سأقف هنا وأكرهك على التطلع الى وجهى ، كى ترانى كما أرى نفسى . فانك تريدنى على الرقاد كيلا ترى سحنتى .. ولكن بعدا لك ! لن أوفر عليك هذا الوبال ، وسأقف هنا ، بمعونة الشيطان ، الى الابد ! الى يوم الدين !

وترنحت ، ثم سقطت فجأة على الارض متداعية .. ولم أكن قد خبرت حالة كحالة « لورا » من قبل ، ولا مرت بى أعراض كأعراضها .. وتتلخص حالتها الغريبة فى تعرضها لنوبات من الضيق والاكتئاب والهبوط النفسى ، تندفع خلالها الى الاكل والشرب بافراط ، بنية قتل نفسها بالتخمة .. عن طريق الالتهام المتواصل لكميات غير معقولة من الغذاء ، دون مااستساغة أو تمييز بين الاصناف والطعوم ، لانها تكون ـ اذ ذاك ـ فريسة لقوى أعتى منها ، لاتملك السيطرة عليها .. قوى تجعلها عاجزة عن الشبع ، حتى تصل الى الاعياء التام ، وتكف عضلاتها عن الحركة ، وعن الاستجابة ، فيقف فمها عن الالتهام والمضغ ، وتقف معدتها عن الاستيعاب . بل وتقف يدها عن حمل الطعام ، وتضج أحشاؤها بالالم من كثرة ماإكتظت به ، وتفور دماؤها بالتسمم من هذه التخمة .

دوامة فى أحشاء « لورا »

• ولم أستطع أن أصدق حقيقة حالتها هذه، الا حين رأيتها فى ذروة احدى تلك النوبات التى طالما حدثتنى عنها !

ـ انها حالة تبرز لى من العدم .. ومن حيث لا أدرى ولا أحتسب . ولست أعلم لها سببا ولا مناسبة، بل هى تصيبنى فجأة ، وفى أى وقت ، وأنا منهمكة فى أى شىء .. فبين طرفة عين وانتباهتها ، أنقلب من المرح الى التعاسة ، ومن حب الحياة والناس الى جحيم من اليأس والبغضاء . **وأحسب أن المسألة تبدأ بشعور بالخواء الداخلى . ويشرع شىء ما ـ لا أدرى بماذا أسميه ـ فى ايلامى . وكأن هذا الشىء يفغر فاه فغرة تتسع وتتسع كالدوامة داخل أحشائى ، وينبض فراغها كالقلب الثائر ، ثم تنتظم دقاته وتشتد حتى تغدو كالطبل المجنون . وعندئذ أحس بأن كيانى كله قد انقلب الى فراغ يحتويه اهاب من الجلد .. وهذا الفراغ يضج بدقاته الموجعة التى تنقلب عذابا كعذاب النزع الاخير ، فلا يبقى منى ـ أنا « لورا » التى تعهدها وأعهدها ويعهدها الناس ـ سوى فراغ هائل منهوم !** .. وأندفع آكل وأشرب، وأشرب وآكل، والفراغ يزداد نهما وألما . كأنه التنور الذى لا يقول ـ مهما تمده بالوقود ـ ألا : «هل من مزيد؟!» .. وأزيد ثم أزيد . كل شىء، فليس للطعم حساب ، وانما الحساب للفراغ الذى لابد له من امتلاء . وهيهات أن يصل الى الامتلاء !.. فأنا وذلك الفراغ فى سباق مجنون ! كلما كلت يدى أو تعب فمى ، زادت الهاوية اتساعا، وأصابنى الذعر .. فأندفع آكلة شاربة حتى الاغماء ! .. وما لم يصبنى الاغماء ، فاننى لا أكف عن الاكل، ولا تنتهى النوبة .. ولا أصل الى الاغماء حتى تبلغ بى الخمر والتخمة هذا الحد من التبدل والتورم . ومتى بدأ الاغماء ، تحول الى نوم يستمر يومين وليلتين .. نوم محموم تكتنفه الاحلام

المفزعة .. وهى أحلام من رحمة الله بى أننى لا أكاد أذكر منها شيئا بعد صحوى ! .. وما أبشع هذا الصحو ! .. اننى ـ اذ ذاك ـ لا أكاد أعرف نفسى فى المرآة من الورم والقذارة ، فكأنى حلوفة خارجة من حمأة ، فلا ملامح واضحة لى ، ولا قامة ..

الوجه الثانى للورا !

• **وكانت** قد انقضت ثلاثة أشهر من العمل التحليلى الشاق قبل تلك المناسبة التى أطلعتنى على الوجه الآخر للورا .. الوجه الذى عرفته من قبل وصفا ، فعرفته ـ فى ذلك الصباح ـ مشهدا وخبرا . وكانت تلك الاشهر الثلاثة عاصفة بالنسبة لكلينا . فقد كانت لورا تبلل كل ساعة من ساعات الجلسات بالدموع ، وتشعلها بالزفرات ، وهى تحدثنى عن أزماتها ونوباتها .

وبالرغم مما تعودته من سماع المآسى ـ بحكم مهنتى ـ فقد استطاعت قصة « لورا » أن تهزنى وتحرك أعماقى ، فلم أكد أقدر على كتمان عطفى عليها ، الكتمان الذى تتطلبه تقاليد عملى . ومن ثم فانها استطاعت أن تستشف من نظراتى وملامح وجهى حقيقة شعورى ، رغم صمت لسانى ، فأخذتها على أنها الشفقة عليها والرثاء لها ، وراحت تبالغ فى وصف آلامها ، حتى تستدر مزيدا من شفقتى ، وتقهر مقاومتى وجمودى ..

وما ذكرت المنظر ـ الذى أفتتحت به هذه القصة ـ لطرافته الهامة فحسب ، وانما لانه يختلف تماما عن صورة « لورا » العادية ، فيما بين النوبات . **فان « لورا » العادية فتاة ليست بالثرية .. أجل ، ولكنها شديدة التجمل فى فقرها . تحسن اختيار ثيابها اختيارا يبرز خير ما فى تكوينها وملامحها .** والنظام الغذائى (الرجيم) القاسى الذى تفرضه على نفسها فيما بين النوبات ، يحفظ عليها رشاقتها فى مستوى ترضى عنه (الموضة) .. أما وجهها الذى تحيط به هالةمن الشعرالاسود الفاحم فلعله ليس جميلا ، بيد أنه مقبول جذاب

ماء وضحك ووقع أقدام !

• **وذات** يوم ، أفتتحت لورا الجلسة بالشكوى المعتادة من الكوابيس التى تزحم نومها كل ليلة ، وان كانت تفصيلاتها تروغ من ذاكرتها .. وكانت تستيقظ مروعة من كل كابوس ، وما أن يعاودها النعاس حتى يداهمها كابوس آخر .. وكلها أحلام غامضة لاتخلف لديها سوى ذكرى غامضة ، شوهاء ، غير محددة المعالم . وانما كانت تتوفر فيها جميعا ثلاثة عناصر ، لا تغيب عن كابوس منها على كل حال : **العنصر الاول : الماء ، على شكل موجات دافقة بطيئة الزحف ترتطم بها فى لذع السياط .. والعنصر الثانى : وقع الاقدام ، الصادر عن أقدام خفية ، تلاحقها فى كل مكان ، فتفر منها فى أروقة ودهاليز . وقد تتكاثر هذه الاقدام ـ أحيانا ـ فتغدو زحاما من المطاردين غير المنظورين .. والعنصر الثالث : الضحك ، الذى يتردد فى عواصف هستيرية صاخبة هازئة !**

ولقد سألتها : « ألا تتذكرين شيئا عدا هذا ؟ »

ـ لاشىء على التحديد عدا الماء ، والمطاردة ، والضحكات !

وساد الصمت ، وقد غطت وجهها بيديها ، ثم مرت بهما على جبهتها فى بطء ، وقد أبيضت مفاصل أصابعها من التشنج ، وقالت : « اننى أتذكر الليلة التى غادرنا فيها أبى ! »

وبدأت أسمع القصة :

كان المطر ينهمر ، وقد رفعت أطباق العشاء عن المائدة لتوها ، وجلست « لورا » وشقيقها « مايك » يستذكران دروسهما . أما « فريدا » ـ الشقيقة الكبرى ـ فكانت فى المطبخ تغسل الاوانى . وكانت الام المقعدة قد دفعت مقعدها المتحرك الى حجرة النوم الامامية لتصغى الى المذياع ..

وانفتح الباب ، فرفع الصغير عينيه .. وتلاقت نظراته بنظرات « لورا » فى خوف .. وقد بدأت خطوات ثقيلة تجتاز

الدهشة . وانكبا على كتبهما يتصنعان الانهماك فى الدرس .

فى ليلة عاصفة ..

• **وبعد** لحظة ، سمع الثلاثة زمجرة أبيهم وهو يلقى التحية ، ثم رد أمهم .. ثم صرير لوالب الفراش والاب يجلس فوقه ، وصوت ارتطام حذاءيه الكبيرين بالارض وقد خلعهما . وصر الفراش ثانية ايذانا بنهوضه عنه . وسمعوا أمهم تقول له بصوت أشد ارتفاعا من موسيقى المذياع :

ــ آه ! . لست تشعر بالبرد ! .. طبعا يا سيدى ! وكيف تشعر بالبرد وقد ملأت بطنك بالويسكي ؟

ــ لاتفتحى هذا الموضوع يا « آنا » ! .. انني متعب الليلة .

ــ متعب ؟ ومم ؟ .. ليس من العمل طبعا !

ــ أغلقى فمك يا آنا .. !

وغادر حجرة النوم ، فأقفلت « آنا » المذياع وتبعته بكرسيها المتحرك الى حجرة المائدة ، حيث كانت « لورا » وشقيقها . فرفعت الفتاة رأسها نحو أبيها وابتسمت . وانحنى وقبل خدها ، فداعبت شعرات شاربه الخشنة وجهها ، وأدارت رأسها رائحة الويسكى المنبعثة من فمه . ثم انتقل الاب الى « مايك » الصغير ، فداعب شعره بيده الضخمة . وما لبث أن جذب مقعدا من مقاعد المائدة ، وجلس هاتفا : « فريدا ! » .. فأقبلت الابنة الكبرى من المطبخ .. وقال لها :

ــ ألا تحضرين لابيك الشيخ شيئا يأكله ؟

فدفعت « آنا » مقعدها المتحرك الى الفراغ الكائن بين المائدة وباب المطبخ ــ الذى وقفت فى فرجته فريدا ــ وقالت لزوجها : « ليس لدينا شىء لك . ان كنت تريد طعاما فتعال الى البيت فى وقت العشاء ، فليس هذا مطعما عاما ! » . ولكن الرجل تجاهل كلماتها ، وخاطب فريدا من فوق رأسها : « اصدعى

لما أمرت . هاتى لى عشاء ! » .. بيد أن أمها هتفت : « انتظرى ! .. لا تطيعيه ! » . فقال الرجل : « اخرسى ! »

أب يهجر داره

• **ونظرت** الى زوجها بحقد ، وقد نفرت عروق وجهها وعنقها ، وارتعد جسمها النحيل ، وأخذت تصرخ فى وجهه :

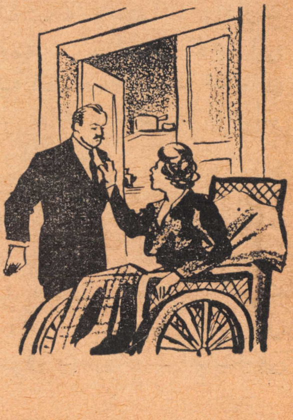
— لن أخرس .. انك لا تبالى بما يحدث لنا . لاتبالى ان عضنا الجوع أو آذانا البرد ، فليس يعنيك سوى المومسات اللائى تعطيهن نقودك !

— آنا .. ان الاولاد يسمعون ماتقولين يا آنا

— الاولاد ؟ ! .. أتظنهم يجهلون أى أب فاسد متعفن أنت ؟ .. أتظنهم يجهلون أين تذهب حين تغيب عن البيت ؟

فضرب المائدة بقبضته ووقف صائحا : « كفى ! لن أسمع كلاما كهذا بعد .. اصمتى ! » . وأتجه نحوالمطبخ . فأسرعت بمقعدها المتحرك تسد عليه الطريق ، وهى تصيح :

— عندما تدفع ثمن الطعام يحق لك دخول المطبخ !



ورفع يده غاضبا ، فأطلقت ضحكة قصيرة ، وصاحت : « ماذا تنتظر ؟ .. اضربنى !.. اضرب المرأة المقعدة ! » .. فجمدت يده فى الهواء .. وساد صمت اتضحت فيه ضربات المطر على زجاج النافذة . ثم قال الاب : « اذا لم تتنحى عن طريقى ، فسأغادر هذا البيت لغير عودة ! »

ـ اذهب ! .. منذا الذى يريدك هنا ؟

فوقف جامدا كالتمثال برهة طويلة ، ثم دار على عقبيه واتجه بسرعة نحو حجرة النوم ، تتبعه جميع العيون .. وأدركت الزوجة أنه كان جادا فى وعيده ، فلحقت به فى غرفة النوم ، ولكنه مضى يجمع ثيابه .. وانقلبت تستغفره ، ولكنه غادر البيت لا يلوى على شىء ..

« لورا » تبحث عن الحب

• **ولم** يعد « مايك » الاب بعد تلك الليلة . وكان بين الحين والحين يرسل بضعة دولارات .. وفى عيد ميلاد « لورا » التالى لرحيله ، بعث اليها بزجاجة عطر من (اتلانتك ستى) . ولكن عينيها لم تقعا عليه بعد تلك الليلة .

وكانت دموع « لورا » تنهمر وهى تروى لى تلك القصة . فتركتها تمسح دموعها وتتمخط وأنا صامت . ثم نظرت الى ساعتى . فقالت لى : « لم لاتقول شيئا ؟ .. أظهر العطف على الاقل ! » .. فسألتها : « نحو من ؟ »

ـ نحوى أنا طبعا !

ـ ولماذا نحوك أنت فقط ؟ وماذا عن « فريدا » ، و « مايك » الصغير ، وأمك .. وأبيك هو الآخر ؟

ـ انك جامد القلب ، ولن أعود اليك !

وخرجت على الفور .. ولكنها عادت بالطبع ، وواظبت على العودة أربع مرات فى الاسبوع مدى سنتين كاملتين .. **وكان تقدمها فى خلال السنة الاولى بطيئا فى حقيقته ، وان بدا عظيما فى مظهره . لانها انقلبت الى التطرف فى الزهد والتقشف والاستقامة !..** واذكر انها فى الشهر الحادى عشر من جلسات التحليل ، حصلت على مكانة رفيعة فى المتجر الذى تعمل به بسبب التغير الظاهرى فى أسلوب حياتها .. حتى أن زميلا لها فى العمل راح يتودد اليها . فجاءت تقول لى :

ـ لا أريد أن أخدع هذا الشاب .. انك أعلم الناس بمدى أنانيتي ورغبتي في الاستحواذ على من أتصل بهم ، ولكني أريد في هذه المرة الا أكون كذلك .. بل أريد أن تكون لي به علاقة حب موفقة !

ـ أتعنين انك تفكرين فى الزواج به ؟

ـ انما الذى أحلم بالزواج منه هـو « بن » .. اما هـذا الشاب .. فالذى أنشده منه حقا ، هو الحب .. الحب الذى أهب من نفسي فيه بقدر ما آخذ !

وأردفت قائلة : « ليس هـذا على كل حال ما جئت اليوم للحديث فيه . فهنـاك حلم .. رأيتنى فيمـا يشبه قاعـة الرقص ، ولكني كنت أعلم انها فى الحقيقة مستشفي . ثم جاء رجل وطلب منى أن أخلع ثيابى كلها ـ حتى ورقة التـوت ـ لانه سيفحصنى فحصا مهبليا ، ففعلت ما طلبه منى وأنا خائفة كل الخوف . وبينما أنا أخلع ثيابى ، لاحظت ان هذا الـرجل يصنع شيئا بامرأة أخرى فى أقصى الحجرة . وكانت المـرأة راقدة وقد أنشبت فى جسمها شـتى أنواع الـروافع والآلات الجراحية . وأدركت انى سأكون التالية لها فى ذلك الوضـع الغريب عندما يفحصنى » .

بين الاشتباه والخـوف

• **وسكتت** لورا برهة ، ثم قالت : « وفجأة ، نادانى الرجل ، فوجدت نفسى أجرى نحوه .. واذا الفراش قد صار خاليا .. وأمرني أن أصعد اليه ، فرفضت ، وشرعت أصرخ وأبكى ، **ثم أخذ المطر ينهمر فى قطرات كبيرة، فدفعنى الرجل وأوقعنى على الارض ، ثم فتح ساقى كى يفحص مهبلى . فانقلبت فوق بطنى وأخذت أصرخ حتى استيقظت على صراخى . والآن ، ما تأويل هذا الحلم ؟ »**

ـ أنت تعرفين طريقة التأويل يالورا .. حاولي ان تربطي

بين صور الحلم وخواطرك وذكرياتك !

ـ أول ماخطر لى هو « بن » ، لانه طبيب امتياز فى مستشفى الجامعة كما تعلم .. ولكنى رفضت أن يفحصنى !

ـ ولم هذا الرفض ؟

ـ لانى نشأت أخاف الاطباء منذ طفولتى ، اذ أخشى أن يؤذونى بحقنهم وابرهم .. ولا أحتمل أن يعبث أحدهم بجسمى ..

واخال الآن بوضوح ان الجنس هو مصدر خوفى .. فالطبيب فى الحلم هو « بن » . وهذا الفحص الذى يطلبه منى هو فى الواقع اتصال جنسى كالذى يحاول الظفر به أحيانا ، ولكنى أفزع وأنفر منه .

ـ ولكنك خبرت الاتصال الجنسى بالرجال ، من قبل ، كما اعترفت لى ؟

فبكت وقالت : « هذا صحيح . ولكنى لم أكن أسمح لهم أن ينالونى بصورة كاملة الا عندما لم يكن ثمة مناص من ذلك ، حين أخشى أن يتحولوا عنى !.. ولم أحظ باتصال جنسى كامل ـ تنسينى لذته نفسى ـ الا مرات قليلة فى حياتى . أما فى سائر المرات فكنت أكتفى باشباع رغبة الرجل من غير أن أحظى باشباع رغبتى . وكنت أوثر أن يكون ذلك باتصال خارجى حتى لا يؤذينى كما تؤذى ابرة محقنة الطبيب التى يغرسها فى الوريد ! »

أصوات من مخدع أبويها

• **وأخذت** أستحثها على أن تتذكر ماينم عن المرأة التى كان الطبيب يفحصها فى الحلم ، فقالت : « ان الفراش الذى كانت ترقد عليه ، كان أشبه بمقعد أمى المتحرك . ولكن ، لماذا كان الطبيب يفحص أمى ؟ .. ما معنى هذا ؟ »

ـ فكرى يا « لورا » فى معنى الفحص الطبى فى ذلك الحلم .

ـ أنه يعنى الاتصال الجنسى .. آه ، وجدتها ! ان الاتصال الجنسى هو الذى أقعد أمى وألزمها مقعدها المتحرك . أصابها بالشلل . وأظن ذلك هو ما أخشى أن يحدث لى من الاتصال الجنسى بالرجال .. هذا ما فى عقلى الباطن عن الجنس منذ الطفولة ، ولهذا فأنا أفزع منه !

وعن طريق الاستجواب والتذكر ، وصلنا الى ربط هذه الفكرة الكامنة فى اللاشعور ، بحوادث طفولة « لورا » . فلقد كانت فى صغرها تستيقظ فزعة أثناء الليل على أصوات غامضة تصدر من فراش والديها ، وتوحى لها بالرعب والالم ، اذ كان عقل الصبية الصغيرة يعجز عن ربطها بمراسم الحب المألوفة للكبار ، لاسيما أن حياة النهار بين والديها كانت شجارا متصلا ، ومن ثم فقد أخذت التأوهات الخافتة والضحكات والمداعبات تتجسم للطفلة فى الظلام ألوانا من التعذيب الجسدى .. **وأرتبطت هذه الصورة فيما بعد بالاتصال الجنسى عامة ، وحينما أصيبت الام بالشلل بعد سنوات ، ربط اللاشعور ـ لدى الفتاة ـ بين علة الام وتاريخ الاتصال الجنسى بين أبويها ، فتسمم عقلها الباطن بذلك الارتباط ، وأيقنت أن الاتصال الجنسى بالرجال خليق بأن يودى بها الى الشلل كأمها !**

واذ أوضحت ذلك ايضاحا تاما فى نهاية الجلسة ، ظهر له أثر واضح على « لورا » ، فتلاشت على الفور من رأسها فكرة الفزع من الاتصال الجنسى وعواقبه الوبيلة على صحتها .

وفى الجلسة التالية أقبلت « لورا » فى موعدها مكتئبة واجمة . وبادرتنى قائلة : « لا حاجة بى الى أن أخبرك بأننى توجهت ـ بمجرد انصرافى فى المرة السابقة ـ الى مسكن « بن » ! .. أعنى الى فراشه مباشرة ! »

ـ لماذا تكلميننى بهذه اللهجة يالورا ؟

ـ لانى أكرهك .. فأنت الذى دفعتنى بتأثيرك الى ذلك . دفعتنى الى الاذى !

ـ أتسمين أذى أنك نمت فى فراش « بن » ؟

ـ لن أكذب عليك ، لقد شعرت بالمتعة لاول مرة فى حياتى ، ولكنك أثرت ذكرى أمى فى نفسى ، فلم تفارقنى طيلة اليومين !

ولذت بالصمت كعادتى الى أن هدأت ثورتها . وقدمت اليها سيجارة ، فقالت : « من العجيب أننى كنت أتشبث دائما ببغضها ، لانى كنت أعتبرها مسئولة عن رحيل أبى ، وكنت أتغاضى عن الحقيقة ، وأتناسى أن أبى كان فاسدا عربيدا .. وكنت أسأل نفسى دائما : لماذا يقيد نفسه وهو العملاق القوى ذو العنفوان ، بأمى العليلة المشلولة ؟ .. وأتناسى أنه كان عربيدا زئر نساء قبل أن تصاب أمى بالمرض الذى أقعدها . ولكنى كنت أحب ذلك الرجل ـ أبى ـ حبا أضل عقلى وأطاش حكمى . **ذلك لاننى كنت ابنته المفضلة . ولهذا أحببته وكرهت أمى لانها كانت تحاسبه على أفعاله . وبعد أن هجرنا أبى ، تفننت فى ايلامها وتعذيبها انتقاما له منها .** كنت أخطف من يدها طعامها ، وأظل أحاورها فى الحجرات ـ وهى تلاحقنى بمقعدها ذى العجلات صارخة ضارعة ـ ثم أهرب هابطة السلم وأتركها تدق بيدها سياجه ، ودموع القهر تنهمر من عينيها لعجزها عن الهبوط ورائى .. ثم تنفجر فى ضحك هستيرى ، أظنه هو سبب مايلاحقنى فى كابوس أحلامى من ضحكات غامضة المصدر ! »

محاولة للانتحار

• **وبعد** ظهر يوم من أيام الخميس ، كانت « لورا » المريض الاخير فى دفتر مواعيدى . وكنت أعتزم السفر الى (نيويورك) فى اليوم ذاته .. واذ علمت بأننى لن أعود قبل يوم الاثنين ، تساءلت : «هل معنى هذا حرمانى من جلسة السبت المعتادة؟

.. اننى أكره أن تفوتنى جلسة ، لانها أصبحت ضرورية لراحتى النفسية .. ماذا أفعل لو احتجت اليك فى غيابك ؟ »

ـ تتصلين ببيتى ، فيدلونك على رقم تليفونى فى نيويورك ..

وفى نهاية الجلسة ودعتنى وفى عينيها بريق غير مألوف ..

وسافرت الى نيويورك ، فسهرت مع زميل لى ، نتناقش فى بعض المسائل المتعلقة بالمهنة . ثم عدت الى فندقى ، واذا بكاتب الاستقبال يبلغنى رسالة فحواها أن على أن أطلب رقما معينا فى مدينة (بلتيمور) . ودهشت عندما صافح أذنى صوت « لورا » عبر الاسلاك .. فهتفت : « ماذا حدث يالورا ؟ »

ـ كنت أحاول الاتصال بك مدى ساعات طويلة .. فقد رغبت فى أن أتحدث اليك عن شعورى .. اننى خائفة ..

وسمعت صوتا يشبه البكاء ...

وفى مساء يوم الجمعة ، أويت الى مخدعى ـ فى الفندق ـ مبكرا ، استعدادا لقضاء عطلة الاسبوع لاول مرة منذ سنوات فى (نيويورك) .. واذا بى أتلقى نداء من زوجتى ، تدعونى الى التعجيل بالعودة !

وعدت لاجد طبيبا بجوار فراش « لورا » ، وقد ربط معصميها بالضمادات البيضاء .. ففزعت لفكرة محاولتها الانتحار بقطع شرايين يديها ، ولكن الطبيب أكد لى أن المحاولة لم تكن جدية ، اذ أنها عمدت ـ بعد خدش معصميها ـ الى الصراخ . فأسرعت احدى جاراتها لنجدتها

وفى اليوم التالى ـ وهو يوم السبت ـ حظيت « لورا » بجلستها فى المستشفى . واقتصرنا على دراسة محاولتها الانتحارية التمثيلية . فاعترفت بأن هدفها كان ارغامى على العودة من نيويورك ، بدافع من طبيعتها الانانية التى لاتحتمل شبهة الاهمال أو الهجر !

الحيوان النهم يستيقظ فى جوفها

• **على أن** محاولة الانتحار كانت أعمق من ذلك ، فقد كان الدافع اليها مزدوجا : الشق الاول منه اعادة تمثيل هجر أبيها للبيت ، ولكن بخاتمة سارة فى هذه المرة .. هى العودة ! .. وأما الشق الثانى لدافع الانتحار، فهو التكفير عن آثام مزعومة كانت تحس بأنها ارتكبتها فيما بين الثانية عشرة والرابعة والعشرين من عمرها

لقد أثار سفرى الى (نيويورك) ذكرى هجر أبيها لبيت الاسرة فخيل اليها أن محاولة الانتحار كفيلة بأن تردنى اليها ، ولعلها كانت تعتقد أن مثل هذه المحاولة ـ قبل عشر سنوات ـ كانت كفيلة برد أبيها .. لو أنه علم بمرضها أو قرب موتها !

وتماثلت « لورا » للشفاء بسرعة . وعادت لجلساتنا وهى أكثر اتزانا ، وكأنما الموت الذى واجهته مواجهة واقعية قد رد اليها صوابها . وزودتنا اعترافاتها فى تلك الفترة بمادة طيبة للتحليل خلال الاشهر التالية .. كما أن « لورا » ذاتها غدت شديدة الاستقامة ، عفة اللسان ، محافظة ، رصينة !

واستمرت الحال على هذا المنوال عدة أسابيع ، لم تتخلف فيها الفتاة عن جلسة واحدة .. وظللت حائرا لا أهتدى الى سر دائها الاصلى : داء الجوع الجنونى الذى كان يستولى عليها .

وفى ذات يوم ، تخلفت « لورا » عن موعدها ، دون أن تعتذر . وحاولت ممرضتى الاتصال بها تليفونيا ـ فى بيتها ـ فلم تتلق ردا . وفيما كنت فى البيت سمعت التليفون وأنا فى الحمام ، فلما خرجت علمت من زوجتى أنها رفعت المسماع فلم تتلق سوى زمجرة غامضة ، ثم ساد الصمت ..

وعلى مائدة العشاء غشينى شعور بالقلق ، رغم وجود أصدقاء فى ضيافتى فى تلك الليلة .. وفجأة رن جرس التليفون ـ ونحن نحتسى القهوة ـ فقفزت اليه . وسمعت

صوتا حيوانيا ، ينبعث من الحلق ، لم أسمع له نظيرا فى حياتى . وكانت مقاطعه غير مفهومة : **« لو .. لو .. »** . فهتفت وقد استنتجت اسم محدثتى : « لورا ؟ .. أين أنت ؟ »

ـ فى .. البيـ .. ت

ـ ماذا بك ؟ .. ماذا أصابك ؟

ـ آ .. كل !

ـ منذ متى وأنت تأكلين ؟

ـ لست أدرى .. فرغ الطعام .. جائعة .. ! أدركنى !

ثم سمعت مسماعها يسقط ، ولم أتلق على ندائى المتكرر جوابا . فأسرعت الى دارها .. وعبثا طرقت الباب ، فحاولت أن أدفعه ، ولكننى لم أفلح ، فوضعت فمى على ثقب المفتاح ورحت أناديها .. وأخيرا سمعت مايشبه البكاء ، وصوتها تقول : « انصرف .. اذهب عنى ! »

« لورا » .. بين الحيوانية والامومة

• **ولكنها** فتحت الباب أخيرا !

ودخت الحجرة ، لارى أعجب مستودع للقمامة : فتات ، وفضلات أطعمة على الاريكة والبساط والوسائد والمقاعد ..

ورحت أقاوم الغثيان ، ثم اقتحمت حجرة النوم ـ التى اختفت « لورا » بداخلها ـ وتحسست الجدار حتى عثرت على زر المصباح .. ورأيت فراشا كدست فوقه فضلات الطعام ، وكأنه صندوق قمامة آخر . وفى ركن من الحجرة رأيت « لورا » مكومة على الارض ، وقد غطت وجهها . فمددت اليها يدى وقلت : « هيا يالورا ، قفى على قدميك ! » .. ولكنها لم تنهض ، فحملتها على الوقوف حملا . ونزعت يديها عن وجهها

ورأيت منظرا لن أنساه ماحييت .. رأيت شيطانا رسم آثار الرذيلة والانحطاط والشراهة ، على لحم ذلك الوجه المتورم . وكأن البهيمية كانت تطل من كل مسام تلك السحنة !

وفجأة ، فطنت الى قميص النوم الواسع الذى تمسكه الى كتفيها حمالتان من الحرير .. كان القميص أبيض اللون ، ناصع البياض – فى الاصل – فلطخته البقع والاوضار . ولكن ذلك لم يلفت نظرى . وانما استوقفنى ذلك البروز الفظيع تحت خاصرتها ، وكأنها حبلى فى شهرها السابع على الاقل !.. وشهقت غير مصدق ، ثم امتدت يدى لاشعوريا الى ذلك الموضع ، فلمست أصابعى ليونة غير متوقعة . فرفعت عينى متسائلا الى عينيها . فلاحت على سحنتها المقلوبة مخايل ابتسامة . ثم فتحت فمها وأقفلته لتقول :

– جنين ..

– جنين ؟ ابن من ؟

– ابن لورا .. أنظر !

ثم رفعت ذيل قميصها رويدا فى حركة الثمل المترنح ، الى أن صارت يداها فوق رأسها . ونظرت الى جسدها العارى ، واذا بى أرى وسادة مربوطة الى بطنها !..



ثم ارخت ثوبها ، وسوت موضع الوسادة بيديها .. ثم غطت بهما وجهها وانفجرت باكية وهى ترتمى على فراشها القذر : « أريد طفلا ! »

ولم تلبث ان استغرقت فى نوم عميق ، فاستدعيت ممرضة خاصة للعناية بها ، وانصرفت .

وكان واضحا أن رغبة لورا العارمة هى انجاب طفل ،

وان الشعور بالخواء ، الذى يحملها على أن تملأ بطنها بالاكل والشراب ، هو شعورها بخلو احشائها من جنين .. والامومة رغبة انثوية طبيعية ، ولكن لماذا اتخذت الرغبة لدى « لورا » هذه الصورة الملتوية ؟

وظل السؤال حائرا فى ذهنى ، الى أن قدمت لى مريضتى الجواب ـ بعد شفائها فى نهاية الاسبوع ـ بفلتة لسان :

كنا فى عيادتى نبحث معا عن مغزى تحليلى لذلك اللغز ، ونستعرض المنظر . واذا بى أسألها : « أهذه أول مرة تقدمين فيها على هذه التمثيلية .. تمثيلية الحمل والامومة ؟ »

فقالت بتردد : « لست أدرى .. لعلى أقدمت عليها من قبل . وربما أيضا أكون قد أقصيت الوسادة قبل انتهاء النوبة ، وكأنما حدث لى اجهاض . ربما ! .. يخيل الى ان شيئا من هذا حدث لى منذ سنتين . ولكنى نسيت ! »

فقلت مازحا ، أخفى ارتباكى وحيرتى : « نقبى فى أرجاء مسكنك ، فربما وجدت « طفلا » احتياطيا مثل « العجلة الاحتياطية » فى السيارة ! » . وأجابت مازحة بدورها : **« لا أظن .. أحسبنى جديرة بأن أحظى بمعاونة « مايك » فى كل مرة أحبل فيها ! »**

ثم صرخت ووضعت يدها على فمها مذعورة .. لقدنطقت باسم أبيها « مايك » ، بدلا من اسم « بن » ، حبيبها !

وانبلجت العقدة الملعونة : **عقدة عشق الفتاة لابيها . فقد كانت فى سريرتها الباطنة تشتهى أن تنجب له طفلا . ولما كان هذا مستحيلا ، فقد راحت تشعر بأن الفراغ سيظل كائنا بداخلها .. وكان هذا الفراغ يؤلمها ، فتجنح الى ملئه بالاكل والشراب ، وهو يأبى أن يمتلىء .. لانه مستحيل الامتلاء ، بحكم التحريم الذى يحول بين الفتاة ومعاشرة أبيها جنسيا !**

عزيزي القارئ..

في الجزء الأول من ملحمة "هوميروس" الخالدة: (الإلياذة) - التي تقدم لك (مطبوعات كتابي) ترجمتها الحرفية الكاملة، نقلا عن الأصل اليوناني - قرأت معي كيف نشبت حرب طروادة المشهورة، بسبب اختطاف الأمير "باريس" - ابن ملك طروادة - للحسناء "هيلين" زوجة "منيلاوس" ملك (اسبرطة).. وكيف استمرت الحرب بين البلدين تسع سنوات، والإغريق مايزالون عاجزين عن اقتحام أسوار المدينة المحصنة!.. ثم كيف نشب الخلاف بين اثنين من أبطال جيش الإغريق، هما "أجاممنون" و"أخيل" - بسبب أسيرتيهما الحسناوين: "بريزيس" وابنة كاهن معبد أبوللو! - وما ترتب على ذلك الخلاف من خطير النتائج، التي غيرت وجه التاريخ خلال حرب طروادة!.. إلى آخر ما قرأت في الجزء الأول من هذه الملحمة الخالدة.



وبعد أيام.. يصدر الجزء الثاني من

الإلياذة



وفيه تواصل قراءة هذه الملحمة الرائعة التي أنشدها الشاعر اليوناني الأعمى "هوميروس" منذ ثلاثين قرنا، فتغنى بها شعب اليونان العريق آلاف السنين، في شبه خشوع وتقديس، ثم نقلت عنهم إلى جميع اللغات، فقرأها العالم كله، وألهمت الأدباء والفنانين في كل بلد وكل عصر آثارا خالدة من الشعر، واللوحات، والتماثيل لأبطالها الرئيسيين: "هيلين" و"باريس"، و"أخيل"، و"هكتور"، "أجاممنون".. الخ

فاحرص على اقتناء الجزء الثاني فور صدوره

(وإذا كان قد فاتك الجزء الأول فاطلبه من الإدارة قبل نفاده)

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها حلمي مراد

شركة فن الطباعة ٥٨١٤٩